د. رمسيس عوض

الثالوث المحرم

وايلد . رامبو . فيرلين



اهداءات ٢٠٠٢

أسرة المرحوم/شارل كرتيه

الاسكندرية



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

العدد ٥٢٤ - صفر - أغسطس ١٩٩٤

No - 524 - Au - 1994..

فاكس FAX 3625469

أسعار بيع العدد فئة ٣٥٠ قرشاً

سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٦٩٠٠ ليرة - الأردن ٢٧٠٠ فلس - الكويت ١٧٥٠ فلساً - السعودية ١٥ ريالاً - تونس ٢,٥٠٠ دينار - المغرب ٣٠,٠٠ درهما - البحرين ١,٢٠٠ دينار - قطر ١٢ ريالاً - دبى / ابو ظبى ١٢,٠٠ درهماً - سلطنة عمان ١,٢٠٠ ريال - غزة / الضفة - القدس ٢,٠٠ دولار - المملكة المتحدة ٢,٠٠ جك .

الثالوث المحرم

(وايلد - رامبو - فيرلين)

د . رمسيس عوض

●

دار الهـــلال

الغلاف للفنان :

حلمى التونى

القسم الأول

أوسكار وايلد (١٨٥٤ ـ ١٩٠٠)

١ - نبذة عن أوسكار وايلد وروايته «صورة دوريان جراى» :

ولد أوسكار فينجال أو فلاهبرتى ويلز وايلد الشاعر والكاتب المسرحى والروائى الأيرلندى السيىء السمعة تحت كوكب منحوس فى دبلن يوم ١٦ أكتوبر ١٨٥٤ من عائلة بروتستانتية ملتهبة الطباع مختلة المزاج. وتوفى، بعد أن كان المال ينساب بين يديه يبعثره ذات اليمين وذات اليسار من غير حساب، فى عوز قاس مهين طريدا منبوذا مغتربا، تمتد إليه يد المروءة ، والإحسان فى باريس يوم ٣٠ نوفمبر ١٩٠٠. وكان أبوه السير وليم وايلد جراحا للعيون والأذن ماهرا ذائع الصيت يتقن فن مراودة النساء عن أعراضهن. وبالرغم من انصرافه إلى مزاولة الطب وانتهاك الأعراض فقد وجد لديه متسعا من الوقت لدراسة الفولكلور الإيرلندى وتأليف الكتب عنه، فضلا عن التاريخ الطبيعى والأنساب والأعراق. ألف السير وليم وايلد الذى ينحدر من أصل هولندى كتابين متميزين عن طوبوغرافية أيرلندا فى الأزمنة القديمة، كما أنه سعى فى كتاباته إلى إثبات أن الكاتب الأيرلندى الكبير جوناثان سويفت صاحب رواية «رحلات جليفر» المعروفة لم يصب

بالجنون فى أخريات أيامه مثلما يظن الكثيرون. وكان زير نساء ومنحلاً إلى أبعد الحدود أنجب عددا لا بأس به من الأطفال غير الشرعيين من بينهم طفل اسمه هنرى ويلسون سار على نفس الدرب الذى سار فيه أبوه وصار مثله واحداً من أشهر الجراحين فى مدينة دبلن.

وكانت جين فرانسيسكا أم أوسكار وايلد فى شبابها فتاة حادة الطبع تهوى الكتابة والأدب وتنشر ما تكتبه تحت اسم سبيرانزا المستعار الذى استمدته من تاريخ بلادها القومى وتقف قلمها على الدفاع عن قضية تحرير أيرلندا من قبضة الانجليز وتحض أبناء جلدتها على الثورة المسلحة في وجوههم. وقد أصابت هذه السيدة شهرة كبيرة فى كل أرجاء أيرلندا بسبب ما سطره .. يراعها من شعر ونثر يتميز بالعاطفة القومية المتأججة . وإلى جانب اهتمامها مثل زوجها بجمع الفولكلور الأيرلندى نذرت نفسها للدفاع عن حقوق المرأة.

كان لأوسكار وايلد أخ أكبر يدعى ويلز وأخت صغرى اسمها ايزولا فرانسيسكا فجعت العائلة بموتها وهى فى التاسعة من عمرها. ولم تكن ولادة أوسكار أمرا مرغوبا فيه فى بادىء

الأمر، فقد كانت أمه تتحرق شوقا إلى إنجاب طفلة بدلا منه. الأمر الذى دعاها إلى إلباسه ملابس البنات فى طفولته وإحاطته بالتدليل اللائق بالإناث. ويعد أن شب أوسكار عن الطوق احتفظ بشىء من التخنث فى مظهره ومسلكه على الرغم مما كان يتمتع به من قوة البدن، ويلقى بعض الدارسين تبعة انحرافه اللاحق على كاهل أمه التى عاملته فى طفولته معاملة الإناث، فى حين يلقى فريق آخر تبعة ماحدث له على تركة العيوب الوراثية الثقيلة التى خلفها له أسلافه ، كما يذهب البعض (مثل صديق عمره روبرت شيرارد الذى يعتبر كتابه «أوسكار وايلد : قصة صداقة تعسة» (١٩٠٦) بمثابة المصدر الأم الذى اعتمد عليه كل من عالج سيرة حياته حتى الآن) إلى أن إدمانه الشراب وتهالكه عليه يعفيه من مسئولية ما ارتكبه من أفعال.

من الثابت أن أوسكار وايلد كان نابها فى طلب العلم. ولم يكن تفوقه الأكاديمى راجعا إلى العمل الشاق بحال من الأحوال، فطبيعته الخاملة تجنح إلى الكسل وتستمتع به، بل إلى حافظته الفوتوغرافية المذهلة التى تعى كل كلمة تقع أبصاره عليها. وفى عام ١٨٧١ حصل وايلد على منحة دراسية مكنته من الإلتحاق بكلية ترينيتى فى دبلن. ومنها أظهر تفوقا ملحوظا فى دراسة اللغة الإغريقية فمنحته الكلية ميداليتها الذهبية السنوية تقديرا له على

تفوقه، وكان يرهنها كلما نضبت موارده، وبفضل تفوقه في الآداب الكلاسيكية القديمة التحق في عام ١٨٧٤ بكلية ماجدالين بجامعة أكسفورد التي تخرج منها في عام ١٨٧٨. وفي نفس هذا العام فاز بجائزة للشعر على قصيدته «رافينا» . وزار وايلد إيطاليا أثناء إجازته الجامعية عام ١٨٧٥ يرافقه صديق العائلة ومعلمه القس جون بتلاند ماهافي استاذ التاريخ القديم بكلية ترينيتي بدبلن يؤلف بينهما كلفهما المشترك باللغة الإغريقية وآدابها. وفي روما اجتاح وايلد حنين عارم إلى الكثلكة الرومانية ظل يلازمه مدى الحياة ووقف مشدوها أمام مافيها من معمار ديني، ولكن هذا الافتتان بالكثلكة الرومانية لم يمنعه من أن يتوقف عند مدافن البروتستانت خارج أسوار كنيسة القديس بولس في روما حتى يلقي حفنة من الأعشاب الخضراء على قبر جون كيتس شاعر الحواس تكريما لذكراه. وفي عام ١٨٧٧ رافق التلميذ أستاذه السابق في رحلة سياحية أخرى إلى اليونان. ولم يأل ماهافي جهدا في غرس الوله بوثنية الإغريق وعبادتهم للجمال كما تتمثل في فلسفة أفلاطون وفي آدابهم وتماثيلهم الجميلة الرائعة في نفس رفيقه الشاب. وبذلك وضع ماهافي تلميذه على أول الطريق نحو الإيمان بالوثنية، والغريب في الأمر أن وايلد ظل طيلة عمره نهبا مقسما بين الرغبة في الاستمتاع برضاب اللذة الحسية إلى حد

اللوثة كما تتمثل فى وثنية الإغريق وبين التشوق إلى حياة القداسة والتبتل كما تتمثل فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. ففى شبابه كان يتوق إلى التحول من البروتستانتية إلى الكاثوليكية، ولكن أبويه اعترضا على هذا التحول، ولهذا نراه يحملهما مسئولية مالحق به من عار فى أواخر حياته لأنهما حالا بينه وبين ما أراد، ويفسر لنا هذا سبب تعلقه الشديد بالكاردينال نيومان باعث الكاثوليكية فى انجلترا فى القرن التاسع عشر. وبعد خروجه من السجن فى ١٩ مايو ١٨٩٧ أراد وايلد أن يكرس حياته لخدمة الكنيسة الكاثوليكية واتصل بأحد القساوسة الكاثوليك حتى يساعده فى هذا الشأن. ولكن القسيس نصحه أن يتمهل عاما بأكمله حتى يتأكد أن رغبته فى التحول لا تنهض على التحمس الوقتى . وبعد أن نبذه العالم وأصبح مضغة الأفواه زار أوسكار وايلد روما مرة أخرى وهناك حرص على رؤية البابا كلما سنحت له الفرصة . بذلك وفى يوم من أيام الآحاد اعترض طريق الحرس فى الفاتيكان وتقدم من البابا المحمول على عرشه حتى يراه عن كثب، ويذكر وايلد هذه التجربة الصوفية التى تصل فيها الروح إلى درجة الشفافية قائلا: إنه لم ير فى حياته رشاقة تضارع رشاقة الرجل المقدس وهو ينهض من عرشه بين الفينة والفينة ليمنحه البركة «بكل تأكيد». وأكدت له هذه العلاقة أن الله، لم يخذله . وكان أوسكار وايلد مفتونا بشخصية المسيح بما تحتوى من صفات الربوبية وصفات البشرية المخذولة المعذبة، وفى أيام السجن كان

يتمثل عذابه فى عذاب المسيح المصلوب على خشبة الصليب . وبعد خروجه منه كان يحدث الناس بالحكم والأمثال كما كان المسيح يفعل مؤمنا بأنه جاءهم بنور الفن وهدايته فهزأوا به وخذلوه تماما كما هزأوا بالمسيح من قبل وخذلوه.

وبالرغم من حنينه أبداً إلى الكاثوليكية الرومانية فقد كان اسم وايلد أيام الطلب بجامعة أكسفورد مقرونا بالدعوة الوثنية إلى مبدأ اللذة وعبادة الجمال. ويغرينا هذا بأن نعرض للمفكرين والأدباء الذين تأثر بهم فى شبابه. ففى أكسفورد تلقى وايلد العلم على يدى جون رسكين أستاذ الفنون بها الذى كان يبشر بضرورة الجمال ونبل العمل، ويهاجم المادية واستخدام الآلة التى شوهت جمال الطبيعة . وقد تأثر التلميذ بأستاذه تأثرا كبيرا، وليس أدل على هذا من أن رسكين استطاع أن يخرجه عن كسله المعهود فاشترك وايلد مع أستاذه ونفر آخر من مريديه فى إصلاح بعض الطرق، ولم تكن الدعوة إلى الجمال جديدة فقد كانت تسرى فى الثمانينات والتسعينات من القرن التاسع عشر نزعة قوية إلى الجمال فى أرجاء جامعة أكسفورد دون أن تتسم هذه النزعة بالنظام وتمثل هذه النزعة فى نفورها من الآلة من الناحية التاريخية استمرارا للتقاليد الرومانسية التى تميزت بها « حركة ما قبل الرفائيليين» التى أسهم فى إرساء قواعدها رسامون

شعراء أمثال «دانييل جابريل روزيتى» و« ادوارد بيرن جونز» و«وليم موريس». ولكن رسكين لم يستطع الاستيلاء على شغاف قلب وايلد كما استولى عليه أستاذ له آخر فى أكسفورد هو «والتر باتر» . فقد كانت روح رسكين تجنح إلى التشدد مع النفس فضلا عن أنه كان يبشر بأن للفن جانبا يتصل بالأخلاق ، وهذا ما كان وايلد يرفضه رفضا مطلقا. وبإيجاز كانت عناية رسكين بالخير والحق تفوق عنايته بالجمال وهذا مادعا وايلد إلى أن يستلهم مفكرا آخر هو والتر باتر الذى فتنه بدعوته إلى الإنطلاق والوثنية بما تتضمنه من مبدأ عبادة اللذة. كان باتر يبشر بقيمة التجربة الشخصية في وجه كل القيود الاجتماعية على أنها الهدف النهائى فى الحياة ويرفض أى نظرة تطالب الإنسان بالتضحية بجانب من تجربته الشخصية فى سبيل قضايا عامة أو من أجل التقاليد والأخلاق ولكن دعوة باتر إلى الوثنية والاستمتاع بطيبات الحياة لم تعد على يديه أن تكون دعوة نظرية بحتة، فقد كان باتر الرجل يختلف كل الاختلاف عن باتر المفكر، فهو خجول للغاية يعيش فى صومعة الفكر عيشة النساك.. والرهبان.. وتلقى الشباب العطش تعاليم هذا المفكر الراهب بفرحة غامرة ورأوا فيها تشجيعا لهم على التهالك على الشهوات، وعندما شاهد باتر ما آلت إليه آراؤه عند التطبيق أصابه ذعر شديد، الأمر الذى حدا به أن يجرى بعض التعديلات فى الطبعات اللاحقة من دراساته فى عصر

النهضة. واستبشع باتر أن تتحول فلسفته الراغبة فى الانتهال من موارد الجمال وتحرير الروح من قيود التقاليد والواضعات إلى دعوة للفجور والانحلال، ويفسر لنا هذا السر فى أن باتر لم يحترم فى أى يوم من الأيام إنتاج وايلد الأدبى ، بل كان ينظر إليه بارتياب ويهاجم صاحبه فى أحاديثه الخاصة، فضلا عن أنه كتب لتلميذه يطلب منه حذف بعض الفقرات فى «صورة دوريان جراى» التى قد يساء فهمها فأجابه وايلد إلى طلبه كما يتضح لنا من المحاكمة التى أجريت له. ولكن وايلد ظل طيلة حياته مفتونا بأستاذه. وفى نهاية حياته صرح وايلد بأن كيتس وفلوبيرت ووالتر باتر هم أكثر الأدباء الذين تأثر بهم على الإطلاق. وترتكز نظرية وايلد فى الفن على رفض الواقعية وتأكيد سمو الفن على الطبيعة والحياة وعلى المناداة بفصل الفن عن الأخلاق.. وفى هذا الصدد يقول «إن كون المرء قاتلا لا يدعو لإدانة ما يكتبه من نثر، كما أن الفضائل العائلية ليست أساسا حقيقيا للفن».

وبعد تخرجه من أكسفورد سافر وايلد فى عام ١٨٨٢ إلى أمريكا للمرة الأولى حيث حاضر فيها عن الفن. ثم سافر فى عام ١٨٨٣ لأول مرة إلى باريس حيث التقى بطائفة كبيرة من الفنانين والأدباء أمثال دوجاس وبيسارو والفونس دوديه وهيبو ومالارسيه وبول بورجيه وزولا والممثلة ساره برنار وفيرلين الذى نفر منه لقبح

منظره مما دعاه إلى أن يقول: «من الأفضل أن يكون الإنسان جميلا من أن يكون خيرا .. ولكنه من الأفضل أن يكون خيرا من أن يكون قبيحا».. وفى باريس أعرب وايلد عن إعجابه الشديد بشعر بودلير وروايات بلزاك الذى تشبه به فى مسلكه وملبسه.

كتب أوسكار وايلد فى بدء حياته الأدبية مأساة مسرحية بالشعر الحر بعنوان «دوقة بادوا» باءت بالفشل الذريع وقصيدة شعرية بعنوان «أبوالهول» تفوقها اتقانا. وكان من الواضح أنه فى هذه المرحلة من حياته لا يكتفى بتقليد غيره من الشعراء (كما قلد شعر شكسبير الحر فى «دوقة بادوا» وأوزان الشعر فى قصيدة «فى الذكرى» لتنيسون فى قصيدة ألفها بعنوان «أبوالهول») بل إنه كان يعيد استخدام بعض أبيات من الشعر سبق أن ألفها فى قصائد أخرى . وعندما لفت بعض أصدقاء وايلد نظره إلى هذه السرقات الأدبية لم يجد غضاضة فيما فعل. وتمثل قصيدة «أبوالهول» أهمية خاصة من حيث أنها مفتاح الشخصية مؤلفها الذى يميل بطبيعته المسرحية إلى استخدام العبارات الطنانة والجمل الرنانة والألفاظ المزركشة.. فضلا عن متعته الصبيانية فى صدم أفكار البورجوازيين المحترمين التى وجدت لها أكمل تعبير فى روايته «صورة دوريان جراى» (١٨٩١) ومسرحيته الجريئة «سالومى» (١٨٩٣) التى ألفها بالفرنسية قبل ترجمتها إلى

الانجليزية. وأظهر وايلد تحمسا لقضية الاشتراكية وعطفا شديدا على الفقراء فى مقال نشره بعنوان «روح الإنسان فى ظل الاشتراكية» (١٨٩١) أثار عليه حفيظة كثير من أصدقائه الأرستقراط. ويجدر بنا فى هذا الصدد أن نعرف أن استمتاعه بمخالطة المنبوذين فى المجتمع لم يكن يقل عن استمتاعه بمصاحبة الارستقراط والفنانين، وإلى جانب ذلك جمع وايلد طائفة متفرقة من المقالات النقدية فى مجلد واحد تحت عنوان «نوايا» (١٨٩١). وعلى مسارح لندن مثلت مسرحياته الكوميدية الأربع الشهيرة التى كانت سببا فى ذيوع صيته والتى تعيد فكاهتها إلى الأذهان مسرحية «مدرسة الفضائح» لشيربدان. وهذه المسرحيات الأربع هى: «مروحة الليدى ويندومير» (١٨٩٢) و«امرأة لا أهمية لها» (١٨٩٣) و«الزوج المثالى» (١٨٩٥) وهو نفس العام الذى مثلت فيه «أهمية أن يكون المرء جادا» التى تعتبر لؤلؤة مسرحياته الأربع على الإطلاق. ثم نشر وايلد الأعمال الروائية التالية: «جريمة اللورد سافيل» (١٨٨٧) و«شبح كانترفيل» (١٨٨٧) ثم «منزل الفاكهة» (١٨٩١) وفى سجنه الذى استمر عامين (١٨٩٥ ـ ١٨٩٧) كتب وايلد «من الأعماق» فى شكل رسالة بعث بها من السجن إلى مصدر شقائه وسعادته اللورد ألفريد دوجلاس يكفر فيها عما اقترفه من إثم. وكانت محنة السجن الضربة القاضية

التى أجهزت على كل ما فيه من ملكات فنية وجففت فيه ينابيع الخلق الأدبى، فبعد خروجه منه لم يخلق شيئا ذا بال باستثناء «قصيدة من سجن ردبخ» (١٨٩٨). والغريب فى الأمر أن أوسكار وايلد كان يكتب مؤلفاته بسهولة ويسر وبدون أدنى مجهود. وآية ذلك أنه انتهى من تأليف مسرحياته الأربع فى مدة لا تتجاوز بضعة أسابيع. وبالرغم من هذا كان يحمل نفسه على مغالبة طبيعته الكسولة الخاملة حتى يجد وقتا كافيا للكتابة ، فقد كان جل وقته منصرفا إلى الحديث والشراب والاستمتاع باللذات. وكان خياله أثناء الحديث يتقد ويتأجج فينسج عددا لا حصر له من الحكايات الجميلة التى كان بعض الكتاب يسطون عليها ويجعلونها أساسا لروايات يقومون بتأليفها. وما من شك أنه قل أن نجد أدبا فرديا يتميز بالتركيز على الذات إلى هذا الحد الذى بلغه أدب أوسكار وايلد. فالكثير من أعماله الفنية لا يخلو من بصمات شخصيته، لدرجة أنه يسهل علينا أن نتعرف على شخصية المؤلف فى صفحات رواياته ومسرحياته. فأوسكار وايلد هو اللورد هنرى ووتون فى رواية «صورة دوريان جراى» . وهو أيضا .. اللورد جورنج فى مسرحية «الزوج المثالى».

وإذا عَنّ لنا أن نتساءل عن أهمية أوسكار وايلد الأدبية فلن نجد مفراً من أن نردد ما ذكره وايلد لأندريه جيد من أنه «وضع عبقريته فى أحاديثه، فى حين أنه وضع موهبته فقط فى كتاباته»، وذلك لأن أهمية وايلد كمتحدث وصاحب نكتة ذكية بارعة تفوق أهميته ككاتب. كان وايلد يشيع البهجة والمرح فى نفوس كل المحيطين به فى تلقائية ليس لها فى تاريخ الأدب الانجليزى نظير، الأمر الذى جعل علية القوم ووجهاءهم يتهافتون على صحبته ويحرصون على دعوته إلى موائدهم وحفلاتهم. وفى كل مجلس يحضره كان يحتكر الحديث دون أن يفرض نفسه على المحيطين به، فقد كانوا يسلمون له ـ وهم مبهورون ـ قيادة دفة الحديث طواعية واختيارا حتى يمكنهم الاستمتاع بأكبر قدر من ملحه ودعاباته . وكان من النادر أن يسخر من أى من الحاضرين إذ أن طيبة قلبه وطبيعته الرقيقة كانتا تمنعانه من خدش مشاعر أى إنسان مهما ضؤلت مكانته بين الناس . وكان وايلد يستعين بقدراته الكافية كممثل فى الاستيلاء على ألباب الناس ومشاعرهم، تساعده فى ذلك ذاكرته الرهيبة وصوته الموسيقى الناعم الرخيم. وكانت نكاته تعتمد فى كثير من الأحيان على المفارقة والتورية كما كانت تعتمد على هزله واستخفافه فى تناول الموضوعات التى يعالجها الناس بجدية، فى حين أنه كان يتناول بجدية تامة كل ما

تعارف الناس على تفاهته. ومكنته هذه الطريقة من الهجوم على الكثير من التقاليد والمواضعات الاجتماعية والاكليشهات الفكرية السائدة والحكم والأمثال الشائعة، فأضاف بذلك أبعادا جديدة إلى الحقيقة كانت متوارية على الأنظار. وهناك فى «صورة دوريان جراى» وصف للأسلوب الذى كان وايلد نفسه يتبعه فى معالجة الأفكار. يقول وايلد عن اللورد ووتون: «كان يلعب بالفكرة ويتشبث بها فى عناد يشبه عناد الأطفال ثم يقذفها فى الهواء ليتلقفها ويحولها إلى شىء جديد، ويسمح لها بالهروب منه ليمسك بتلابيبها من جديد ثم يجعلها تشع بالخيال ويلبسها أجنحة المفارقة. كان لامعا مذهلا يعبث بغير شعور منه بالمسئولية. كان يفتن مستمعيه بالرغم منهم فيتبعوا قيثارته ضاحكين». والضحك عند أوسكار وايلد نهم إلى الحياة وعبث صبيانى وفلسفة فى وقت واحد. استمع اليه وهو يقول : «إن الإنسانية تنظر إلى نفسها بجدية أكثر مما ينبغى . وهذه الجدية هى الخطيئة الأولى التى تردى فيها العالم. . أن رجل الكهف قد تعلم كيف يضحك لتغير مجرى التاريخ» . له: «الجدية هى الملجأ الوحيد الذى يلوذ به ذوو التفكير الضحل».

ويسخر وايلد من الأفكار التقليدية فى مجال الأخلاق فيقول: «الواجب هو ما يتوقع المرء من الآخرين أن يفعلوه وليس ما يقوم هو بعمله .. إن الأخلاق بكل بساطة هى الموقف الذى نتخذه من

الناس الذين نكرههم كراهية شخصية. وفي بعض الأحيان تلخص نكتة في كلمات موجزة قضايا فكرية كبيرة ومسائل نفسية عويصة يتناولها غيره من الكتاب بالشرح فى مجلدات. ونذكر فى هذا الصدد على سبيل المثال قوله : «إن الضمير يجب أن يمتزج بالغريزة حتى نصبح مرهفى الحس والشعور». هذه المقولة يمكن اعتبارها حجر الزاوية فى فلسفة صامويل بتلر. وليس قوله: «إن كل دافع نفسى نسعى إلى كبته يجثم فى عقولنا ويسمم ينابيع الحياة فينا» سوى تلخيص لجوهر نظريات فرويد فى علم النفس. ومن النادر أن يستقى نكاته من أحد اللهم إلا قوله: «إن فضائلنا لا تعدو أن تكون فى أغلب الأحيان شرورا مقنعة، الذى استمده من لاروشيفوكولد ويتفوق أوسكار وايلد كمتحدث على كل المتحدثين البارعين الذين عرفهم تاريخ الأدب الانجليزى نظرا لخلو حديثه مما كان يشوب أحاديثهم من مثالب، فقد كان سويفت مريرا فى نكاته ميالا إلى المشاجرة، كما كــان الدكتــور جونسون يتحدث بأســلوب من يقــول فصل الكلام وينهر الناس فى كثير من الأحيان حتى يلوذوا بالصمت . وكان كوليردج يتكلم من جانب واحد ولا يشاركه فى الحديث أحد. فضلا عن خلو أحاديثه من روح النكتة والدعــابة. وكان مــاكولى يفــرط فى تأكيد ذاته وفى استعراض معلومــاته ، كما كــان كــارليــل يتــورط فى الأطناب والهجوم على الناس .

ويشهد جورج برنارد شو نفسه بتفوق وايلد عليه فى مجال الحديث والنكتة، ولكن طبيعة شو الجادة كانت أحيانا تضيق ذرعا بنكتة وايلد المستخفة عندما تفتقر هذه النكتة إلى القدرة على شحذ الأذهان. وليست فى ذلك أية غرابة فشو رجل جاد فى هزله فى حين أن وايلد هازل فى جده.

تحدث وايلد عن الشعب الأيرلندى فقال: «نحن شعب شاعر أكثر مما ينبغى لدرجة أننا لا نستطيع أن نكون أمة من الشعراء. نحن أمة من الفاشلين اللامعين. ولكننا أعظم شعب يتقن فن الحديث منذ الإغريق»، ويتجلى لنا هذا من محاكمته التى يرجع السبب الأصلى منها إلى رغبته فى حماية صديقه اللورد ألفريد دوجلاس من والده الماركيز كوينزبرى، وفيما يلى الظروف التى تعرف فيها وايلد باللورد دوجلاس. فى أواخر صيف ١٨٩١ طرق باب وايلد شابان أحدهما الشاعر نيونيل جونسون الذى حضر بروفة اللورد ألفريد دوجلاس، وقدمه إلى مضيفه على أنه أديب يهوى قرض الشعر. كان دوجلاس شابا رقيقا حساسا فى الحادية والعشرين يطلب العلم فى جامعة أكسفورد وتطلع وايلد إلى ضيفه سليل النبلاء فبهره جماله وهزته نضارته ورأى فيه تجسيدا لكل ما دعا إليه الإغريق من مثل جمالية، كما رأى فيه

تجسيدا رائعا لانسجام الجسد مع الروح، وفى هيامه المجنون بالتشابه الارستقراطى الجميل كتب له وايلد فى غير حرص أو تحفظ رسائل من الشعر المنثور تفيض بالعشق والغرام. وكان بين اللورد دوجلاس وأبيه قطيعة متصلة يتعمد فيها الأب أن يتحرش بالابن كما يتعمد الابن أن يهين أباه ويتحداه. وقبل أن نعرض لقصة التجاء اوسكار وايلد للقضاء والعواقب الوخيمة التى نجمت عن ذلك يجدر بنا أن نقدم ملخصا لرواية «صورة دوريان جراى» نظرا لأن الادعاء استند إليها فى اتهام مؤلفها بممارسة الشذوذ الجنسى.

نبذة عن «صورة دوريان جراى»:

يعتبر النقاد الآن «صورة دوريان جراى» تحفة أوسكار وايلد الأدبية رغم أنهم نعتوها عند صدورها بأبشع الأوصاف، حتى والتر باتر نفسه الذى تجسد هذه الرواية كثيرا من معتقداته استقبلها بفتور ، والغريب فى الأمر أن وايلد استمد قصته من واقعة حقيقية حدثت له. ففى عام ١٨٨٤ توجه وايلد إلى مرسم صديق له اسمه بازيل وارد فرآه يرسم صورة لشاب جميل. ولما فرغ من رسمها وانصرف الشاب التفت إليه وايلد وخشى أن يختفى شبابه النضير عندما يتقدم به العمر. فوافقه الرسام على

رأيه وتمنى لو احتفظ الشاب بنضارته فى حين يصيب الصورة الهرم. ولهذا نرى أن وايلد يكاد يحتفظ فى روايته باسم الرسام كاملا، وبالرغم من أن صورة دوريان جراى تتسم بالواقعية الشديدة من حيث أن شخصية اللورد هنرى ووتون تجسيد لحياة مؤلفها فإنه لا يخفى علينا عند قراءتها مدى إغراقها فى الخيال والبعد عن الواقع. واعترف وايلد لمؤلف شخصية شرلوك هولمز السير آرثر كونان دويل قائلا: «إن ضبابا من الألفاظ يفصلنى دائما عن الحياة، فأنا أقذف بما هو محتمل الوقوع خارج النافذة من أجل عبارة واحدة وتدفعنى النكتة الذكية إلى هجران الحقيقة». فضلا عن أن وايلد ذكر لإحدى صديقاته فى الموضوع نفسه: «إننى لا أستطيع معالجة الحقيقة أبدا . فلو جاءت الحقيقة إلى حجرتى لقذفت بها من النافذة» .

تبدأ رواية «صورة دوريان جراى» بحديث بين الرسام بازيل هولوورد واللورد هنرى ووتون تعرف منه أن الرسام فى سبيله إلى الإنتهاء من رسم صورة بالحجم الطبيعى آية فى الروعة والإبداع لشاب آية فى الجمال والنضارة اسمه دوريان جراى، وأنه لا ينوى عرضها لأنه لا يحب أن يتطلع السفهاء إلى روحه وقد تجردت من كل ما يسترها، فقد وضع هولوورد فى هذه الصورة من روحه ما

لم يضعه في أي عمل فني آخر له . ويسر الرسام في أذن صديقه اللورد بمشاعر الوله التي اجتاحته عندما وقعت أبصاره على دوريان جراي لأول مرة (وهي المشاعر التي لمح المحقق كارسون أثناء المحاكمة بأنها غير لائقة) فيقول: «وعندما تلاقت نظراتنا أحسست بالدم يفيض من وجهي وتملكني فزع غجيب وأيقنت أني أمام إنسان ذي شخصية ساحرة مدمرة، فلو أني تركت الأمور تجري في مجراها العادي لاستغرقت روحه روحي ولأفنت نفسه نفسي ولسيطر على فني ومواهبي . ثم هتف بي هاتف لا أعرف مصدره يقول إن حياتي تجتاز أزمة هائلة وأحسست بأن القدر يخبيء لي أفراحا لا حد لها وأتراحاً لا حد لها». ويسترسل هولوورد في شرح ولهه بدوريان جراي فيقول: «إن رؤية هذا الصبي حين يخطر أمامي تلهمني دون وعي مني بأسس مذهب جديد، وأحس بهذه الأسس إحساسا واضحا فتلهمني بأسلوب جديد اجتمع فيه خيال المدرسة الرومانسية وسمو الروح اليوناني، أسلوب يقوم على إنسجام الروح والجسد .. فيا له من حلم جميل! ها نحن بحماقتنا قد فصلنا الروح عن الجسد واستحدثنا منهما فنا مثاليا خاويا يخلو من كل مغزى وفنا واقعيا مبتذلا». ولهذه الفقرة من الرواية دلالتها فهي تشير إلى عداوة أوسكار وايلد

للواقعية من ناحية وتمجيده لوثنية الإغريق من ناحية أخرى.. وفى موضع آخر من هذه الرواية نقرأ هجوما آخر على الواقعية مفاده «إن الحياة الواقعية قوامها الفوضى. أما الخيال فمنطقى ومرتب، فالخيال هو الذى جعل الندم يتبع الخطيئة. والخيال هو الذى جعل لكل جريمة أحلامها المزعجة. ويعترف الرسامل للورد ووتون إنه وضع فى صورته «هذه الوثنية الفنية الشاذة». فواجب الفنان أن يصنع الأشياء الجميلة كما يقول وايلد فى صدر روايته.

وفى غيرته على دوريان جراى يسعى هولوورد إلى المحافظة على براءته وشبابه وطهارته حتى لا يتلوث بفساد العالم ويحاول دون جدوى أن يمنع صديقه الشرير السيىء السمعة اللورد ووتون من الاتصال به حتى لا يفسده بآرائه اللاأخلاقية العابثة التى تذهب إلى أن «واجب الإنسان الأول هو واجبه نحو نفسه». وأن غاية الحياة هو تقدم الذات و«تحقيقها» وإلى أننا «عبيد الخوف» .. الخوف من المجتمع وهو جوهر الأخلاق، والخوف من الله وهو جوهر الدين . وفى رأيه أن الإنسان لو حقق كل حلم يداعب خياله لعادت البهجة إلى الحياة مرة أخرى . ولعدنا إلى المثل الأعلى فى حضارة اليونان .. حضارة هيلاس . بل لتجاوزنا اليونان وحضارتهم الخصبة الجميلة . و«لا نجاة من الغواية إلا

بالاستسلام لها فكل نازع نكبته يسمم فينا ينابيع الحياة. ويخفق هولوورد فى منع ووتون من رؤية دوريان جراى الذى تنشأ بينه وبين اللورد الشرير صداقة عريقة الوشائج، فلا يألو ووتون جهدا فى تسميم أفكاره بآرائه: «ها قد عرفت طريقك إلى الخلاص يادوريان فما يطهر الروح إلا الحواس ، وما يطهر الحواس إلا الروح». ويخلص له اللورد الشرير النصح فيقول له : «عش وانعم بالحياة المتفتحة فيك واستفد من كل اختبار يمر بك وجدد إحساسك بالحياة ولا تخش شيئا، فعصرنا بحاجة إلى دين جديد، إلى وثنية جديدة، إلى إحياء عبادة انطوت تحت أنقاض الإغريق». ويشرح اللورد الشرير للشاب النضر نظرته إلى الجمال فيقول: «الجمال لون من ألوان النبوغ، بل الجمال أعلى قدرا من النبوغ، وهذه أيضا حقيقة مقررة فإن كنت تشك فى ضوء الشمس أو فى الربيع أو فى القمر الفضى حين ينعكس خياله على الحياة المظلمة أو فى أشباه هذه الحقائق الأولية، فلك أن تشك فى صدق ما أقول، إن الجمال يحكم العالم بإذن من الله، ولا ينازعه فى دولته شىء فى الوجود فمن حبته الطبيعة به جلس على عرش القلوب . أراك تبتسم لهذا الكلام، ولكنك لن تبتسم حين يزول عنك جمالك. أسمع الناس يقولون إن الجمال سطحى ولعلهم صادقون فيما ذهبوا

إليه. ولكن الجمال مهما كان سطحيا فلن تصل تفاهته إلى تفاهة الفكر .. ولو سألتنى الرأى لقلت لك إن الجمال عجيبة العجائب. ولقد يكون الجمال قشرة ظاهرية. ولكن الظواهر هى كل شىء فى الحياة، ومن لا يحكمون بالظواهر هم السطحيون الذين لا يفهمون شيئا عن لغز الحياة . فلغز الحياة هو ما نراه وليس ما لا نراه». ويرى اللورد ووتون أن الفن عديم الجدوى ولا أثر له فى سلوك الإنسان: «الفن عقم جميل . والكتب التى ينعتها الناس بأنها منافية للأخلاق هى التى تكشف للإنسانية عن عورتها».

وعندما فرغ الرسام هولوورد من رسم صورته أهداها إلى دوريان جراى مصدر وحيه وإلهامه بعد أن أودعها كل روحه وطاقته. ولفرط إتقانها وكمالها الفنى حدثت معجزة فقد بدأت الحياة تدب فى الصورة يعتريها ما يعترى صاحبها دوريان جراى من خلجات وما يجيش به من عواطف.. وتستهوى الشاب دوريان جراى رفقة اللورد الشرير وتروق له آراؤه ويخضع لها ويتأثر بها. ويعترف دوريان جراى لصديقه الجديد بحبه لممثلة جميلة مغمورة تلعب دور جولييت على خشبة المسرح. اسمها سيبيل فين فى السابعة عشرة من عمرها، وأنه يعقد العزم على الزواج منها. ويصف لنا وايلد على غير عادته عائلة هذه الفتاة الفقيرة: أمها

التى تميل بطبيعتها المسرحية إلى السلوك الميلودرامى فى حياتها اليومية ، وأخاها جيمس الشاب الصغير الذى يزمع الرحيل إلى استراليا بحثا عن الثروة والنجاح والذى يكره دوريان جراى لأنه انتزع أخته منه. وبالرغم من عطف وايلد على الفقراء فإنهم لا يلهمونه بالفن كما يلهمه به الأرستقراط، الأمر الذى يذكرنا بما قاله اللورد ووتون عن شقاء الفقراء. «إن صدرى يتسع لكل شىء ولكنه يضيق ذرعا بالشقاء . نعم، أنا لا أعطف على الشقاء ، فالشقاء بشع والشقاء كريه والشقاء يكسر القلوب، وأنا أرى أن اهتمام هذا الجيل بالألم نوع من المرض . فالواجب أن نهتم بألوان الحياة الزاهية، بجمالها وأفراحها، فخير لنا أن ننسى أوجاع الحياة».. ويدعو دوريان جراى صديقه اللورد الشرير لمشاهدة سيبيل حبيبته وهى تمثل دور جولييت على المسرح. ولسوء الحظ كان تمثيلها فى تلك الليلة رديئا مفتعلا منفرا فانكسر قلب دوريان جراى إلى حد القطيعة بينهما، ودافعت الفتاة عن فشلها بقولها إنها كانت تجيد التمثيل عندما كان قلبها لا يعرف الحب . أما وقد عرفه قلبها فإنها أصبحت تمج تمثيله، وانتحرت سيبيل بشرب السم لما رأته فى حبيبها من هجر وصدود، وبدأ دوريان جراى يحيا حياة العبث والمجون، متأثرا فى ذلك بآراء

اللورد ووتون الشريرة المدمرة وخاصة بعد أن أهداه كتابا كان سببا حاسما فى انحرافه. وتأمل دوريان جراى مستقبل شبابه عندما يذوى ثم يختفى لتحل محله الغضون والتجاعيد فصلى أن يحتفظ بشبابه دائما وأن تنتقل الغضون والتجاعيد إلى الصورة. وفى شبقه إلى الموبقات وصل دوريان جراى إلى الدرك الأسفل، وبمضى الوقت ازداد تهتكه دون أن يفقد شيئا من نضارة شبابه . فقد استجابت السماء إلى صلاته وغدت الصورة بمثابة سجل لروحه تحمل عنه كل أوزاره وآثامه فظهرت عليها بشاعة وقبح لا يطاق، فتخلص منها بوضعها فى مكان قصى فى بيته وأغلق عليها بالقفل والمفتاح. وبلغت الرسام أخبار صديقه دوريان جراى وكيف وصل إلى أحط الدرجات، فأنحى عليه باللائمة ونصحه أن يثوب إلى رشده . وأراد الفتى أن يعطى الرسام فكرة عن تطور روحه فأطلعه على ما طرأ على الصورة من تغير فهالت الرسام بشاعتها واجتاح الفتى غضب مجنون واعتبر الرسام مسئولا عما هو فيه فطعنه أمام الصورة طعنة نجلاء قضت على حياته . واتصل دوريان بصديق قديم كيميائى اسمه ألان كامبل وطلب منه أن يذيب جثة الرسام بالمحاليل، ولكن كامبل رفض بإصرار فاضطر درويان إلى تهديده بكشف النقاب عن سر يخفيه، فخاف كامبل وانصاع له.

وخرج دوريان من البيت يسعى كعادته إلى المجون فقابل جيمس فين أخ سيبيل التى انتحرت من أجله . وتعرف جيمس عليه فتقدم منه ليقتله . ولما تمعن فى شكله اختلط عليه الأمر، فقد رأى أمامه وجها شابا نضيرا يتألق رغم السنين . وبعد نجاة دوريان من الموت دبر لأخ سيبيل حادثا أودى بحياته ليتخلص منه ويزيحه عن طريقه. وتبلغ الرواية ذروتها عندما يبلغ الاشمئزاز بدوريان جراى كل مبلغ جعله يقرر تدمير صورته الشاهدة على مدى تدهوره وانحداره. وصوب الفتى دوريان إلى الصورة طعنة نافذة فتحولت إلى صدره ومات. وسمع الخدم صوت ارتطام جثته بالأرض فهرعوا إليه ليشاهدوا جثة رجل شائه قبيح اعتلت وجهه الغضون لم يكن فى استطاعتهم التعرف عليه لولا الخاتم فى يده. وبجواره استقرت صورة لشاب يفيض بالجمال والنضارة وربيع الحياة.

أوسكار وايلد كحالة مرضية:

كان أوسكار وايلد حالة مرضية ما فى ذلك شك تضافرت ضد سلامته النفسية والجنسية عوامل الوراثة وظروف حياته وبيئته . وكان أبواه يجمعان بين الشذوذ المفرط والقدرات الفذة، الأمر الذى ترك فى أعمـاقه أبلـغ الأثر . والجدير بالـذكر أن فضيحة بجلاجل ثارت حول والده فقد اتهمته إحدى مريضاته باغتصابها

بعد أن قام بتخديرها ، وورث أديبنا عن والدته النمو غير الطبيعى فى الغدد النخامية. ، ويذكر برنارد شو غرابة ضخامة جسم هذه السيدة وخاصة يديها وراحتى كفيها. يقول هافيلوك أليس باحث الجنس المعروف إن شذوذ أوسكار وايلد الجنسى كان كامنا فيه منذ البداية. ولم تظهر أعراض هذا الشذوذ عليه إلا بعد بلوغه الثلاثينات من العمر. فقد بدا طبيعيا فى سلوكه الجنسى حتى آنذاك . وفى أيام طلب العلم بجامعة أكسفورد شاء حظه العاثر أن يصاب بمرض الزهرى نتيجة معاشرته إحدى العاهرات. وكانت الأمراض التناسلية حينذاك تعالج بمادة الزئبق التى سببت تآكل أسنانه وتغير لونها، الأمر الذى جعل منظره يبدو قبيحا ومنفرا حتى أخريات أيامه، ولم يكن فى شكله ما يوحى بالتخنث على الإطلاق. بالعكس كانت الفحولة والرجولة بادية فى كل حركاته، ولم يستح أوسكار وهو طالب فى جامعة أكسفورد من مغازلة الفتيات وملاحقتهن حتى بيوتهن. وفى أحد الأيام ضبطت أم ابنتها (وهى من عائلة محترمة) جالسة على حجره فاستشاطت غضبا وهددته بالويل والثبور إذا لم يقطع صلته بها . ولعل أبرز مغامراته الغرامية فى تلك الفترة هى وقوعه فى غرام فتاة تصغره بأربعة أعوام اسمها فلورانس بالكوم كانت تعيش خارج دبلن مع والدها الضابط المتقاعد .

ورغم منظره المنفر استطاع أوسكار أن يغزو قلوب العذارى بفضل قدرته المذهلة على استرضائهن وتملق مشاعرهن. ومع ذلك كانت فكرته عن أخلاق النساء في منتهى السوء، فقد كان مقتنعا أن الشهوة الجنسية هى شغلهن الشاغل . وفى البداية كانت علاقته بزوجته الليدى كونستانس التى أحبها من كل قلبه طبيعية للغاية . والجدير بالذكر أنه لم يقدم على الزواج إلا بعد أن استشار أحد الأطباء فى لندن فأكد له أنه قد شفى تماما من مرض الزهرى، ولكنه تبين فيما بعد أن هذا غير صحيح بالمرة فقد ظلت بكتيريا مرض الزهرى تنهش فى جسده حتى اضطر فى النهاية إلى الامتناع عن معاشرة زوجته وبالتالى إلى ممارسة الشذوذ الجنسى . وبدأت ميوله إلى الشذوذ الجنسى تظهر عليه بانصرافه إلى استقصاء أشهر الشواذ جنسيا فى التاريخ ومن بينهم الإيرل سومرست الذى كان أكثر رجال البلاط قربا من الملك جيمس الأول، وعندما وجهت إلى هذا ألايرل تهمة قتل السير توماس أوفر برى أخذ يهدد علنا أثناء محاكمته، بأنه إذا لم يتركوه وشأنه سوف يفضح مليك البلاد ويكشف للناس أنه قام بمضاجعته. ويلاحظ أن أدب أوسكار وايلد يفيض بالإحساس

بالخطيئة كما يتضح من كتابيه «نوايا» (١٨٩١) و«جريمة اللورد آرثر سيڤيل» (١٨٨٧) ، ناهيك عن روايته «صورة دوريان جراى» التى يسيطر الشذوذ الجنسى على خلفيتها . ويقول شارلس هيرش - وهو صاحب مكتبة فى لندن تخصصت فى بيع الكتب الجنسية - إن وايلد ترك لديه مخطوط رواية جنسية بذيئة اشترك فى تأليفها بعنوان «تيلينى» وكان الشبان يحضرون إلى مكتبته لاستعارتها منه - هذا وقد درج أديبنا على وضع وردة صناعية خضراء فى عروة چاكتته تشبها بشواذ الجنس فى باريس. وهى عادة ساعد وايلد على انتشارها فى لندن.

علاقة وايلد برويرت روش وألفريد دوجلاس:

يعتقد الباحثون فى سيرة أوسكار وايلد أن روبرت روس هو أول من علمه عام ١٨٨٦ الممارسات الجنسية الشاذة، وذلك بعد مرور عام واحد على صدور القانون الجنائى المعدل الذى يحظر الممارسة الجنسية بين الذكور حتى إذا تمت فى سرية تامة ويرضاء الطرفين . ويبدو أن مخاطر الممارسات الجنسية الشاذة هى التى أغرته بها وجبته فيها ودفعته إلى الإقدام عليها. ونستدل من إدخال .. تعديلات عام ١٨٨٥ على القانون الانجليزى أن

القانون الجنائى القديم لم ينص على تجريم هذه العادة رغم استبشاع الرأى العام البريطانى لها . كان روس الذى ينحدر من أصل كندى ومن عائلة واسعة الثراء في السابعة عشرة من عمره يدرس العلم فى جامعة كامبردج. ويبدو أن هذا الشاب أوحى إليه بتأليف قصة «صورة المستر دابليو إيتش» التى نشرها فى يوليو ١٨٨٩ فى مجلة بلاك وود . فأديبنا يعترف بأن لروس نصف الفضل في تأليف هذه القصة. وعندما هوى وايلد من عل بعد أن أدانته المحكمة لم يخذله صديقه روس أو يتخلى عنه بل وقف إلى جواره حتى المنتهى وبناء على رغبة وايلد تولى روس إدارة شئون مؤلفاته وتصريف ممتلكاته. يقول روس إنه فى الفترة التى عاش فيها مع وايلد تحت سقف واحد عام ١٨٨٧ قام بتسجيل كل النكات الذكية والملح الطلية التى أطلقها مؤلفنا فى حضرته، وقام روس بتسليم هذا السجل إليه فضمنه مسرحيته المعروفة «أهمية أن يكون المرء جادا» التى زعم روس أنها لم تستغرق أكثر من ثلاثة أسابيع فى تأليفها وأنه انتهى منها فى صيف عام ١٨٩٤.

لقد كان فى مقدور أوسكار وايلد أن يتحاشى الفضيحة ويتجنب السقوط الشائن لو أنه توخى الحرص والحذر فى علاقته

الجنسية الشاذة مع نفر من الشباب من حثالة المجتمع عرفه بهم صديق منحرف سيىء السمعة وابن تاجر كاكاو غني اسمه ألفريد تيلور، الذى لعب دورا مهما فى إدانة المحكمة له والحكم عليه بالحبس كما سوف نرى. ويبدو أن علاقة مؤلفنا الشاذة بهؤلاء الشباب لم تقم على المضاجعة .

كانت علاقة وايلد باللورد ألفريد دوجلاس - أحد وجهاء المجتمع الانجليزى - السبب المباشر فى تقديمه إلى المحاكمة والحكم بإدانته. وعبثا حاول والد ألفريد دوجلاس وهو الماركيز كوينزبرى أن يبعد ابنه عن طريق مؤلفنا. ولم يجد الماركيز الغاضب حلا سوى توجيه الإهانة المقصودة لوايلد فكتب بطاقة ضمنها إهانة بالغة ومتعمدة له تتضمن إشارة واضحة إلى مسلكه الجنسي الشاذ. وفى يوم من الأيام توجه وايلد إلى نادى «اليمارك» فى لندن ليجد أن الماركيز قد ترك له رسالة مفتوحة مع البواب كتب فيها عبارة واحدة: «إلى أوسكار وايلد الذى يتصرف كما يتصرف اللواطيون». كان ذلك يوم ١٨ فبراير ١٨٩٥ على وجه التحديد. وجن جنون وايلد وفى شدة غضبه وانفعاله التجأ إلى ساحة القضاء دون أن يدرى أنه بذلك يسطر نهايته.

كان وايلد في الثامنة والثلاثين عندما تعرف باللورد العابث ألفريد دوجلاس الذى كان آنذاك طالبا فى الثانية والعشرين من عمره في جامعة أكسفورد. وكان ألفريد دوجلاس آية فى الحسن والجمال ، فضلا عن أنه شاعر مطبوع وحساس، دامت علاقة وايلد به نحو خمسة أعوام . وكانت العلاقة بينهما خلال السنوات الثلاث الأولى بمثابة شهر عسل فمؤلفنا لا يكف عن دعوة هذا الشاب إلى المطاعم ويغدق عليه الهدايا ويرسل إليه باقات الزهور والخطابات والبرقيات ويظهر معه في الأماكن العامة متأبطا ذراعه ويبيت معه فى الفنادق أحيانا، بل إنه ، ألف من أجله قصيدة شعر من النوع المعروف بالسوناتة سوف تتكرر الإشارة إليها أثناء تقديمه إلى المحاكمة. كان ألفريد دوجلاس مسحورا بقدرة وايلد المذهلة على الحديث الممتع الجذاب وعلى إطلاق النكات الذكية، وكانت صحبة هذا الأديب المشهور ترضى غروره، كما كان وايلد فى المقابل يجد نوعا من الفخر فى صحبة هذا اللورد الأرستقراطى المليح. ورغم أن وايلد أثناء محنته حمل صديقه مسئولية ما حل به من مصائب ونكبات فإن فترة علاقته بهذا الشاب كانت من أخصب فترات حياته التى أنتج فيها للعالم أروع

مسرحياته. وبعد وفاته رثاه ألفريد دوجلاس بقصيدة بعنوان «الشاعر الراحل» تعتبر من أبدع القصائد فى اللغة الإنجليزية. وقد اعترف ألفريد دوجلاس فى سيرته الذاتية التى كتبها عام ١٩٢٩ بأن علاقته بوايلد رغم كل ما أحاط بها من مداعبات واستلطاف لم تصل إلى حد العلاقة اللواطية. وهو يقسم أمام الله بصدق ما يقول. ويؤكد وايلد من جانبه هذا المعنى بقوله إنها كانت علاقة روحية ومثالية تماما. ولم يكن فى جسد ألفريد دوجلاس الرياضى ما يوحى بالتخنث، ولكن بهاءه كان موضع إثارة وايلد من الناحية الجنسية، ويعتقد الكثيرون أن العالم الخارجى - ومن بينهم والد ألفريد دوجلاس - أساء فهم هذه العلاقة وظن أنها علاقة لواطية وساعد على سوء الفهم مجموعة الخطابات التى عبر فيها وايلد عن ولهه الشديد بالشاب الأرستقراطى الجميل. وأظهر اللورد ألفريد دوجلاس نوعاً من العطف على عاطل سئ الخلق اسمه ألفريد وود فأعطاه بذلة قديمة كان لسوء حظه قد نسى فى جيوبها لفافة الخطابات الملتهبة التى أرسلها وايلد إليه، فاستغلها وود بالاشتراك مع اثنين من الأوغاد هما ألين وكليبورن فى ابتزاز راسلها . فضلا عن أن هذين الوغدين نجحا فى سرقة مجموعة أخرى من الخطابات التى سطرها وايلد استغلها وود فى الحصول على خمسة وثلاثين جنيها

استرلينيا منه . وأثناء التحقيق مع مؤلفنا تقدم الشرير وود للإدلاء بشهادة تهدف إلى الإضرار به، وذات يوم زار أحد هذين الوغدين - وهو ألين - بيت وايلد كي يساومه على أحد هذه الخطابات زاعما أن شخصا ما عرض عليه أن يدفع له ستين جنيها مقابل تسليم الخطابات إليه، فرد عليه وايلد بقوله إنه رغم أنه يعتبر الخطاب قطعة أدبية رائعة ترقى إلى مرتبة النثر الشعرى فإنه ينصح بأن يبيعه لهذا الشخص بالسعر الذى عرضه . وأضاف وايلد أنه هو نفسه لم يسبق له أن تقاضى مبلغا باهظا إلى هذا الحد من تأليف عمل أدبى بمثل هذا القصر. ولما أيقن ألين أنه قد فشل فى ابتزازه اكتفى بنصف الجنيه الذى أعطاه وايلد إليه بقشيشاً ، ثم انصرف بعد أن سلمه نسخة غير أصلية من الخطاب. ولم تمض خمس دقائق حتى دق زميله الوغد كليبورن جرس الباب ليقول لمؤلفنا أن ألين تأثر بعطفه وحسن معاملته، فقرر أن يعيد إلى وايلد النسخة الأصلية من الخطاب ، وهكذا بات من الواضح أن هناك عددا من النسخ غير الأصلية من الخطاب . ويشاء حظ مؤلفنا العاثر أن تقع فى يد الماركيز كونيزبرى والد اللورد ألفريد دوجلاس صورة من هذا الخطاب الذى وردت فيه العبارة الآتية: «إنها لأعجوبة أن تخلق شفتاك الورديتان من أجل الموسيقى والأنغام مثلما هما مخلوقتان من أجل القبلات الملتاثة» .

كان ألفريد دوجلاس على علاقة سيئة للغاية بوالده الذى حاول عبثا ـ كما أسلفنا ـ أن يحمله على قطع كل صلة تربطه بمؤلفنا . ولكن تهديد الأب فشل فى إبعاد الإبن عن طريق صديقه . وفى خلال المحاكمة الأولى قرأ ممثل الإدعاء فى المحكمة خطابا سطره الماركيز كونيزبرى يهدد فيه ولده بإنكار أبوته له وحرمانه من المال إذا لم يبادر بقطع صلته بأوسكار وايلد . غير أن الابن استخف بكلام والده وأمعن فى تحديه والتحرش به. فقد أرسل إليه برقية شديدة الاستفزاز وصف فيها والده بقوله: «يالك من رجل صغير مضحك». وجن جنون الأب فتوعد أن يفضحه وصديقه علنا أمام الملأ، وتعمد الوالد ملاحقة ابنه فى كل منتدى يغشاه مع صديقه بقصد إثارة فضيحة عامة لهما. كما أنه حذر مديرى المطاعم والمنتديات أن يرفضوا استقبالهما حتى لا يضطر إلى ضربهما إذا ما ضبطهما معا فى أى مكان. وحتى يغيظ والده كتب الإبن إليه يبلغه مسبقا بمواعيد ومكان مقابلاته مع وايلد، متوعدا أباه بأنه سوف يرى ما يحدث له لو أنه حاول تنفيذ تهديداته السوقية . وانزعج وايلد انزعاجا شديدا بسبب تهديدات والد ألفريد دوجلاس، التى كدرته وعكرت صفوه وهدوء باله ووقفت عائقا فى سبيل إنتاجه الأدبى ، وانساق وايلد المغتاظ وراء

نصيحة روبرت روس وتحريض اللورد ألفريد دوجلاس برفع دعوى قضائية ضد الماركيز كوينزبرى، واستشار مؤلفنا بعضا من كبار المحامين الجنائيين آنذاك ووكل للدفاع عنه محاميا مرموقا يدعى المستر تشارلس أوكتافيوس همفريز ثم محاميا مرموقا آخر هو السير إدوارد كلارك، وحتى يتحاشى المحامى همفريز الدخول فى المهاترات والفضائح كلف أحد أقارب ألفريد دوجلاس بالوساطة حتى يعتذر والده الماركيز عن الإهانة التى وجهها إلى وايلد. ولكن الماركيز رفض الاعتذار عن أية عبارة وردت فى رسائله العائلية الخاصة إلى ولده، وهنا ارتكب وايلد خطأ تكتيكيا وإجرائيا كان السبب فيما حل به من مصائب، فلو أنه قام بمقاضاة الماركيز فى حينه أى فى مايو ١٨٩٤ لكان بإمكانه الحصول على حكم بحبسه لأنه حتى ذلك الوقت لم يتوافر أى دليل على صحة اتهام الماركيز له باللواطية. ولكن إرجاء وايلد وتلكأه فى رفع الدعوى لمدة تناهز عاما كاملا أعطى خصمه وقتا كافيا لجمع الأدلة ضده.

وفى شهر يونيه عام ١٨٩٤ حدث لقاء درامى مثير بين الماركيز وأوسكار وايلد فى بيت الأخير حيث طب عليه الماركيز كالقضاء المستعجل ولما خرج وايلد من حجرته لاستقبال ضيفه وجد أن الماركيز قد اقتحم منزله بدون إحم أو دستور . وخاطب

الضيف صاحب البيت بلهجة كلها غلظة وعداء قائلا: «إجلس» وكأنه يقول له «إتزرع» فاستشاط وايلد غضبا ورد عليه بقوله : «إنه لا يسمح لأى مخلوق أن يحدثه بهذه اللهجة لا فى بيته أو فى أى مكان آخر» . وأردف قائلا إنه كان يظن أن ضيفه جاء لكى يعتذر له عن ترويجه شائعة بأن زوجة وايلد سوف تطلب الطلاق منه بسبب ممارسته للشذوذ الجنسي، وعما جاء فى خطاباته إلى ابنه من اتهامات. وأجاب الماركيز بأن وايلد لا شأن له بفحوى هذه الخطابات لأنها مسألة شخصية وعائلية بحتة، وهنا لم يتمالك وايلد نفسه. وتعمد الماركيز إهانته أكثر فأكثر فأضاف أن فنادق لندن لا تسمح له بدخولها أو الإقامة فيها بسبب مسلكه المعيب. ثم أشار إلى الخطاب الذى استخدمه البعض فى ابتزازه، فرد وايلد أنه يعتبر هذا الخطاب عملا أدبيا رائعا وأنه يزمع نشره. ثم بادر وايلد بسؤال الماركيز إذا كان بالفعل جادا فى اتهامه واتهام ابنه بممارسة اللواط، وهنا تريث الماركيز هنيهة ليقول لمحدثه : «إننى لا أقول إنك واحد من إياهم ولكن منظرك يوحى بذلك كما أنك تتصرف كما لو كنت كذلك، وهو أمر لا يقل سوءا عن كونك بالفعل واحدا منهم. ولو أنى ضبطتك مع ابنى فى أى فندق فلسوف أقوم بضربك». ولم يظهر على وايلد أى من علامات الخوف وقال إن مثل

هذه الإهانة لا يغسلها إلا ضرب الرصاص. وطلب وايلد من الماركيز مغادرة البيت فورا ولكن الماركيز رفض فهدده صاحب البيت باستدعاء البوليس لطرده، فاضطر الرجل للانصراف بينما قال وايلد لخادمه: «هذا الرجل هو الماركيز كوينزبرى أسوأ بهيم شائن فى كل لندن، فإذا حضر فلا تسمح بدخوله هذا البيت مرة أخرى»..

وكعادته استمر ألفريد دوجلاس فى الاستهزاء بوالده قائلا له إن وايلد لو رفع قضية ضده لكسبها وتمكن من استصدار حكم بحبسه لمدة سبعة أعوام بتهمة القذف والتشهير. وأضاف الابن أنه بالرغم من كراهيته المشبوبة له وأنه يتمنى أن يراه فى غياهب السجون فإنه حريص على أن يتجنب هذه الفضيحة من أجل الحفاظ على سمعة العائلة . ثم هدد الابن أباه قائلا إنه لو حاول التعرض له ولصديقه فلن يتردد فى إفراغ مسدسه فى صدره دفاعا عن نفسه. وأضاف أن لوايلد نفس الحق المشروع فى قتله دفاعا عن النفس.

أوسكار وايلد وأندريه جيد:

وحزم أوسكار وايلد أمتعته وسافر إلى الجزائر بصحبة رفيقه

اللورد ألفريد دوجلاس حيث التقى بهما أندريه جيد، قابل جيد وايلد لأول مرة فى ٢٩ نوفمبر ١٨٩١ ثم التقى به مرة أخرى فى باريس فى أوائل ديسمبر من نفس هذا العام. وفى عام ١٨٩١ لم يكن جيد قد قرأ أيا من كتب وايلد، غير أنه قرأ له فى فبراير ١٨٩٣ مسرحية سالومى ثم كتابى «نوايا» و«من الأعماق» فى مارس ١٩٠٥. وشاءت الأقدار أن يتقابل الرجلان للمرة الثالثة فى فندق فى بلدة بليده بالجزائر فى يناير ١٨٩٥.كان جيد فى بهو الفندق يتأهب للرحيل وحانت منه التفاتة إلى لوح الاردواز الذى يحمل أسماء نزلاء الفندق فهاله أن يقرأ اسمى وافدين جديدين هما وايلد وصديقه اللورد دوجلاس. وفى أحاديثه الخاصة ذهب جيد إلى وصف الأديب الانجليزى بقوله: «وايلد هذا الرجل المخيف وأخطر ما أنتجته المدنية الحديثة»، وهو رأى يتعارض تماما مع تقريظه له فى قابل الأيام. كان رد فعل جيد التلقائى عندما قرأ اسم وايلد أن يبادر بمغادرة الفندق حتى يتحاشى الالتقاء به. ولا غرو فقد وصلت سمعة وايلد إلى الحضيض، وبالفعل غادر جيد الفندق فى طريقه إلى محطة السكة الحديد. ولكنه أحس بالخجل فى جنبه فقرر العودة إلى الفندق حيث تم لقاء بين الأديبين ترك أعمق الأثر فى نفس أندريه جيد وأدبه، وهو أدب

أثر بدوره تأثيرا بالغا على الآداب العالمية. ورغم أن لقاءات جيد الأولى بأوسكار وايلد تركت في نفس الأديب الفرنسي أعمق الأثر فإن الدارس يعجز عن سبر غوره أو تتبعه بسبب قيام جيد بانتزاع تلك الصفحات من يومياته الخاصة بشهرى نوفمبر ـ ديسمبر ١٨٩١ وهما الشهران اللذان التقى فيهما الكاتب الفرنسي بالكاتب الانجليزى. والذى لاشك فيه أن وايلد منذ البداية ترك فيه أثرا مزعجا فخطابات جيد فى تلك الفترة تشير إلى سعى وايلد إلى تدمير إيمانه بالدين وبأخلاق الطبقة البورجوازية وإلى تحريضه على المروق وتحطيم المواضعات والتقاليد البورجوازية . وأظهر جيد اهتماما بالغا بمحاكمة وايلد وبما تناقلته الصحف عنها. وفى ١٧ مارس ١٨٩٥ كتب جيد إلى أمه طالبا منها أن ترسل إليه كل قصاصات الصحف عن هذه المحاكمة وتدل يومياته غير المنشورة أنه قرأ رواية «صورة دوريان جراى» فى يونيه ١٨٩٥. ومن الواضح أنه تأثر بقراءة «من الأعماق» تأثرا عميقا . يقول جين ديلاى كاتب سيرة حياته المعتمدة أنه تأثر أيضا تأثرا عميقا بمقابلاته الباكرة مع وايلد فقد وجد نفسه لأول مرة فى حياته يجابه رجلا قادرا على تغيير قيمه تغييرا شاملا . ويوافق الكاتب ريتشارد إلمان على هذا الرأى ويضيف أن محاولة وايلد «تثبيت

الشر» فى نفس جيد تشكل جانبا كبيرا من الموضوع الذى عالجه الأديب فى عمليه الادبيين «اللاأخلاقى» و«المزيفون» وأن جيد استقى شخصية ينمالك فى «اللاأخلاقى» من حياة أوسكار وايلد . ويذهب إلمان إلى أن تأثر جيد بوايلد يشبه تأثر الشاب دوريان جراى بشخصية اللورد هنرى ووتون فى الرواية المعروفة «صورة دوريان جراى» . ويرى إلمان أن الأثر الذى تركه وايلد فى فكر جيد ومبادئه الجمالية أكبر بكثير مما اعترف به فى حياته اللاحقة.

وهكذا وضع أوسكار وايلد أقدام أندريه جيد على أول الطريق إلى الشذوذ الجنسى، واستطاع وايلد أن ينفذ إلى أعماق جيد ويستكنه رغباته بل ويغير مجرى حياته . وفى أحد الأيام اصطحبه إلى أحد المقاهى وبينما هما جالسان ظهر فجأة على باب المقهى شاب يعمل عازفا على الناى كان آية فى الحسن والبهاء، وما أن بدأ هذا الموسيقى فى العزف حتى نسى جيد نفسه والدنيا وما فيها . والتفت وايلد إلى جيد ليسأله سؤالا مروعا احتاج من جيد إلى صراحة فائقة للإجابة عنه: «هل ترغب هذا الشاب؟» وبصوت مختنق أجاب جيد بنعم، عندئذ ترك وايلد صاحبه ليتفاوض مع أحد المرشدين ثم عاد إليه ليطلق ضحكة وقحة مدوية تنم على الفوز والانتصار، كما تنم عن أنه طفل أو شيطان يتسلى بما يفعل.

وبذلك تمكن وايلد من ترتيب لقاء خاص بين جيد والشاب ، وهو لقاء لعب دورا غاية فى الأهمية فى مساعدة جيد فى معرفة نفسه واكتشاف ميوله الجنسية الشاذة . ويبدو أن الأقدار أرادت أن تعاقب وايلد على فعلته فما كاد يترك الجزائر ويعود إلى لندن حتى بدأ القضاء الانجليزى فى غضون بضعة أسابيع فى نظر القضية التى رفعها ضد الماركيز كوينزبرى والتى كانت فى النهـاية سـببا فى نـزول النكبـات عليه كما سوف نرى فى الصفحات التالية.

عاد وايلد إلى لندن ليحضر افتتاح مسرحيته «أهمية أن يكون المرء جادا» التى مثلت على خشبة مسرح سانت جيمس يوم ١٤ فبراير ١٨٩٥. ودبر الماركيز إثارة فضيحة يوم الافتتاح فاصطحب إلى المسرح اثنين من البلطجية ليعتديا على وايلد الذى نما إلى علمه ماكان غريمه ينوى أن يفعله به، فقام بإبلاغ الشرطة التى حضرت لمنع الماركيز وصحبه من دخول المسرح، ولم يجد الماركيز أمامه وسيلة لإهانة المؤلف سوى إهدائه باقة من الخضراوات بدلا من باقة الورود التى تقدم لتهنئة المسرحيين فى أيام الافتتاح. وبعد مرور أربعة أيام على هذا الحدث توجه الماركيز يوم ١٨ فبراير إلى نادى «البمارل» الذى كان وايلد وزوجته عضوين فيه وترك مع بواب النادى ورقة كتب عليها العبارة

التالية: «إلى أوسكار وايلد الذى يتصرف كواحد من أهل سدومة «اللواطيين». ولشدة انفعاله أخطأ فى هجاء كلمة «سدومة». وبعد أسبوعين زار وايلد النادى وتسلم من البواب هذه الورقة فاستدعى صديقيه الحميمين روبرت روس وألفريد دوجلاس كى يستشيرهما فيما عساه أن يفعل، ونصحه الصديقان بضرورة أخذ رأى محام فى هذا النزاع الذى فشل فى فضه عن طريق الوساطة والتصالح منذ ما يقرب من عشرة شهور. وهنا بدأ الفأر يلعب فى عب همفريز المحامى فسأل وايلد أن يقول له بصراحة إذا كان هناك أى أساس لاتهام الماركيز له. فابتسم وايلد وكذب على محاميه وضلله بقوله إنه برىء براءة الذئب من دم ابن يعقوب . وبناء عليه أكد له المحامى أنه على يقين من أنه سوف يكسب القضية مادام أن الحق بجانبه ووافق المحامى على رفع الدعوى على الماركيز واتخاذ الاجراءات القانونية ضده.

ونشأت مشكلة دفع أتعاب القضية والمحاماة الباهظة التى لم يكن باستطاعة وايلد المفلس الوفاء بها، فطمأنه اللورد ألفريد دوجلاس قائلا : إن عائلته على أتم استعداد لدفع النفقات لأنها تريد التخلص من أبيه المزعج الذى أصبح كابوسا يجثم على صدور أفرادها. ولم يكف كوينزبرى مثلا عن ملاحقة طليقته

ومضايقتها . ولهذا ولأسباب أخرى فكرت العائلة فى وضعه بإحدى المستشفيات العقلية.

والغريب أن المصادفة وسوء الحظ لعبا دورا مهما فى تفاقم النزاع بين وايلد والماركيز كوينزبرى. فقد كان وايلد قبيل رفعه القضية يعيش مع اللورد دوجلاس وأحد أصدقاء اللورد دوجلاس فى أحد فنادق لندن وكان وايلد آنذاك يتأهب للسفر إلى فرنسا لقضاء إجازة طويلة هناك. ولكن الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن. فقد غادر اللورد دوجلاس وصديقه الفندق فجأة تاركا لوايلد أمر دفع الفاتورة التى عجز مؤلفنا عن سدادها، فقام صاحب الفندق بحجز أمتعته حتى يسدد ما عليه، وكان لهذا التعطيل أثر وخيم. فلو أنه تمكن من السفر إلى فرنسا كما كان مزمعا لما ذهب إلى النادى وتسلم بطاقة الماركيز المهينة. والجدير بالذكر أن ألفريد دوجلاس نصحه باستشارة محام آخر مرموق هو السير جورج لويس الذى كان يعرف الكثير عن حياة مؤلفنا والذى اختاره الماركيز فيما بعد ليتولى الدفاع عنه. وأغلب الظن أن جورج لويس كان سينصح وايلد بتمزيق البطاقة التى تسلمها من بواب النادى وبتجاهل الموضوع برمته حتى يفوت على غريمه فرصة التقليب فى ماضيه ولفت النظر إلى سلوكه غير السوى .

وبناء على دعوى القذف والتشهير التى أقامها المحامى همفريز ضد الماركيز كوينزبرى تم القبض عليه، ثم مالبثت الشرطة أن أفرجت عنه بكفالة . وحدث تطور فى سير القضية فقد رفض السير جورج لويس المضى قدما فى الدفاع عن الماركيز ضد أوسكار وايلد وحل محله محام آخر اسمه تشارلس راسل الذى أدرك منذ البداية دقة مركز موكله من الناحية القانونية . صحيح أن الألسن كانت تلوك سيرة مؤلفنا ولكن هذا وحده لا يرقى إلى مستوى الدليل الكافى لإدانته . ولم يكن فى حوزة الماركيز ومحاميه غير صور الخطابات العاطفية الملتهبة التى أرسلها وايلد إلى اللورد ألفريد دوجلاس فاضطر المحامى راسل إلى التفتيش فى كتابات وايلد المنشورة ليقيم الدليل على دعوتها إلى الفسق والإنحلال، وحتى يتسنى له إثبات ذلك طلب من محام أيرلندى مشهور وزميل دراسة سابق لوايلد أن يساعده فى ذلك، غير أن كارسون في بادىء الأمر آثر الامتناع عن ذلك وشعر بالحرج بسبب زمالته القديمة لوايلد أيام الطلب فى الجامعة. ولكن إحجام كارسون لم يفت في عضد تشارلس راسل الذى استمر فى الإلحاح عليه فقبل بعد أن استشار كبير القضاة اللورد هالزبورى

فى هذا الشأن . كان كارسون يمقت وايلد ويتحاشاه فى أدب فطبيعته الأسبرطية المتزمتة لا ترتاح إلى طبيعة وايلد الأثينية المتحررة . ولعل كارسون كان فى قرارة قلبه يغار من نبوغ زميله القديم فى كلية ترينيتى وتفوقه عليه.

ويبدو أن كارسون اتجه فى بادىء الأمر إلى إقناع الماركيز كوينزبرى بالاعتراف بخطئه والاعتذار لوايلد . ولكنه غير رأيه فى آخر لحظة فقد تبين له أن تشارلس راسل تمكن أو كاد من الحصول على شهادة شاب يدعى تشارلس باركر مفادها أن مؤلفنا مارس معه بعض البذاءات الجنسية. وكان هذا الشاب آنذاك مجندا فى سلاح المدفعية البريطانية، وقد وجد المحامى راسل صعوبة بالغة فى إقناعه بأن يتقدم بالشهادة بذلك بسبب خوفه من تقديمه هو أيضا إلى المحاكمة. ومن المرجح أن أحد العاملين فى فندق سافوى هو الذى أخبر راسل بعلاقة هذا الشاب البذيئة بأوسكار وايلد.

٢ ـ قضية وايلد ضد الماركيز كوينزبرى:

بطبيعة الحال أثارت هذه القضية اهتمام الرأى العام البريطانى فالطرفان المتنازعان من أبرز رجالات المجتمع. وعند

نظر القضية يوم ٩ مارس ١٨٩٥ اكتظت قاعة المحكمة بالحضور فلم يعد فيها موطئ لقدم. وجاء أوسكار وايلد إلى المحكمة فى عربة مطهمة تجرها الجياد بصحبة ابنى الماركيز اللورد ألفريد دوجلاس وأخيه اللورد دوجلاس أف هويك فوجدوا جميعا صعوبة بالغة فى الحصول على مقاعد شاغرة بالقاعة.

وبمجرد المناداة على أسمه توجه الماركيز إلى قفص الاتهام ولكن القاضى أمر بخروجه من القفص وجلوسه على كرسى خارجه، ثم سمح له فيما بعد بالجلوس خلف محاميه، وتلفت القاضى من حوله فوقعت أنظاره على اللورد ألفريد دوجلاس فأمره بالخروج من القاعة، وبدأت المحكمة باستجواب وايلد عن ظروف معرفته بعائلة الماركيز وباللورد ألفريد دوجلاس. وأراد محامى وايلد المستر همفريز أن يقرأ الخطابات التي أرسلها الماركيز الغاضب إلى ابنه العاق. غير أن القاضى لم يحبذ ذلك، واقترح همفريز أن يستبعد عند قراءة هذه الخطابات تلك الإشارات التى قد تسىء إلى نفر من علية القوم فى المجتمع الانجليزى حتى لا يزج بهم فى مثل هذه الفضائح. ولكن ـ محامى الخصم ـ كارسون اشترط ضرورة قراءة نصوص هذه الخطابات كاملة فآثر محامى وايلد إغفال أمر هذه الخطابات عملا بنصيحة القاضى.

وانتقلت المحكمة إلى مناقشة موضوع البطاقة المهينة التى تركها الماركيز لوايلد فى النادى، وهو أساس القضية برمتها.

وبعد أن قام وايلد بالتوقيع على أقواله بدأت المحكمة فى استجواب المتهم الماركيز كوينزبرى الذى اعترف بتعمده كتابة البطاقة بهدف الضغط على وايلد حتى يبتعد عن طريق ابنه . وأصر الماركيز على استمساكه بكل كلمة سطرها وعلى عدم التراجع عما كتب، وعقب القاضى على ذلك بقوله إنه ينبغى فى هذه الحالة تقديمه إلى المحاكمة بتهمة القذف والتشهير وإنه يمكن إعادة الإفراج عنه بكفالة كالتى سبق له أن دفعها.

وقبل انقضاء ثلاثة أسابيع على إلقاء القبض على الماركيز كوينزبرى بدأت محكمة الأولد بايلى فى عقد جلساتها . وقرر همفريز محامى وايلد أن يستعين بزميل آخر فى مثل مهارة كارسون محامى الخصم هو السير إدوارد كلارك ، ولم يقبل كلارك الدفاع عن وايلد إلا بعد أن أقسم بشرفه أن التهمة التى يوجهها كوينزبرى إليه لا أساس لها من الصحة حتى لا يظلم هذا الخصم أو يتجنى عليه، واستعان كلارك باثنين من المعاونين الشبان هما ويلى ماثيوز وترافيرز همفريز.

وجند الماركيز كوينزبرى بعض المخبرين السريين لجمع المعلومات والأدلة الخاصة بحياة وايلد الشخصية غير أنه لم يصادف نجاحا فى هذا السبيل . والغريب أن الذى طعن وايلد من الخلف كاتب وممثل زميل له اسمه تشارلس بروكفيلد الذى اشترك فى تمثيل مسرحيته المعروفة «زوج مثالى» على خشبة مسرح الهاى ماركت .كان بروكفيلد يحقد على وايلد ويمقته مقتا مشبوبا بسبب غيرته الشديدة من نجاحه، المنقطع النظير . والجدير بالذكر أن بروكفيلد سطر عملا أدبيا بعنوان «الشاعر والعرائس» عارض فيه مسرحية وايلد «مروحة الليدى وندومير» فلم يغضب وايلد لذلك بل عامل منافسه بتسامح ورحابة صدر أوغر صدره ضده وزاد من حقده عليه . ولهذا تطوع هذا الرجل دون أن يتقاضى أجرا أو مقابلا بتزويد الماركيز كوينزبرى بالمعلومات التى تدمغ خصمه وتسيىء إليه. وأخذ هذا الممثل والكاتب الفاشل يتجول فى أرجاء لندن يثير الناس ضده ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ونجح فى إغراء بواب مسرح الهاى ماركت أن يمد خصوم وايلد بأسماء وعناوين الأشرار الذين استغلوا الخطابات التى أرسلها إلى اللورد ألفريد دوجلاس وأرسلوا نسخة من هذه الخطابات إلى بيربوم ترى مدير المسرح. فضلا عن أنه قام

بتعريف المفتش السرى ليتل وود الذى استعان به الماركيز كوينزبرى بامرأة مومس توافرت لديها معلومات عن وايلد ورفاقه من الذكور. واشتكت هذه المومس من أن مهمتها لم تعد مجزية أو مريحة لأن وايلد وأمثاله زاحموها فى عملها. ودلت هذه المومس المخبر السرى على عنوان رجل فى منطقة تشيلسى لديه معلومات عن وايلد . وبدون إحم أو دستور اقتحم المخبر السرى البيت الذى دلته المومس على عنوانه فوجد فى مدخله صندوق بريد يحتوى على أسماء بعض الرجال من الشواذ جنسيا الذين يأتون من قاع المجتمع الإنجليزى، كما وجد بعض الأوراق الدالة على وجود علاقة بين وايلد وبينهم ، وبطبيعة الحال قام المخبر السرى بنقل المعلومات التى استطاع جمعها إلى محامى الماركيز كوينزبرى.

كان أوسكار وايلد قبل افتتاح الجلسات يقضى أجازة قصيرة مع اللورد دوجلاس فى جنوب فرنسا لا يدرى شيئا عما يخبئه القدر له ولا يدرك أن أعداءه وشانئيه يتربصون به الدوائر، وظل مؤلفنا لا يعلم شيئا عن الدور النشيط الذى لعبه بروكفيلد فى تدميره إلا بعد خروجه من السجن وذلك عن طريق صديقه روبرت روس . والغريب أن وايلد رغم ذلك لم يشعر بأدنى رغبة فى الانتقام منه.

كانت التقاليد الإنجليزية تحتم على هيئة كبار المحلفين الوصول إلى ما تراه من قرارات فى سرية تامة بعيدا عن أضواء الصحافة ووسائل الإعلام . ولكن لسوء حظ وايلد أن أحد الصحفيين الفرنسيين إندس على أنه يحمل الجنسية البريطانية فى هيئة المحلفين ونقل كل أخبار الجلسات إلى جميع أنحاء القارة الأوربية، الأمر الذى عبأ الرأى العام الأوربى ضد مؤلفنا.

وليس من شك أن استهتار اللورد ألفريد دوجلاس ونزقه ساعدا على تفاقم المشكلات التى تجابه وايلد فقد أصر هذا الفتى الطائش أن يصحبه وايلد إلى كازينوهات مونت كارلو كى يلعب فيها القمار طوال الليل والنهار فى وقت كانا من المفروض أن يذهبا معا إلى لندن لاستشارة المحامين. وعندما عاد وايلد من فرنسا إلى لندن قبل بدء المحاكمة الأولى بأسبوع بات من الواضح أن المصائب أخذت تتجمع فوق رأسه . ونصحه أصفياؤه والمخلصون له بالسفر خارج البلاد حتى تمر الأزمة بسلام، غير أن اللورد ألفريد دوجلاس استمر فى طيشه ونزقه وأصر على أنه من الجبن أن يهرب وايلد من المواجهة ومن المؤسف أن مؤلفنا استجاب لهذه النصيحة الطائشة وأن نوعا غريبا من العناد الشاذ والمدمر تملكه . وحاول محامو وايلد أن ينبهوه إلى أن الماركيز

كوينزبرى استطاع عن طريق مخبريه السريين التوصل إلى معلومات جـديدة . غير أن مؤلفنا ركب رأسه وأصر على تأكيد براءته وإنكار التهمة الموجهة إليه.

وقبيل بدء المحاكمة بيومين اصطحب وايلد زوجته واللورد ألفريد دوجلاس لحضور عرض مسرحية «أهمية أن يكون المرء جادا» فى مسرح سانت جيمس الذى اكتظ بالنظارة، وتضايق مدير المسرح من ظهوره ولامه على حضوره إلى المسرح فى تلك الفترة الحرجة وقال له إن الناس سوف يعتبرون هذا الحضور نوعا من عدم اللياقة وقلة الذوق. فأجابه وايلد بطريقته الفكهة المازحة إنه يعتبر حضورهم لمشاهدة مسرحيته نوعا من قلة الذوق. ثم أضاف أنه أيضا يعتبر أنه من قلة الذوق أن يذهبوا لمشاهدة أية مسرحية لأى مؤلف مسرحى آخر. وعبثا حاول مدير المسرح أن ينصحه بسحب القضية ضد الماركيز كوينزبرى والسفر خارج البلاد فقد رفض وايلد هذا الاقتراح رفضا قاطعا وصرف الموضوع عن طريق النكتة والدعابة، وأسدى إليه صديقه الكاتب فرانك هاريس نصيحة مماثلة، وطلب وايلد منه أن يشهد فى المحكمة بأن رواية «صورة دوريان جراى» رواية أخلاقية ولكن هاريس اقتناعا منه بعدم جدوى مثل هذه الشهادة رفض ذلك،

واجتمع فرانك هاريس وبرنارد شو وأوسكار وايلد وألفريد دوجلاس فى أحد المقاهى لمناقشة الوضع. وعبثا حاول هاريس وشو أن ينبها مؤلفنا أن الأمر أخطر وأجل من كونه مناظرة أدبية حول أدبه. فقد نجح خصومه فى جمع أدلة دامغة ضده ومن ثم نصحوه بسحب القضية ومغادرة البلاد وكتابة خطاب إلى جريدة التايمز يقول فيه إنه فنان لا شأن له بالمنازعات والعراك، ولكن ألفريد دوجلاس الذى أراد الانتقام من والده وجره إلى المحاكم حرضه على عدم سحب القضية والمضى قدما فيها. وبسبب رغبته المحمومة فى فضح والده أمام الملأ لم يتنبه هذا الشاب إلى حقيقة قانونية مفادها أن رأيه السيىء فى والده - حتى ولو كان صحيحا - لا يقدم أو يأخر فى سير القضية . فالقضية تدور حول براءة وايلد أو ذنبه. فإذا ثبتت براءته فإن واجب المحكمة يحتم عليها إنزال العقاب بالماركيز المتجنى وإذا ثبتت أنه مذنب فلا جناح، أو لوم على الماركيز فى توجيه تهمة اللواط إليه.

ونحن نورد فيما يلى تفاصيل المحاكمات الثلاث التى انتهت بإدانة أوسكار وايلد والحكم عليه بالسجن لمدة عامين.

المحاكمة الأولى

أحيلت أوراق قضية اللورد كوينزبرى الذى اتهمه أوسكار وايلد بالقذف والتشهير إلى محكمة الأولد بايلى يوم ٣ أبريل ١٨٩٥ ليتولى النظر فيها واحد من خيرة القضاة اسمه هن كولينز، وهو أيرلندى تلقى تعليمه فى جامعة دبلن شأنه فى ذلك شأن وايلد وإدوارد كارسون. واضطلع بتمثيل وايلد السير إدوارد كلارك والمستر ويلى ماثيوس والمستر ترافيرز همفريز فى حين مثل الدفاع عن الماركيز المتهم كل من إدوارد كارسون وتشارلس جيل وآرثر جيل . وفى وقت باكر اكتظت قاعة المحكمة بالحضور الذين وصلوا قبل القاضى بساعة كاملة الأمر الذى حدا بأحد الحاضرين إلى التعليق على هذا التبكير بالحضور بقوله بصوت مرتفع «أهمية أن يكون المرء مبكراً» على غرار عنوان مسرحية ويلد المعروفة «أهمية أن يكون المرء جادا». ولوحظ خلو القاعة تماما من السيدات. وكان أول من وصل من الأطراف المتخاصمة اللورد كوينزبرى الذى حضر بمفرده ليقف وهو ممسك بقبعته أمام قفص الاتهام دون أن يتحدث إلى أحد ودون أن يتحدث أحد إليه، وبعد مضى بعض الوقت وصل وايلد الذى جلس أمام محاميه وأنهمك فى الحديث الملئ بالحيوية معهم، ويقال إنه ابتسم لزميل الدراسة

ومحامى الخصم إدوارد كارسون ولكن كارسون عامله ببرود وفتور واضحين، وفى المقاعد المخصصة لمحامى المتهم شوهد المحامى تشارلس راسل وهو يتبادل الحديث مع المفتش ليتل تشايلد المخبر الخاص الذى قام بجمع المعلومات والأدلة التى اعتمد عليها محامو الماركيز كوينزبرى فى الدفاع عنه، وبعيدا عن الأنظار وتحت حراسة مشددة احتفظت المحكمة بمجموعة من الشباب الصايع فى غرفة منفصلة حتى تمنع اتصال أى أحد بهم والتأثير عليهم .

افتتحت المحكمة الجلسة بسؤال المتهم اللورد كوينزبرى إذا كان مذنبا أم بريئا، فرد كوينزبرى بأنه برىء مائة فى المائة وأن كل كلمة قالها ضد المدعى صحيحة ومن المصلحة العامة إعلانها . وفى تمام الساعة الحادية عشرة قام محامى وايلد السير إدوارد كلارك فى حنكة واقتدار بإلقاء خطاب معتدل فحواه أن المتهم كوينزبرى أساء إلى موكله ثم أعطى ملخصا بديعا لرواية «صورة دوريان جراى» التى وصمها محامو المتهم بالبذاءة والإنحلال ورأوا أنها تتضمن مبررات للتهمة التى وجهها الماركيز إلى موكله . ولم يركز إدوارد كلارك فى خطابه على تهمة الشذوذ الجنسى المنسوبة إلى موكله باعتبار أن براءته منها أمر مفروغ منه، بل ركز على مكانته الأدبية المرموقة وكيف أن ترك الماركيز كوينزبرى

لبطاقته المهينة مفتوحة مع بواب النادى من شأنها أن تحط من قدر موكله وتسيىء إلى سمعته. ثم انتقل محامى وايلد إلى مناقشة عريضة المبررات التى تقدم بها محامو المتهم والتى تحتوى على عدد من الأسماء تزعم العريضة أن وايلد حرضهم على ارتكاب تلك الفعلة الشنعاء معهم . ونظرا لعدم توافر الأدلة على صحة هذا الادعاء ذهب السير كلارك أنه يتعين على الذين تقدموا بهذه العريضة أن يثبتوا صحة دعواهم عن طريق استجواب الشهود الموثوق بهم. ثم عرج السير كلارك إلى صداقة وايلد القوية باللورد ألفريد دوجلاس فذكر الظروف المحيطة بها بالتفصيل وكيف أن هذا اللوردُ ووالدته الليدى كوينزبرى كانا يرحبان به فى منزلهما فى سالزبرى وغيره من الأماكن باعتباره ضيفا عزيزا عليهما. وأضاف كلارك أن اللورد دوجلاس كثيرا ما كان ينزل ضيفا على أوسكار وايلد وزوجته. ثم بين كلارك كيف تعرض موكله لمحاولات الابتزاز بسبب الخطابات التى أرسلها إلى اللورد دوجلاس، وحتى يقطع الطريق على خصومه قام بقراءة واحد من هذه الخطابات فى قاعة المحكمة واختار منها أكثرها جرأة وجسارة مثل خطاب موكله إلى اللورد دوجلاس الذى يقول فيه: «إن السوناتة الشعرية التى نظمتها رائعة وبديعة للغاية، وإنها لأعجوبة أن نرى شفاهك

التى تشبه الورد لم تخلق من أجل أنغام الموسيقى والأغانى فحسب بل من أجل لوثة القبلات أيضا . أن روحك الموشاة بالذهب الرقيقة والمرهفة تسير بين حافتى الشعر والعاطفة المتأججة . أننى أعرف أن الشاب الجميل هياسينوت الذى عشقه أبولو بجنون فى أيام الأغريق لم يكن سواك» . وعلق السير كلارك على هذه اللغة العاطفية الملتهبة بقوله أنها قد تبدو لغة غريبة وغير مألوفة ومبالغ فيها ، ولكنها لغة شاعر ، وأضاف أن الخطاب ليس سوى سوناتة من الشعر لا يرى فيها كاتبها ما يدعو إلى الخجل، فهى تنطوى على العاطفة الشعرية الصادقة دون أن تتضمن أية تلميحات كريهة ومنفرة كالتى ينسبها محامو اللورد كوينزبرى إلى موكله. ويعلق كلارك على مزعمين تضمنتهما عريضة المبررات أولهما أن وايلد نشر فى يولية عام ١٨٩٠ رواية بعنوان «صورة دوريان جراى» تدور حول العلاقات الحميمة بين نفر من ذوى الممارسات الشاذة وثانيهما أنه أسهم بمقال بعنوان «عبارات وفلسفات من أجل فائدة الشباب» فى مجلة «الحرباء» التى أصدرها طلبة جامعة أكسفورد فى ديسمبر ١٨٩٤ , قال كلارك إن المقال يتضمن دعابات طلبة وملحاً ونكات ذكية وحكمة فى قالب فكاهى من نوع الملح التى كتب بها وايلد مسرحية «أهمية أن يكون المرء جادا». وأضاف المحامى أنه من سوء الحظ أن هذه

المجلة الشبابية نشرت قصة شائنة كتبها طالب بجامعة أكسفورد اسمه ج . ف . بلوكسام بعنوان «الكاهن وتابعه الغلام» تعتبر وصمة عار في جبين الأدب. وذكر أن وايلد اعترض على نشر هذه القصة وأصر بسببها على سحب جميع نسخ المجلة من السوق، ومن ثم لا يصح اتهامه بالإنحلال الأدبى كما ورد في عريضة المبررات وقال كلارك الذى دافع عن وايلد بكفاءة واقتدار نادرين إنه يمكن شراء نسخة من رواية «صورة دوريان جراى» من أية مكتبة في لندن وأنه قد مضى على نشرها خمسة أعوام . وبعد أن روى ملخصا شديد الإيجاز ولكنه رائع لأحداث الرواية التفت إلى كارسون محامى المتهم وسأله إذا كان يرى منها ما يشين، وعندما أدلى الماركيز كوينزبرى بشهادته ضج الحاضرون في المحكمة بالضحك حين أنكر أنه يتهم أوسكار وايلد باللواطية فقد قال: «أنا لا أقول إنك واحد منهم ولكنى أقول إنك تشبههم». واضطر القاضى إلى التدخل وهدد بإخلاء القاعة إذا لم يلتزم الحاضرون بالهدوء . وفى شهادته أنكر وايلد أنه حرض أى شخص على الفساد وأعرب عن سخطه الشديد على قصة «الكاهن وتابعه الغلام».

وقبل رفع الجلسة في فترة الغداء وقف كارسون محامى الماركيز كوينزبرى بوجهه الصارم وقامته المديدة ولكنته الأيرلندية

التى لازمته ليواجه زميله القديم فى الدراسة . وأدار كارسون استجوابه لوايلد باقتدار قل أن نجد له نظيرا فى عالم المحاكم والمرافعات. بدأ كارسون استجوابه بالسؤال عن عمر مؤلفنا.

كارسون: لقد ذكرت أنك فى التاسعة والثلاثين، ولكنى أظن أنك تجاوزت الأربعين ، فأنت من مواليد ١٦ أكتوبر ١٨٥٤. أليس كذلك؟!!

(وللتأكيد على ذلك لوح كارسون أمام وايلد بنسخة من شهادة ميلاده فظهر عليه شىء من الارتباك ولكنه سرعان ما تمالك نفسه).

وايلد (برقة): إننى لا أرغب فى إدعاء صغر السن، أنت تملك نسخة من شهادة ميلادى، وهذا كاف لحسم الموقف.

ولكن كارسون أصر على إحراجه بقوله: ولكن ولادتك عام ١٨٥٤، تعنى أنك فوق الأربعين.

فاضطر مؤلفنا إلى الاعتراف بذلك .. وهكذا بدأ كارسون استجواب غريمه بتسجيل انتصار صغير ولكنه بالغ الأهمية، فقد أظهر للمحكمة والمحلفين أن الشاهد يكذب فى ذكر عمره الحقيقى، الأمر الذى ساعد على إظهار فارق السن بين الشاهد رافع الدعوى وصديقه الشاب اللورد دوجلاس. ثم انتقل كارسون إلى استجواب وايلد بشأن قصيدتين نشرهما صديقه ألفريد

دوجلاس فى مجلة «الحرباء» تحمل إحداهما عنوان «فى مدح العار» وتحمل الأخرى عنوان «عشقان».

سأل كارسون وايلد إذا كان قد قرأ هاتين القصيدتين فرد بالإيجاب وقال إنه يعتبرهما آيتين فى الجمال. وهنا قال كارسون للشاهد بصوت مفعم بالاشمئزاز:

ـ ولكن هذين «العشقين» بين غلامين؟!

ـ نعم.

ـ أحد هذين الغلامين يسمى حبه حبا صادقا والآخر يسمى حبه عارا أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ هل تظن أن القصيدتين توحيان بفعل شىء غير لائق؟

ـ لا. إنهما لايوحيان بأى شىء من هذا القبيل.

ثم انتقل كارسون إلى استجواب الشاهد حول قصة «الكاهن وتابعه الغلام».

كارسون: ليس لديك شك فى أن هذه قصة غير لائقة.

وايلد: إنها غير لائقة من وجهة النظر الأدبية، ويستحيل على أى مشتغل بالأدب أن يحكم عليها بغير ذلك، وأعنى بوجهة النظر الأدبية أسلوب المعالجة واختيار الموضوع وما إلى ذلك. إننى أرى أن المعالجة الأدبية فى هذه القصة فاسدة وكذلك موضوعها.

ـ أنت ترى فيما أظن أنه لا يوجد شيء اسمه كتاب مناف للأخلاق؟

ـ نعم.

ـ هل أفهم من هذا أنك تعتقد أن «الكاهن وتابعه الغلام»، ليس عملا منافيا للأخلاق؟!!

ـ إنها أسوأ من ذلك لأنها مكتوبة بطريقة سيئة .

ـ أليست القصة تدور حول قسيس وقع فى غرام غلام يساعده فى إعداد الهيكل ؟

ـ لقد قرأت القصة مرة واحدة فقط فى شهر نوفمبر الماضى. ولست على استعداد لأن أعيد قراءتها ، فأنا لا أكترث بها .

ـ هل تظن أن هذه القصة تتضمن هرطقة؟

ـ أظن أن القصة انتهكت كل قوانين الفن الجميل.

ـ هذه ليست إجابة عن سؤالى.

ـ هذه هى الإجابة الوحيدة التى يمكننى إعطاءها .

ـ إننى أريد أن أعرف منك إذا كنت ترى أن فى القصة هرطقة؟

ـ لقد ملأتنى القصة بالاشمئزاز وخاتمة القصة خاطئة.

ـ أجب عن السؤال يا سيدى. هل تعتبر أن هناك هرطقة فى القصة.

ـ إننى أعتبرها مثيرة للاشمئزاز.

ـ أنت تعرف أن القسيس يستخدم نفس كلمات طقوس الكنيسة الإنجليزية وهو يقوم بتسميم الغلام؟

ـ لقد نسيت هذه الواقعة تماما.

ـ هل تعتبر هذه هرطقة؟

ـ اعتبره شيئا فظيعا، وليست الهرطقة من الكلمات التى أحب استخدامها.

ـ أظن أنك سوف تعترف معى أن أى إنسان يوافق على مثل هذه القصة سوف يظهر بمظهر المذنب الذى يمارس الأفعال المشينة؟

ـ لست أظن ذلك بزميل ساهم فى تحرير المجلة. إن هذا سوف يكون قلة ذوق أدبى من جانبى، وعلى أية حال فقد اعترضت بشدة على القصة بأكملها . بطبيعة الحال إننى أدرك أنه من الجائز أن مجلة «الحرباء» انتشرت بين الطلبة فى جامعة أكسفورد. ولكنى لا أعتقد أن أى كتاب أو أى عمل فنى يمكنه أن يترك أدنى أثر فى الأخلاق .

ـ هل أنا محق إذا قلت إنك لا تهتم بالجوانب الأخلاقية أو غير الأخلاقية أو .... فى أى كتاب؟

ـ أنا لا أهتم بهما بكل تأكيد ... عندما أؤلف مسرحية أو أكتب كتابا فإن اهتمامى يتركز فى الأدب أى فى الفن .. فلست أهدف إلى تأليف عمل صالح أو طالح بل أحاول أن أصنع شيئا يتسم بالجمال.

(وهنا التقط كارسون نسخة من مجلة «الحرباء») واستأنف استجوابه به لوايلد بقوله:

ـ أنصت يا سيدى . تقول إحدى «العبارات والفلسفات» التى أسهمت بها فى المجلة: «الشر أسطورة اخترعها الناس الطيبون لتفسير الجاذبية الغريبة التى يتمتع بها الآخرون».. هل تعتقد أن هذا صحيح؟

ـ من النادر أن أعتقد فى صحة ما أكتب.

ـ أنت تقول «الأديان تموت عندما تثبت صحتها؟» فهل هذا صحيح؟

ـ نعم . إننى أعتقد ذلك. هى فكرة ترمى إلى إقامة فلسفة تهدف إلى أن يقوم العلم باستيعاب الأديان، ولكنها مشكلة عويصة للغاية وليس هذا الوقت لمناقشتها الآن.

ـ هل تعتقد أنه من الأمان وضع مثل هذه البديهية كفلسفة يتبعها الشباب؟

ـ إنها أشد ماتكون شحذا للفكر.

ـ ما رأيك فى قولك «إذا قال الإنسان الحقيقة، فمن المؤكد أن أمره سيفتضح إن آجلا أم عاجلا؟».

ـ هذه مفارقة لطيفة ولكنى لا أؤمن بها كثيرا كبديهية.

ـ وهل هى صالحة للشباب؟

ـ كل شىء صالح مادام أنه يثير الفكر ويشحذه فى أية فترة من عمر الإنسان.

ـ بغض النظر عن كون هذا الشىء أخلاقيا أو منافيا للأخلاق؟

ـ ليس هناك شىء فى الفكر اسمه الأخلاق أو انتفاء الأخلاق.

ـ إذن فاللذة هى الشىء الوحيد الذى ينبغى على الإنسان أن يعيش من أجله.

ـ أعتقد أن تحقيق الذات هو أهم هدف فى الحياة. وأن يحقق الإنسان نفسه عن طريق اللذة أروع من تحقيقها عن طريق الألم. إننى من هذه الناحية أقف فى صف الأقدمين تماما .. فى صف الإغريق . وهى فكرة وثنية.

ـ ماهو الأثر الذى يتركه مقالك «عبارات وفلسفات» من أجل فائدة الشباب إذا ما تمت قراءته جنبا إلى جنب مع قصة «الكاهن وتابعه الغلام»؟

ـ بكل تأكيد إن هذا بالذات ما دعاني إلى الاعتراض بقوة على نشر هذه القصة. فقد رأيت على الفور أن مثل هذا النشر من شأنه أن يجعل القراء يربطون بينها وبين مأثوراتي التي قد تكون مجرد دعابة فارغة أو مفارقة أو أي شيء من هذا القبيل.

ومن المؤسف أن كلام وايلد ترك شيئا من الأثر في نفوس المحلفين الذين مال بعضهم إلى الاعتقاد بأنه من الجائز أن يكون في اتهام الماركيز كوينزبري شيء من الصحة، ثم انتقل كارسون إلى مناقشة المؤلف في روايته «صورة دوريان جراي» فبدأ بوصف الانطباع الذي تركته رؤية الشاب المليح دوريان جراي في نفس الرسام باسيل هولورد عندما وقعت أنظاره عليه لأول مرة: «عندما تلاقت نظراتنا أحسست بالدم يفيض من وجهي، وتملكني فزع عجيب. وأيقنت أني أمام إنسان ذي شخصية ساحرة مدمرة. فلو أني تركت الأمور تجري مجراها العادي لاستغرقت روحه روحي ولأفنت نفسه نفسي ولسيطر على فني ومواهبي .. إن درويان جراي قد أصبح كل فني الآن . أنت لا شك تذكر ذلك المنظر الطبيعي الذي رسمته والذي رفضت أن أتنازل عنه لأنيو رغم عروضه السخية فهو من أبدع مارسمت. هل تعرف ما الذي جعلني أضن بهذه اللوحة عليه؟ لأن دوريان جراي كان يجلس إلى جواري ساعة أن رسمتها فطاف بي وحي لطيف خرج من

شخصيته ليغمرنى، فكشفت للمرة الأولى فى حياتى عن ذلك السحر الذى كنت أنشده دون أن أدرك معناه».

واستمر كارسون فى قراءة الفقرة التالية من الرواية:

«إنها لحقيقة إننى عبدتك بعاطفة رومانسية تفوق ما يمنحه أى رجل فى العادة لصديقه. إننى لم أقع فى غرام إمرأة فى حياتى قط. ولعل السبب أنه ليس لدى الوقت لذلك .. ومنذ اللحظة التى قابلتك فيها تركت شخصيتك فى نفسى أعمق الأثر. أعترف بكل وضوح وجلاء أننى عبدتك بجنون وبإفراط غريب. فقد أردت أن تكون كلك ملكا لى. كنت لا أحس بالسعادة إلا بالقرب منك. وعندما ابتعد عنك فإن صورتك تتمثل فى خاطرى رغم ذلك. لقد كان هذا نزقا وحماقة كبيرة منى. وهو لايزال كذلك. وذات يوم عقدت العزم على أن أرسم صورة رائعة لك. وقيض لهذه الصورة أن تصبح تحفة فنية رائعة. إنها حتما تحفة فنية رائعة. ولكن بدا لى وأنا أقوم برسمها أن طبقات الألوان ورقائقها تفضح سرى فازدادت خشيتى أن يعرف العالم أنى أعبدك».

ـ هل تعنى أن تقول إن هذه الفقرة تمثل الشعور الطبيعى الذى يشعر به رجل نحو رجل آخر؟

ـ إنه الأثر الذى تتركه شخصية جميلة فى النفس.

ـ شخص جميل؟

ـ أنا قلت «شخصية جميلة». ويمكنك أن تصفها كما يحلو لك. إن لدوريان جراى شخصية أشد ما تكون جذبا للأنظار.

ـ هل أفهم من هذا أنك كفنان لم تعرف هذا الشعور الذى تصفه فى روايتك؟

ـ إننى لا أسمح لأية شخصية على الإطلاق أن تسيطر على فنى.

ـ معنى هذا أنك لم تعرف قط الشعور الذى تصفه.

ـ لا فهذا عمل من نسج الخيال.

ـ أى أنك فيما يتعلق بنفسك لم تجرب هذا الشعور باعتباره شعورا طبيعيا.

ـ أعتقد أنه من الطبيعى للغاية أن يحمل أى فنان إعجابه وحبه الشديدين لأى شاب. هذا يحدث فى حياة كل فنان.

ـ ولكن دعنى استعيد الفقرة عبارة بعبارة. الفقرة تقول: «إننى أعترف بكل وضوح وجلاء أنى عبدتك إلى حد الجنون» ما رأيك فى مثل هذا القول؟ هل سبق فى أية فترة فى حياتك أنك أحببت شابا بجنون..

ـ لا ، ليس بجنون .. إننى أفضل استخدام كلمة حب فهى شكل أرقى...

ـ ما عليك من هذا. دعنا لا نحيد عما نحن بصدد مناقشته الآن.

ـ إننى لم أعبد أحدا فى حياتى غير نفسى.

وهنا ضجت القاعة بالضحك، فانتظر كارسون حتى تلاشى هذا الضحك وقال:

ـ أعتقد أنك تظن أنك أطلقت نكتة ذكية؟

ـ العفو.

ـ معنى هذا أنك لم تشعر أبدا بهذا الشعور.

ـ لا. لقد استقيت الفكرة بأكملها من أعمال شكسبير. آسف. إننى استقيتها بالتحديد من سوناتات شكسبير.

ـ أعتقد أنك كتبت مقالا تبين فيه أن سوناتات شكسبير تدعو إلى ممارسة الرذيلة غير الطبيعية.

ـ بالعكس فقد كتبت مقالا أبين فيه أن السوناتات لا توحى بذلك، واعترضت على نسبة مثل هذا الانحراف إلى شكسبير.

واستمر كارسون فى استجواب المؤلف فى روايته «صورة دوريان جراى» فقرأ منها العبارة التالية: «لقد أحسست بالغيرة من كل إنسان تحدثت إليه يا دوريان جراى، فهل أحسست فى حياتك بالغيرة من أى إنسان؟

ـ لم يحدث هذا مطلقا.

ـ أنت تقول فى روايتك: «أردت أن تكون كلك ملكا لى»، فهل أحسست فى حياتك بهذا الشعور؟

ـ لا. فإنى أعتبر هذا مصدر إزعاج وملل شديدين لى.

ـ وأنت أيضا تقول: «ازدادت خشيتى أن يعرف العالم أنى أعبدك» ما الذى جعل صاحب هذه الكلمات يزداد خشية من معرفة العالم بهذا الأمر؟

ـ لأن هناك أناسا في هذا العالم لا يستطيعون أن يفهموا التفاني والحب والإعجاب الذى يمكن لفنان أن يحس به نحو شخصية فاتنة وبديعة. هذه هى الأحوال التى نعيش فيها وهى أحوال تدعو إلى الأسف.

ـ هؤلاء التعساء، على حد قولك، الذين لا يملكون تلك الدرجة العالية من الفهم التي تملكها أنت قد يسيئون تأويلها.

ـ بكل تأكيد.

واستطرد كارسون ليستجوب المؤلف عن الكتاب الذى تقول الرواية إن دوريان جراى تسلمه، سائلا إياه إذا كان هذا الكتاب المشار إليه أخلاقياً ورفض وايلد الإجابة عن هذا السؤال فى بادىء الأمر . فليس هناك فى الرواية أية إشارة إلى عنوان الكتاب كما أنه لا يليق به أن يصدر أى أحكام من هذا القبيل على كتاب يسطره يراع زميل فنان، ولكن كارسون واصل تضييق الخناق عليه حتى اضطر إلى الاعتراف أنه كان يفكر آنذاك فى رواية فرنسية عنوانها «فى الاتجاه المعاكس» من تأليف ج . ك . هيوسمانز. وأصر كارسون على معرفة رأى وايلد فى هذا الكتاب والحكم على مدى أخلاقيته. وهنا اعترض محامى وايلد فتدخل القاضى ليطلب من كارسون صرف النظر عن هذا السؤال . غير أن كارسون ما لبث أن عاد إلى أحداث الرواية فسأل المؤلف عما تقوله روايته من أن دوريان جراى كان السبب فى تحطيم حياة الآخرين، فقد انتحر رجل من أجله كما اضطر رجل آخر إلى مغادرة انجلترا بعد تلطيخ اسمه بالعار . فضلا عن أن وايلد اضطر إلى الاعتراف بأن دوريان جراى يمارس أثرا سيئا فى المحيطين به، ولكنه تحفظ فأردف أن الرواية لا توضح على وجه التحديد طبيعة هذا الأثر السىء.

وبعد أن فرغ كارسون من استجواب أوسكار وايلد بشأن أدبه انتقل إلى مناقشته فى الخطابات التى كتبها إلى اللورد ألفريد دوجلاس، ومن بينها قصيدة الشعر النثرى التى سبق لمحامى وايلد أن قرأها فى قاعة المحكمة. سأل كارسون وايلد:

ـ ما الذى يدعو رجلا فى سنك إلى مخاطبة غلام أصغر منه بعشرين عاما تقريبا بقوله «يا غلامى» ؟

ـ لقد كنت مغرما به، فأنا أبدا مغرم به.

ـ هل تعبده؟

ـ كلا، ولكنى كنت دائما أميل إليه، أظن أنه خطاب جميل، بل إنه قصيدة شعر، إن يراعى لم يسطر خطابا عاديا .هل يمكنك أن تسألنى إذا كانت مسرحية شكسبير «الملك لير» أو إحدى سوناتاته عملاً رائعاً أم لا؟

ـ وإذا تغاضينا عن الفن يا مستر وايلد؟

ـ إنى لا أستطيع الإجابة إلا فى إطار الفن.

ـ إذا فرضنا أن رجلا ليس بفنان كتب هذا الخطاب فهل تعتبره خطابا لائقا.

ـ لا يقدر على كتابة هذا الخطاب سوى فنان.

ـ لماذا؟

ـ لأنه لا أحد يستطيع كتابته غير فنان. بكل تأكيد لا يستطيع كتابة هذه اللغة غير أديب.

ـ أنت تقول «إن روحك الموشاة بالذهب والمزهفة تمشى بين الشعر والعاطفة المتأججة، فهل تعتبر هذه العبارة جميلة؟

ـ ليس بالطريقة التي تقرأ بها يا مستر كارسون. فقراءتك سيئة للغاية.

فرد كارسون عليه بقوله:

ـ لست أزعم أننى فنان، وعندما استمع إليك وأنت تدلى بشهادتك فإنه ليسرنى أننى لست فنانا، ألا تعتبر هذا خطابا غير عادى؟

ـ إنه خطاب ليس له نظير.

وهنا انفجرت قاعة المحكمة بالضحك. ثم استأنف كارسون استجوابه.

ـ هل هذا أسلوبك العادى فى كتابة خطاباتك؟

ـ لا. لكنى كثيرا ما كتبت إلى اللورد ألفريد دوجلاس ، غير أنى لم أكتب قط لأى شاب آخر بهذا الأسلوب.

ـ هل كتبت عددا آخر من الخطابات بهذا الأسلوب؟

ـ إنني لا أكرر أسلوبي في الكتابة.

وهنا أمسك كارسون بخطاب آخر أرسله وايلد إلى اللورد ألفريد دوجلاس وردت فيه العبارات التالية: «يا أعز الغلمان .. إن خطابك كان بديعا وممتعا ويبعث النشوة في نفسي. فقد بدا في حمرة لون الخمر واصفراره .. يجب أن أراك في الحال فأنت الشيء القدسي الذي أرومه وتتجسد فيه الرشاقة والفتنة معا .. وفي هذه المرة طلب كارسون من أوسكار وايلد أن يقرأ خطابه على المحكمة ولكنه رفض فتولى كارسون قراءته نيابة عنه ثم طرح عليه السؤال التالي:

ـ هل هذا خطاب عادي؟

ـ إن كل شيء أكتبه غير عادي.

وأخيرا ختم كارسون استجوابه بالسؤال التالي:

ـ هل هذا نوع الخطابات التي يرسلها رجل إلى رجل مثله؟

فرد عليه وايلد بقوله: «إنه أرق تعبير عن إعجابي العظيم باللورد ألفريد دوجلاس . وهو يختلف عن الخطاب الذي يعتبر قصيدة نثرية» .

كانت إجابات أوسكار وايلد تنم عن ثقة فائقة بالنفس وقدرة هائلة على مقارعة محامي خصمه ومنازلته بالملح الذكية والنكات الطلية ما دامت أسئلته مقصورة على الفن والأديب وأساليب الكتابة، غير أن هذه الثقة الكبيرة بالنفس بدأت تتزعزع عندما انتقل كارسون فيما بعد إلى سؤاله عن طبيعة علاقته ببعض الأشخاص مثل الشقى ألفريد وود الذى حاول مع آخرين ابتزازه، وكانت مجرد الإشارة لاسم هذا البلطجى أثناء الاستجواب نذير شؤم. قال وايلد فى شهادته أنه قابل ألفريد وود لأول مرة فى الكافيه رويال استجابة لبرقية أرسلها إليه صديقه اللورد دوجلاس الذى طلب منه أن يشمله بعطفه ويساعده فى العثور على عمل ككاتب. واعترف وايلد أنه منح وود جنيهين فى إحدى المناسبات إرضاء لصديقه اللورد دوجلاس. وعندما سأله كارسون عن الفارق فى المستوى الاجتماعى بينه وبين ألفريد وود رد وايلد بقوله إنه لا يكترث مطلقا بمسألة الفوارق الاجتماعية. وبعدئذ وجه كارسون اتهاما مباشرا إلى مؤلفنا قائلا: «أرى أن ثمة علاقة منافية للأخلاق كانت تربطك به فى بادىء الأمر. ثم أعطيته نقودا بعد ذلك».

وأنكر وايلد هذه التهمة في غضب . واسترسل كارسون:

ـ هل تذكر أنه جاء إليك ليبتز منك النقود؟

ـ نعم. ولهذا صممت على مواجهة الموقف.

ـ وكان أسلوبك فى المواجهة أنك أعطيته ثلاثين جنيها ليسافر إلى أمريكا.

ـ هذا الكلام غير دقيق فقد رأيت أن الخطابات عديمة الفائدة. أما سبب إعطائى النقود له فيرجع إلى أنه حكى لى قصة محزنة عن ظروفه وأحواله. ومن الجائز أن إعطائى النقود له كان نوعا من الغفلة. غير أن عطفى عليه كان الدافع إلى ذلك.

ـ وهل أعطيته خمسة جنيهات أخرى فى اليوم التالى؟

ـ نعم ، فقد قال لى إنه بعد أن يدفع نفقات رحلته إلى أمريكا فسوف لا يتبقى معه بنس واحد. ولهذا أعطيته خمسة جنيهات.

ـ ألا ترى أنه لأمر غريب أن يحاول رجل تربطك به كل هذه العلاقة الحميمة أن يبتز منك المال.

ـ رأيت أنه عمل حقير وشائن، ولكن وود أقنعنى أن الابتزاز لم يكن فى نيته ولكن كان فى نية الآخرين.

وأضاف وايلد أن الخطاب الذى يحتوى على القصيدة النثرية لم يكن ضمن حزمة الرسائل التى استردها من وود ، وأن الشريرين آلن وكليبورن زاراه فى بيته لتسليم هذا الخطاب إليه.. وعندئذ قال له كارسون:

ـ هل لي أن أسأل لماذا أعطيت هذا الرجل ألن عشرة شلنات رغم أنك تعلم أنه مبتز وسيء السمعة؟

ـ أعطيته هذا المبلغ للتعبير عن احتقارى له.

ـ إذن فوسيلتك فى إظهار الاحتقار أن تدفع عشرة شلنات لمن ترغب فى إظهار احتقارك له؟

ـ نعم. وإنى غالبا ما أفعل هذا.

وهنا علق كارسون ساخرا:

ـ أعتقد أنه كان مسرورا باحتقارك له.

ـ نعم . بدا من الواضح أن عطفى عليه أدخل على قلبه السرور.

ثم انتقل كارسون إلى استجواب وايلد بصدد المناسبات التى زعم الماركيز كوينزبرى فى عريضة المبررات أنه مارس اللواط فيها مع بعض أشخاص بعينهم، ويرجع تاريخ أولى هذه المناسبات إلى فبراير ١٨٩٢ عندما كان وايلد يقيم فى فندق ألبمارك . وسأله كارسون:

ـ هل كان إلكين ماتيوز وجون كين ناشريك في ذلك الوقت؟

ـ نعم.

ـ هل كنت آنذاك مغرما بمراسلة العامل لدى هذين الناشرين، عندئذ اجتاح وايلد غضب عارم وأجاب وهو ينتفض من الغضب:

ـ لا أظن أن هذه صيغة لائقة لتوجيه السؤال إلىّ. وإنى أرفض أن يكون هذا توصيفا لوظيفة المستر إدوارد شيلى الذى تشير إليه.

وانتظر كارسون حتى زال غضب الشاهد ليسأله:

ـ كم كان عمر المستر شيلى؟

ـ أظن أنه كان فى نحو العشرين

وأضاف وايلد أنه تعرف به منذ عام عندما كانت دار نشر ماتيوز وكين تستعد لنشر كتبه واعترف أنه دعاه إلى تناول الغداء معه فى فندق ألبمارل فسأله كارسون بسخرية وازدراء واضح عن السبب الذى دفعه إلى تقديم مثل هذه الضيافة الفكرية إليه. فرد بقوله:

ـ نعم لقد كانت ضيافة فكرية بالنسبة لمستر شيلى وتناولنا الغداء فى حجرة الجلوس.

ـ وهل كانت هناك هذه المرة حجرة مفضية إلى حجرة النوم؟

ـ نعم.

ـ هل قدمت إليه الويسكى والصودا؟

ـ أعتقد أنى قدمت إليه كل مايريد. ولكنى لا أذكر مسألة الويسكى والصودا على وجه التحديد.

وهنا أشار كارسون إلى ارتكاب وايلد البذاءات مع هذا الشاب فأنكر بشدة قائلا:

ـ إنه لم يمكث طيلة الليل معى كما أننى لم احتضنه.

وواصل كارسون استجواب وايلد الذى اعترف بدعوة شيلى إلى منزله حيث تناول الغداء معه ومع زوجته . كما اعترف بأنه اصطحب ضيفه إلى المعرض المقام في ايرلز كورت وإلى الكافيه رويال والمسرح والكلوب فضلا عن بعض الأماكن الأخرى. وأيضا اعترف بأنه أعطاه نقودا فى ثلاث مناسبات: أربع جنيهات فى المناسبة الأولى وثلاثة فى الثانية وخمسة فى الثالثة. فضلا عن أنه أهداه كتابين أحدهما رواية «صورة دوريان جراى». وسعى كارسون إلى إحراج وايلد فسأله إذا كان من الطبيعى واللائق أن يصاحب فى الثانية والعشرين من عمره .

ـ فرد عليه وايلد «بكل تأكيد» .

ـ ثم سأله كارسون عن علاقته بشاب آخر اسمه ألفونس ـ

كونواى كان يبيع الصحف فى كشك على المرسى فاعترف بصداقته له ولكنه أنكر معرفته بمهنته. ويشرح وايلد ظروف معرفته به فيقول إنه اعتاد اصطحاب اللورد ألفريد دوجلاس للقيام ببعض النزهات النهرية فى القوارب ، وإن كونواى ذات مرة ساعد المراكبى فى دفع القارب الذى يقلهما فى الماء. واقترح وايلد على اللورد دوجلاس دعوى كونواى للتنزه معهما فى القارب فوافق اللورد دوجلاس على ذلك. ومنذ ذلك الوقت نشأت صداقة متينة بينه وبين ذلك الشاب الذى اعترف وايلد بدعوته إلى تناول الطعام فى بيته وفى بعض الفنادق. ولكنه أنكر أنه تواعد معه ذات مساء للإلتقاء بالقرب من لانسنج وأنه قام أثناء سيرهما بتقبيله واحتضانه كما أنكر أنه أعطاه أية مبالغ مالية، ولكنه اعترف بإعطائه حافظة سجائر نقش عليها الإهداء التالى: «إلى الفونس من صديقه أوسكار وايلد»، بالإضافة إلى كتاب وصورة فوتوغرافية. وبحركة درامية جذب كارسون أنظار كل المحلفين الاثنى عشر عندما عرض عليهم هدايا أخرى كان مؤلفنا قد نسى أن يذكرها . ومن بينها عصا للمشى ذات مقبض فضى فارتسمت إمارات الدهشة والاستغراب على وجوه المحلفين. واستكمل كارسون استجواب الشاهد فسأله:

ـ هل كنت مغرما بهذا الغلام؟

ـ طبعا فقد كان يرافقنى لمدة ستة أسابيع.

ـ هل اصطحبت الغلام إلى مصيف برايتون؟

ـ نعم.

ـ واشتريت له بذة مضلعة من الصوف الأزرق؟

ـ نعم.

ـ وقبعة من القش؟

ـ نعم.

ـ وألبست بائع الجرائد ثيابا قشيبة كى تصحبه معك إلى برايتون؟

ـ كلا. فأنا أردت ألا أجعله يحس بالخجل من رثاثة ملبسه.

ـ حتى يبدو ندا لك.

وأقر وايلد أنه تناول الطعام مع هذا الشاب فى مطعم ثم أمضيا ليلة فى فندق ألبيون حيث استأجر حجرة جلوس وحجرتين للنوم. وهنا تساءل كارسون:

ـ هل كان هناك باب من الجوخ الأخضر يوصل بينهما؟

فأجاب وايلد قائلا:

ـ لست متأكدا!

وحان وقت إغلاق المحكمة فتأجلت مناقشة هذا الشاهد إلى اليوم التالى وفيه استأنف كارسون استجوابه حول صداقته بألفريد تيلور الذى اتهمه الماركيز كوينزبرى فى عريضة المبررات بأنه القواد الذى يسهل على وايلد التعرف بالشباب. وأقر مؤلفنا بأن معرفته بألفريد تيلور ترجع إلى عامين ونصف وأنه دبر اللقاء بوود بهدف استرداد الخطابات التى سبق أن أرسلها إلى صديقه اللورد دوجلاس. وقام كارسون بمحاصرة الشاهد بوابل من الأسئلة التى تبدو تافهة. وشيئا فشيئا جاء إلى بيت القصيد عندما سأل الشاهد عن عادة ألفريد تيلور فى إسدال كل ستائر بيته ليلا ونهارا حتى لا يخترمه ضوء النهار الطبيعى، فهو دوما يعتمد فى إضاءة منزله على إشعال الشموع والمصابيح الغازية . وظهرت إمارات الجهامة والدهشة على وجوه المحلفين وخاصة عندما اعترف وايلد نفسه بأنه يقوم مثل تيلور بحرق البخور فى بيته حتى يفوح بعبق عاطر. وتساءل كارسون إذا كان وايلد يعرف أن تيلور كان من عادته أن

يرتدي ملابس النساء التي يحتفظ بها في منزله. وأنكر وايلد معرفته بهذا الأمر ولكنه امتدح تيلور لذكائه وذوقه وصحبته البهيجة. وأيضا سأل كارسون الشاهد إذا كان يعلم أن تيلور رجل سيء السمعة وأنه يقوم بتقديم الشبان إلي الرجال الأكبر سنا وأن البوليس يضعه تحت المراقبة، فأنكر الشاهد أيضا معرفته بهذا الموضوع، ثم سأل كارسون أوسكار وايلد:

ـ كم عدد الشبان الذين قدمهم إليك؟

ـ نحو خمسة شبان.

ـ هل كان هؤلاء الشبان في نحو العشرين من العمر؟

ـ نعم في العشرين أو الثانية والعشرين فصحبة الشبان تستهويني.

ـ هل أعطيتهم نقودا؟

ـ نعم أعطيت جميع الشبان الخمسة نقودا أو هدايا؟

ـ وهل أعطوك شيئا مقابل ذلك؟

ـ أنا ! أنا ! لم يعطوني أي شيء.

ـ وهل كان تشارلس باركر واحدا من الخمسة الذين قدمهم

تيلور إليك. وماهى المناسبة؟

ـ المناسبة كانت عيد ميلاد تيلور الذى دعوته إلى الغداء وبصحبته اثنين من أصدقائه.

(هذان الصديقان هما تشارلس باركر الخادم الخصوصى وأخوه السايس والحوذى وليم باركر).

ـ وهل نشأت علاقة حميمة بينك وبينهما؟

ورد وايلد بالإيجاب دون أن يدرى أن كارسون كان ينصب له الشباك . وأضاف أن مسلك الأخوين المشار إليهما لم يكن بحال من الأحوال ينم عن وضاعة مهنتيهما . ثم سأله كارسون:

ـ كم كان عمر تشارلس باركر؟

ـ نحو العشرين وكان شبابه أحد أسباب جاذبيته لى.

ـ وهل كنت ترفع الكلفة بينكما وتسميه تشارلى.

ـ نعم.

ـ وهل كان تشارلس باركر يناديك باسمك الأول؟

ـ نعم فأنا أحب مناداتى باسم أوسكار أو مستر وايلد.

ـ كم كان المبلغ الذى أعطيته لباركر؟

ـ أعطيته نحو أربعـة أو خمسة جنيهـات فى الفتـرة التى عرفته فيها؟

ـ ولماذا؟ وماهى الأسباب؟

ـ لأنه كـان فقيرا وكنت أمـيل إليـه. وهـل هناك سبب أدعى من ذلك؟

ـ وهل نشأت صداقة بينك وبين أخيه؟

ـ نعم فقد نزل كل منهما ضيفا عليّ . ومن ثم توثقت صداقتى بهما.

وأخذ كارسون يقرأ الخطاب الذى كان تشارلس باركر قد أرسله إلى أوسكار وايلد ليتقابلا من أجل قضاء أمسية ممتعة، وهنا تدخل محامى وايلد السير إدوارد كلارك ليطلب من خصمه الإطلاع على نص الخطاب المكتوب بخط اليد. وانتهز كارسون هذه الفرصة ليلقى بقنبلة أذهلت جميع الحاضرين ومفادها أن تشارلس باركر موجود في المحكمة بشحمه ولحمه وأنه سوف يستدعيه فيما بعد للإدلاء بشـهادته. ثم مضى فى استجواب وايلد قائلا :

ـ هل تعلم ما انتهى إليه أمر تشارلى باركر؟

ـ سمعت أنه التحق بخدمة الجيش كشاويش.

ـ وهل قرأت فى الصحف نبأ القبض على تيلور وباركر؟

ـ نعم قرأته .

ـ هل تعلم أنهما متهمان بممارسة الأفعال الإجرامية؟

ـ لا أعلم شيئا عن هذه التهم.

ـ وأنهما عند القبض عليهما كانا بصحبة عدد من الرجال الذين يلبسون ملابس النساء؟

ـ قرأت فى الصحف أن رجلين يرتديان ملابس النساء ويعملان فى إحدى صالات الرقص جاءا فى عربة إلى البيت وأن البوليس ألقى القبض عليهما قبل أن يدخلاه.

ومضى كارسون ليكشف النقاب عن صداقات أخرى مشبوهة عقدها وايلد مع نفر من حثالة المجتمع مثل فريد أتكنز وإرنست سكارف وسيدنى مافور. واعتلت الدهشة وجوه المحلفين عندما اعترف وايلد أنه نفحهم جميعا مبالغ من المال مقابل استمتاعه

بصحبتهم وأنه تعرف بهم عن طريق تيلور. وأضاف وايلد أنه دعا فريد أتكنز إلى قضاء بعض الوقت فى أحد فنادق باريس.

وعلى أية حال استطاع وايلد بوجه عام أثناء استجواب كارسون له الاحتفاظ بروحه المعنوية العالية وأن يجعل قاعة المحكمة تضج بالضحك من دعاباته وإجاباته الفكهة حتى تمكن كارسون أخيرا من إصابته بسهم قاتل وهو يستجويه بشأن غلام فى السادسة عشرة اسمه والتر جرانجر اعترف وايلد بأنه يعرفه. وشرح وايلد ظروف معرفته بهذا الغلام وكيف أنه تعرف به عندما كان يعمل كخادم فى بيت صديقه اللورد دوجلاس فى أكسفورد. وباغته كارسون بتوجيه السؤال التالى إليه:

ـ هل قمت فى أى وقت من الأوقات بتقبيله؟

ودون أن يدرى إنزلق وايلد فى إجابة طائشة جرت فى أعقابها مشكلات متعددة. فقد أجاب بقوله:

ـ أوه! كلا بطبيعة الحال فقد كان يخلو من كل مسحة جمال، بل إنه كان لسوء الحظ شديد القبح الأمر الذى جعلنى أشفق عليه.

وهنا انتهز كارسون هذه الفرصة السانحة وانقض على وايلد بالسؤال التالى :

ـ هل كان ذلك سبب إحجامك عن تقبيله؟

عندئذ لم يتمالك الشاهد نفسه فرد بحدة:

ـ أوه يا مستر كارسون ، هذه قلة أدب من جانبك.

غير أن كارسون لم يتراجع وكرر على الشاهد السؤال نفسه:

ـ هل هذا السبب الذى تفسر به عدم تقبيلك للغلام؟

ـ أبدا.

ـ فلماذا ذكرت يا سيدى أن الغلام كان شديد القبح؟

ـ لست أدرى ماذا دعانى للقول إنه قبيح سوى أننى أحسست بلدغة سؤالك المهين. فضلا عن أنك ما فتئت تلحق بى الإهانات طوال فترة الاستجواب .. ومن المضحك أن تتخيل أن شيئا من هذا القبيل قد حدث.

ـ إذن ما الذى جعلك تذكر قبح الغلام. إننى أطلب منك أن تجيب عن سؤالى.

ـ ربما لأنك أهنتنى بتوجيه سؤال مهين لى.

ولم تلن لكارسون قناة فقد أصر على معرفة السبب الذى حدا بوايلد إلى الإشارة إلى دمامة الغلام:

ـ وهل هذا سبب لأن تقول إن الغلام كان دميم الوجه؟

وهنا ارتج على وايلد وغلبه الانفعال لدرجة أعجزته عن التحكم في عواطفه كما أعجزته عن إنهاء مافاه به من عبارات. كل هذا وكارسون مستمر دون رحمة أو هوادة في إرباكه وتضييق الخناق عليه.. ولم يكف عن سؤاله: «لماذا؟ لماذا؟ لماذا قلت ذلك؟» وأخيرا وبعد جهد جهيد تمكن وايلد من تجميع شتات أفكاره ليرد على خصمه قائلا: «أنت تلدغني وتهينني وتحاول إثارة أعصابي. وفي بعض الأحيان يتفوه الواحد منا بألفاظ مستخفة وغير مسئولة في حين يجدر به أن يتحدث بجدية ويتدبر ما يقول. وإني أعترف بذلك».

ـ إذن أنت قلت ما قلت على سبيل الاستخفاف غير المسئول.

ـ لقد كانت إجابتي مستخفة وغير مسئولة.

وهكذا تورط وايلد في قول ألحق به الضرر وجر عليه القيل والقال رغم إنكاره الشديد لآية علاقة غير سوية بالشبان. ولأن كارسون استجوبه بشأن مخالطته رفاق السوء لم يجد محاميه السير إدوارد كلارك بدا من العودة إلى موضوع الخطابات المهينة

التي سطرها الماركيز كوينزبرى . وقرأ كلارك أحد هذه الخطابات التي عبر فيها كوينزبرى عن شكوكه فى أن يكون إبنه ألفريد من صلب رجل آخر، الأمر الذى جعل الهمهمة تسرى فى قاعة المحكمة. ومن فرط انفعاله أخذت أسنان الماركيز كوينزبرى تصطك ورأسه تهتز كما أخذ يكز على شفتيه فى محاولة لمغالبة دموعه. وحتى يخفف السير كلارك من الأثر السىء الذى تركه استجواب كارسون لموكله نراه يلجأ إلى قراءة بعض الفقرات الواردة فى رواية «صورة دوريان جراى» كما نراه يقرأ دفاعا عن الرواية كان وايلد قد كتبه إلى دابليو هنلى محرر مجلة شكوتش أوبزرڤر، وفيه يسعى إلى تبرير إحاطة شخصية دوريان جراى بجو من الفساد الأخلاقى كضرورة يستلزمها تطور القصة الدرامي كما حاول السير كلارك من جانبه أن يمحو شيئًا من الأثر السىء الذى خلفه إعتراف وايلد بصداقته لألفريد تيلور وصحبته لرفاقه المنحرفين فذكر أن موكله تعرف بألفريد تيلور عن طريق رجل يحظى باحترام المجتمع (وهو موريس شواب ابن عم النائب العام السير فرانك لوكوود). ثم أكد وايلد أن تيلور عازف بيانو بارع وأنه لم يجد فيه ما يشين من الناحية الأخلاقية. وأضاف مؤلفنا أنه وجد أن شخصية شيلى مشوقة ومثيرة للإهتمام فهو يتعطش إلى

المعرفة ويميل إلى تذوق الفنون والآداب، الأمر الذى حدا بوايلد إلى إرسال نسخ من مؤلفاته تقديرا له ومكافأة له على بإعجابه بهذه المؤلفات.

وعندما توقفت أعمال المحكمة فى فترة الغداء شرح السير كلارك الموقف القانونى لموكله وما استجد فيه بسبب تقديمه أدلة جديدة إلى المحكمة وهى خطابات الماركيز كوينزبرى التى قرأ بعضا منها، وأخبر كلارك موكله أنه فى ضوء هذه المستجدات أصبح من حق محامى خصمه كارسون أن يعيد استجوابه. ومن ثم نصحه أن يتذرع بالصبر ويمهد نفسه للمزيد من الاستجواب. الأمر الذى أصاب موكله بالذعر، فقد خشى وايلد أن يستجوبه كارسون من جديد بشأن حادثة أخفاها فى طى الكتمان مفادها أن فندق ألبمارل قام ذات مرة بطرده فى منتصف الليل لأنه ضبطه برفقة غلام . وبدأت الشكوك تساور محاميه السير كلارك فى أن اتهامات كوينزبرى قد يكون لها أساس من الصحة. وأحس هذا المحامى بالخطر الداهم يتهدد موكله إذا اتسعت رقعة القضية. ولهذا رأى أن الحكمة ومصلحة موكله تقتضيان لم الموضوع وعدم توسيع نطاقه. فاقترح على موكله إنهاء الإدعاء وغلق ملف القضية واستبعاد شهادة اللورد ألفريد دوجلاس ضد

والده الماركيز كوينزبرى، بهدف إظهار شذوذه وقسوته فى معاملة عائلته، واضطر وايلد صاغرا إلى قبول نصيحة محاميه والتنازل عن القضية.

وتقدم كارسون مرة أخرى للدفاع عن الماركيز كوينزبرى فقال إن الماركيز على حق فى سعيه إلى حماية ابنه من أثر أوسكار وايلد السيء ومخالطته الأشرار دون اعتبار للفارق الكبير فى السن والمكانة الاجتماعية. وركز كارسون هجومه على ألفريد تيلور بوصفه أس البلاء، وبمجرد أن اقترح كارسون استدعاء هؤلاء الشبان لاستجوابهم تأكد السير كلارك من دقة وحرج موقف موكله. تناول كارسون علاقة وايلد بوود الذى أراد ابتزازه بسبب مجموعة الخطابات التى أرسلها إلى اللورد دوجلاس وشرح لهفة مؤلفنا على استرداد هذه الخطابات بأى ثمن وكيف أنه دفع إلى وود ستة عشر جنيها استرلينيا كى يغادر البلاد ويرحل نهائيا إلى نيويورك . وإدراكا منهم لخطورة موقف موكلهم عقد محامو وايلد جلسة استشارية لتحديد ما ينبغى اتخاذه من خطوات، وبات من الواضح أن المحكمة سوف تبرىء ساحة الماركيز كوينزبرى وأن النيابة العامة قد ترفع قضية ضد وايلد لحماية المجتمع منه

فنصحوه بسحب دعواه وقبول اتهام خصمه له بأنه يتصرف كما يتصرف اللواطيون حتى تنتهى المسألة عند هذا الحد، فلا يصدر النائب العام أمرا بالقبض عليه أثناء المحاكمة بتهمة الممارسة الفعلية للواط، يقول السير إدوارد كلارك فى هذا الشأن فى مذكراته غير المنشورة: «عندما انفردت بالمستر وايلد أبلغته أنه يكاد يكون من المستحيل في ضوء كافة الظروف إقناع المحلفين بإدانة أب يسعى إلى إنقاذ ابنه مما يعتقد أنها صحبة شريرة، وقلت له إننى بعد أن فكرت مليا فى الموضوع أنصحه حفاظا على مصالحه أن يسمح لى بإصدار هذا البيان أمام المحكمة وأن أقوم بسحب الدعوى وأوضحت له أن القضية إذا نظرت حتى النهاية ووجد المحلفون أن اتهامات الماركيز لها ما يبررها فسوف يقوم القاضى بكل تأكيد بالأمر بالقبض عليه. واستمع وايلد بهدوء وقتامة وشكرنى على نصيحتى وقال إنه على استعداد للتصرف بمقتضاها. وقلت له أنه ليست هناك أية ضرورة لمثوله أمام المحكمة أثناء إلقاء هذا البيان. وكنت آمل وأتوقع منه أن ينتهز هذه الفرصة السانحة للهرب خارج البلاد. وأعتقد أنه كان من السهل عليه أن يفعل هذا.

وكما توقع السير كلارك استمر كارسون في هجومه على وايلد وهدد باستدعاء أستاذ التدليك والخدم العاملين بفندق سافوى فى لندن كى يدلوا بشهادتهم للتدليل على طبيعة علاقة المستر وايلد بزواره في الفندق. وهنا جذب السير كلارك زميله كارسون من روب المحاماة ودار بينهما حديث هامس عرض عليه كلارك أن يسحب الدعوى. فوافق كارسون على ذلك. ثم قام السير كلارك فعلا بسحب الدعوى وأقر بأن موكله يعترف بأن الماركيز كوينزبرى غير مذنب عندما قال عنه إنه يبدو وكأنه واحد من اللواطيين. فحكم القاضى ببراءة الماركيز كما حكم له بمصاريف القضية.

وبعد ذلك تسلل وايلد خارج مبنى المحكمة من باب جانبى حتى لا يتعرض لتهجم الجمهور عليه واستهزائهم به. وأمام المحكمة اجتمعت بعض العاهرات اللاتى رقصن ابتهاجا بهذا الحكم لأنهن رأين فى ممارسات وايلد الجنسية الشاذة منافسة تضر بمصالحهن: وبمجرد خروج الماركيز من قاعة المحكمة بعث إلى غريمه بالرسالة المستفزة التالية : «إذا سمحت لك الدولة بمغادرة أراضيها فإن هذا من مصلحتها. ولكنك إذا اصطحبت ابنى معك فسوف أتبعك أينما تذهب وأضربك بالرصاص».

المحاكمة الثانية

غادر أوسكار وايلد مبنى محكمة الأولد بايلى نحو ظهيرة يوم ٥ إبريل ١٨٩٥ يرافقه صديقاه اللورد ألفريد دوجلاس وروبرت روس وتوجه ثلاثتهم إلى فندق قريب أرسل منه وايلد إلى محرر جريدة الايفنج نيوز الخطاب التالى:

«سيدى ،

كان يستحيل على أن أثبت قضيتى دون أن يشهد اللورد ألفريد دوجلاس ضد والده رغم أن اللورد دوجلاس كان شديد اللهفة على الإدلاء بهذه الشهادة. غير أنى منعته من أن يفعل ذلك. وحتى أجنبه مثل هذا الوضع الأليم صممت على الإنسحاب من القضية وأن أضع على كاهلى كل العار والشنار الناجمين عن مقاضاة اللورد كوينزبرى».

وفى الوقت نفسه أرسل وايلد رسالة عاجلة إلى زوجته يطلب فيها الإمتناع عن مقابلة أى أحد غير الأصدقاء. ثم توجه الأصدقاء الثلاثة إلى مكتب المحامين لويس ولويس حيث قابلوا

السير جورج لويس الذى التمس وايلد لديه النصح والمشورة فرد عليه هذا المحامى قائلا: «ما الفائدة من مجيئك إلىّ الآن؟ ليس بوسعى أن أفعل أى شىء، ولو أنك وضعت عقلك فى رأسك وأحضرت لى بطاقة كوينزبرى قبل أن تفعل أى شىء لقمت بتمزيقها وإلقائها فى النار ولما جعلت من نفسك مسخة ومثارا للإستهزاء».

لم يضيع الماركيز كوينزبرى أى وقت، فقبل أن يتوجه وايلد لإستشارة جورج لويس . كان هذا الرجل قد أرسل نسخة من أوراق القضية لمدير النيابة، كما سلم باليد نسخة منها إلى مستر أسكويت وزير الداخلية والمستشارين القانونيين السير روبرت ريد وسير فرانك لوكوود، وأصدر وزير الداخلية تعليماته بالقبض على وايلد أينما وجد، وفى غضون ساعات أصدر القاضى فى محكمة بوستريت أمرا بالقبض عليه غير أنه تعمد إرجاء إصدار هذا الأمر لأكثر من ساعة ونصف ساعة يحدوه الأمل أن ينتهز وايلد هذه الفرصة السانحة للحاق بآخر قطار يقله إلى أوربا، ولم يصدر القاضى الأمر بالقبض عليه إلا بعد فوات موعد تحرك القطار.

كان وايلد وقتئذ نزيلا فى فندق كادوجان يحيط به نفر من أصدقائه . وعبثا نصحه صديقه روبرت روس بالسفر فورا إلى

ميناء دوفر ومنه إلى فرنسا. حتى زوجته تمنت لو أنه غادر البلاد، ومن المؤسف أنه ظل مترددا وعاجزا عن اتخاذ قرار المغادرة حتى صدر بالفعل أمر القبض عليه. حينئذ أخذ يولول ويندب حظه العاثر. ويعض بنان الندم على فوات أوان الهرب. وفي تلك الأثناء زاره محرر بجريدة الستار ليبلغه أنه قرأ بنفسه الأمر الصادر بإلقاء القبض عليه على أشرطة التيكرز. وامتقع وجه وايلد وأصفر وأخضر عند سماعه هذا النبأ. ولم يجد مؤلفنا ما يفعله غير انتظار وقوع البلاء على رأسه ساعيا إلى التخفيف من وطأتها عليه عن طريق احتساء الخمر. كان ذلك نحو الخامسة من مساء يوم ٥ ابريل ١٨٩٥.

وفي حوالى الساعة السادسة والنصف حضر إلى الفندق ضابطان من سكوتلانديارد ليطرقا باب الغرفة ويسألا عن وايلد الذى كان يجلس بجوار المدفأة على كرسي فوتيل وهو يدخن تبغ. وعرفهما وايلد بنفسه. وقال أحدهما وهو المفتش ريتشارد: «نحن ضابطا شرطة ومعنا أمر بالقبض عليك بتهمة ارتكاب أعمال مخلة بالآداب. وإني أطلب منك أن تصحبني إلى قسم البوليس». وسأله وايلد إذا كان بالإمكان الإفراج عنه بكفالة، فرد عليه بقوله إن هذه مسألة يقررها القاضي. واستأذن وايلد من ضابط البوليس

أن يترك رسالة إلى صديقه اللورد دوجلاس يطلب منه أن يتوجه إلى مديرى مسرح سانت جيمس ومسرح هاى ماركت اللذين كانا يعرضان مسرحياته للحضور إلى قسم البوليس التابع لبوستريت كي يدفعا الكفالة المطلوبة للإفراج عنه، وكذلك طلب وايلد من صديقه إرسال برقية إلى محاميه للحضور.

واقتاد الضابطان أوسكار وايلد إلى مبنى سكوتلانديارد حيث وجهت إليه تهمتا التآمر وارتكاب أفعال مخلة بالآداب مع عدد من الذكور، وتساءل وايلد إذا كان قرار الاتهام يذكر تواريخ بعينها فقال له مفتش البوليس إن التاريخ المذكور فى أمر القبض عليه هو ٢٠ مارس ١٨٩٣ إلى جانب عدة تواريخ متباينة. وبعد خروجه من سكوتلانديارد اقتيد المتهم إلى قسم شرطة بوستريت. وطبقا للتعليمات المعمول بها تم تفتيش المقبوض عليه فتبين أنه يحمل مائتى جنيه استرلينى وبعض الأوراق وخطابا كان قد تلقاه من صديقه تيلور يدل على أن هذا الرجل كان يدرك أن المفتش ليتل تشايلد يراقبه وأن حجرته تعرضت للتفتيش أثناء غيابه عنها. أما الأوراق فكانت مجموعة فواتير الأشياء التى اشتراها المتهم من بعض المحلات دون أن يسدد ثمنها مثل حافظات السجائر وبعض الحلي، وأودع وايلد فى زنزانة أوصد بابها عليه طيلة الليل.

وعاد اللورد دوجلاس (الذى كان قد ترك وايلد فى مشوار) إلى الفندق ليكتشف ماحدث لصديقه فى غيابه. وهناك وجد رسالة وايلد فى انتظاره. وتوجه اللورد دوجلاس بالفعل إلى مديرى مسرحى سانت جيمس وهاى ماركت، وطلب منهما الحضور لدفع كفالة لإخراج المؤلف المسرحى من الحبس ولكنهما رفضا، وسرعان ما انتشر خبر القبض على وايلد فى لندن انتشار النار فى الهشيم فانتهزت كثير من الصحف هذه الفرصة للإنقضاض عليه والفتك به والتشهير بمذهبه الجمالى فى الأدب. وكذلك التشهير بقوله إنه لا يوجد فى الفن شىء اسمه الأخلاق. فعلى سبيل المثال كتب دابليو هنلى فى الناشيونال أوبزرفر أن كل الانجليز الأصحاء العقل يدينون بالفضل للماركيز كوينزبرى لأنه حطم الداعر وايلد رائد المنحلين وأظهره على حقيقته وفضح مفاهيمه ومفاهيم مدرسته الأدبية القميئة وأن الوقت قد آن كى تختفى هذه المدرسة من الوجود.

وعند تقديم أوسكار وايلد للمحاكمة للمرة الثانية يوم ١٩ إبريل ١٨٩٥ حاول محاميه ترافيرس همفريز أن يدفع كفالة للإفراج عنه. غير أن القاضى رفض الإفراج عنه كما رفض الإفراج عن زميله ألفريد تيلور الذى تم القبض عليه أيضا. وكانت

حجة القاضى فى ذلك أن التهمة الموجهة ضد وايلد جد خطيرة وأن الدلائل التى تشير إليها صحيحة، ولا غرو فقد تقدم ثلاثة من حثالة المجتمع الانجليزى هم ألفريد وود وتشارلس باركر وفريد أتكنز الذين سبق الإشارة إليهم أثناء المحاكمة الأولى بشهادة مفادها أن وايلد تعرف بهم بهدف ممارسة الرذيلة وأنه أتى معهم بأفعال مخلة بالأدب فى أماكن وأوقات مختلفة وقد قام كل من أستاذ التدليك وخادمة فندق سافوى بتأكيد ذلك. والجدير بالذكر أن شهادة أتكنز تركت أبلغ الضرر. فقد ذكر أنه أثناء إقامته مع وايلد فى باريس اكتشف عند رجوعه من المسرح إلى الفندق أن شابا اسمه موريس شواب يقتسم الفراش مع وايلد. ومن ناحيته عرض السير كلارك استعداده واستعداد مساعديه ويلى ماثيوز وترافيرس همفريز للاستمرار فى الدفاع عن موكله السابق مجانا: وقبل وايلد هذا العرض معبرا عن شكره وامتنانه. وكانت شهامة السير كلارك سببا فى زراية زملائه المحامين به فقد ساءهم أن يتطوع للدفاع عن رجل سيء السمعة. وسرت شائعات قوية بقرب إلقاء القبض على اللورد دوجلاس غير أن الأدلة ضده لم تكن تكفى لتقديمه إلى المحاكمة. وعبثا حاول أصدقاء اللورد دوجلاس وعائلته نصحه بمغادرة البلاد فقد أصر فى عناد مجنون على البقاء

فى انجلترا لحين انتهاء محاكمة صديقه وايلد. غير أن السير إدوارد كلارك طلب إليه الابتعاد عن موكله ومغادرة البلاد حتى لا يزداد وضعه سوءا فاستجاب إلى هذا الطلب وشد الرحال إلى فرنسا. الأمر الذى كان له وقع الصاعقة على وايلد فقد كان يجد شيئا من السلوى والعزاء فى زيارات اللورد دوجلاس المتكررة له فى السجن. وكثيرا ما كانت دموع وايلد تنهمر على خديه من فرط الأسى. وعندما علم بأمر سفر صديقه إلى الخارج اسودت الدنيا فى وجهه وضعفت قدرته على تحمل الفاجعة وخاصة لأن الصحافة البريطانية انقضت عليه كوحش كاسر ينهش سمعته. وتضافرت الطبقة المتوسطة التى تضمر لفنه أشد العداء على الفتك به والنيل من قيمة أدبه وتنافس المنافقون من دعاة البيوريتانية الأخلاقية فى تسديد الطعنات إليه. وإمعانا فى الزراية به نشرت الصحف كتيبات تتضمن أكثر جوانب المحاكمة إثارة تبيعها فى شوارع لندن ونواصيها.

وحلت بوايلد مصيبة أفدح عندما انكمش دخله بشكل واضح بعد أن امتنع الناشرون عن نشر أعماله وقام مسرح الهاى ماركت بسحب مسرحية «زوج مثالى» من العرض كما عجل مسرح سانت جيمس بإنهاء عروض مسرحيته «أهمية أن يكون المرء

جادا».. حتى الممثلة المعروفة سارة برنارد التى مثلت دور سالومى فى مسرحيته المعروفة بهذا الاسم رفضت أن تعطيه مبلغا من المال كمقدم لحقوقه عن أدائها لهذه المسرحية. وتكاثرت عليه الديون فاجتمع الدائنون لبيع منزله ومحتوياته فى مزاد عام بأزهد الأسعار وانتهز بعض السفلة هذه الفرصة فاستولوا على بعض مخطوطات كتبه الأصلية واحتفظوا بها لأنفسهم. وعبثا حاول محامو وايلد تأجيل القضية حتى يتمكنوا من دراستها دراسة وافية وحتى تهدأ حدة عداء الناس له. فقد أصر القاضى على أنه ليس هناك ما يبرر التأجيل. فقرر الدفاع عن وايلد أن يقاتل حتى النهاية لإثبات براءة موكله.

وفى يوم ٢٦ ابريل عام ١٨٩٥ على وجه التحديد ظهر أوسكار وايلد فى قفص الاتهام فى محكمة الأولد بايلى أمام القاضى السير تشارلس آرثر ، ومثل الإدعاء فى تلك القضية المستر آرثر جيل وقام بالدفاع عن وايلد نفس المحامين الثلاثة الذين سبق لهم الدفاع عنه فى المحاكمة الأولى (وهم كما أسلفنا السير إدوارد كلارك وويلى ماثيوز وترافيرس همفريز). وتولى ج. ب. جرين الدفاع عن تيلور . ووجه الإدعاء خمسة وعشرين اتهاما إلى كل من أوسكار وايلد وألفريد تيلور فى عريضة اتهام واحدة

جمعت بينهما. ومن بينها ارتكاب هذين الرجلين أفعالا منافية للأخلاق، فضلا عن التآمر لنشر الرذيلة والانحلال، الأمر الذى يشكل انتهاكا للقانون الجنائى المعدل لعام ١٨٨٥. وتناولت عريضة الاتهام أسماء الشبان والغلمان المنحرفين الذين اشتركوا مع المتهمين فى الاتيان بأفعال مخلة بالآداب. وهم تشارلس باركر وأخوه وليم باركر وفريدريك (فريد) أتكنز وسيدنى مافور وألفريد وود وإدوارد شيلى. وإلى جانب اتهام تيلور بأفعال منافية للأخلاق وجهت عريضة الاتهام إليه تهمة القوادة وتسهيل حصول وايلد على الغلمان . وأنكر كل من وايلد وتيلور التهم الموجهة ضدهما. ويبدا من الواضح أن هيئة القضاء والمحلفين أظهرت تحيزا ضد المتهمين منذ البداية. فقد كان كافيا لإثارة اشمئزازهم وصف الإدعاء لمسكن تيلور الواقع فى شارع ليتل كوليدج بلندن بستائره السميكة المسدولة وشموعه المشتعلة طول الليل والنهار حتى لا يعرف الناظر حقيقة مايدور بداخلها. فضلا عن عبق العطور النفاذة المثيرة التى ملأت أرجاء البيت، وذكر الإدعاء أن تيلور كان على صلة وثيقة بعدد من الشبان الذين يبيعون أجسادهم لذكور آخرين مقابل مبالغ من المال. وأضاف الإدعاء أن تيلور لم يمارس اللواط مع هؤلاء الشبان فحسب بل كان حلقة الاتصال بينهم وبين

بعض الشواذ جنسيا من الأثرياء والموسرين. وضرب الإدعاء المثل بالأخوين تشارلس ووليم باركر اللذين مارس تيلور معهما اللواط قبل تقديمهما إلى أوسكار وايلد بهدف الحصول على المال الوفير. وعرض الإدعاء فيما عرض لعلاقة وايلد بالغلام مافور وكيف أن وايلد كان يسمح له بأن يناديه باسمه الأول رغم أنه فى مثل عمر والده. واستمع وايلد وهو واقف بجوار تيلور فى قفص الاتهام إلى هذه الاتهامات فبدا شاحبا ممتقع الوجه أشعث الشعر تظهر عليه أمارات الإعياء.

كان تشارلس باركر أول من أدلى بشهادته فقال إنه يبلغ من العمر واحدا وعشرين عاما وأنه تعرف على تيلور عندما كان عاطلا فى بداية ١٨٩٣ فى بار مطعم سانت جيمس وكان معه أخوه وليم باركر، حيث دعاهما تيلور لاحتساء قدحين من الخمر. ودار حديث تيلور حول المومسات فى ميدان بيكاديللى وكيف أن الحمقى من الرجال وهم كثيرون يضيعون أموالهم عليهن وعلى طلائهن الزائف فى حين أن قلة من الرجال الحصفاء يسلكون سبيلا آخر. وأضاف أنه يسهل على الأخوين العاطلين الحصول

على المال لو أنهما سلكا السبيل الآخر. وفهم الأخوان مرمى حديثه وأعطياه عنوانهما قبل الإنصراف. وفيما بعد قام تيلور بترتيب لقاء بينهما وبين وايلد فى حجرة منفصلة بأحد المطاعم حيث أعدت مائدة طعام لأربعة أشخاص هم وايلد وتيلور والأخوان باركر ليقول له: «أريد هذا الغلام لى». ودعاه ليذهب معه إلى فندق سافوى. وهناك قدم إليه أديبنا مزيدا من الخمر ثم طلب منه اصطحابه إلى غرفة النوم حيث مارس اللواط معه وبعدئذ نفحه جنيهين وطلب منه أن يعود إليه فى نفس الفندق بعد أسبوع. وبعد أن فعل معه نفس الشيء أعطاه هذه المرة ثلاثة جنيهات . واتضح من شهادة تشارلس أن وايلد أهداه حافظة سجائر فضية وخاتما من الذهب. وأضاف الشاهد أن وايلد دعاه إلى منزله فى تاميت ستريت ليشاركه فراشه غير أنه غادر البيت فى وقت باكر من صبيحة اليوم التالى قبل أن يستيقظ أهل البيت، واعترف الغلام أيضا أن وايلد اصطحبه إلى فندق ألبمارل حيث فعل معه نفس الشيء . وذكر الشاهد أنه زار تيلور فى منزله حيث رآه يرتدى ملابس النساء وحيث قابل عددا من أصدقائه أمثال أتكنز وويد

وسكارف. وعندما ضيق السير كلارك محامي وايلد الخناق عليه اعترف تشارلس بأن الشرطة ضبطته وهو يمارس الدعارة مع الذكور وأنه سبق أن ابتز ثلاثين جنيها استرلينيا من أحد الأثرياء نظير السماح له بممارسة اللواط معه. وحتى يشكك السير كلارك في صلاحية شهادة هذا الرجل الفاسق نراه ينتزع من شفتيه اعترافا آخر بأنه لص سرق ملابس آخر مخدوم له. ولكن تشارلس حاول الدفاع عن نفسه بقوله إنه أعاد الملابس المسروقة إلى صاحبها، وسعى كلارك أيضا إلى إثبات أن زيارة تشارلس لموكله أمر لا غبار عليه ولا ينبغي أن تثير الأقاويل بدليل اعتراف هذا الشاهد بأن هذه الزيارات كانت تتم جهارا أمام مسمع ومرأى العاملين في فندق سافوى وغيره من الفنادق.

وتلت شهادة تشارلس باركر شهادة أخيه السايس وليم باركر الذى قال إن مضيفهم الذى دعاهم للاحتفال بعيد ميلاد تيلور كان يطعم أخاه بالشوكة والملعقة اللتين يستخدمهما فى إطعام نفسه فضلا عن أن وايلد كان ينقل خمرة الشيرى من فمه ليضعها فى فم تشارلس. وذكر وليام أنه انفرد بأخيه فى فندق

سافوى فانسحب مع تيلور الذى قال معلقا إن أخاه محظوظ لأن أوسكار كريم ومستعد أن يصرف كل ماله على الغلام الذى يهواه.

ثم جاءت شهادة أربعة نساء ثلاثة منهن من أصحاب البيوت اللائى قمن بتأجير مساكن لكل من تيلور وتشارلس باركر فى أوقات مختلفة. قالت إحداهن وهى المسز إلين جرانت أن تيلور استأجر منها أربع غرف فى عقارها الواقع فى ١٣ شارع ليتل كوليدج نظير ثلاثة جنيهات وأنه وضع الستائر الكثيفة على نوافذ منزله حتى يمنع ضوء النهار تماما من اختراقها. وأكدت ما سبق لمحامى كوينزبرى أن ذكره وهو أن المنزل كان يفوح بعبق البخور والعطور وأن تيلور كان يحتفظ فيه بباروكة وفساتين وجوارب نسائية كما أنه كان يرصع قميص نومه بدبوس بروش مصنوع من الذهب. وأضافت أن شرطيا جاءها فى أغسطس ١٨٩٣ ليطلب منها إلقاء نظرة على البيت من الداخل. وقررت الشاهدة أنها سمعت اسم أوسكار يتردد على لسان تيلور ولكن أنظارها لم تقع عليه قط. وشهدت صاحبة بيت أخرى اسمها المسز لوسى رمز بى أنها قامت بتأجير حجرة نوم لتشارلس باركر فى منطقة تشلسى عام ١٨٩٣ وأنها طلبت منه إخلاء الغرفة بعد مضى أسبوعين على شغله لها بسبب شكوى ساكنة أخرى هى المسز مارجرى

بانكروفت التى حضرت أيضا للمحكمة للإدلاء بشهادتها. قالت هذه السيدة فى شهادتها أنها رأت وايلد التى كانت تعرف وجهه يحضر للبيت فى وقت متأخر جدا من الليل ليغادره بصحبة شاب تعتقد أنه تشارلس باركر وأنهما استقلا نفس العربة التى جاء وايلد فيها. الأمر الذى أثار شكوكها.

وذكرت سيدة ثالثة هى المسز صوفيا جراى أنها أجرت غرفتين لتيلور فى الفترة من أغسطس إلى ديسمبر ١٨٩٣ وأنها رأت كلا من وايلد وباركر هناك. ولم تستغرق زيارة وايلد لتيلور سوى بضع دقائق. فقد لاحظت أن زوارا آخرين ينفردون بتيلور الذى زعم أنهم يلتجئون إليه للبحث عن وظائف . وأضافت مسز جراى أن تيلور ترك مسكنه وفيه صندوق من الأوراق قامت بتسليمه إلى محامى الماركيز كوينزبرى.

وجاء دور المخبر السرى، وهو المفتش فردريك كيرلى، ليدلى بشهادته فقال إنه فحص الصندوق ليجد فيه الورقة التى كان تشارلس باركر قد كتب عليها عنوانه الذى أعطاه لوايلد.

ثم نودى على الشقى المبتز ألفريد وود الذى قال إنه كان يعمل كاتبا قبل أن يفقد وظيفته فى يناير ١٨٩٣ وهو الشهر الذى

قابل فيه تيلور لأول مرة، واعترف وود أنه أمضى ثلاثة أسابيع مع تيلور وينام فى فراش واحد فى منزله، وبعد مضى ما يقرب من شهر من تعرفه بتيلور تعرف هذا الشقى بأوسكار وايلد عن طريق اللورد ألفريد دوجلاس الذى أرسل إليه برقية تبلغه بالتوجه إلى مقهى رويال فى موعد محدد لمقابلة وايلد. وبعد أن تعرف عليه وايلد وقدم إليه نفسه دعاه إلى شرب الخمر وتناول العشاء معه فى حجرة منفردة فى أحد المطاعم. وأضاف وود أن مضيفه أثناء العشاء كان يمد يده فى بنطلونه ويضطره إلى أن يفعل نفس الشىء معه ، ويستطرد وود قائلا إنه لم يسمح لمضيفه بالإتيان بالفاحشة إلا بعد أن ابتلع كمية من الخمر. وقبل أن يصطحبه وايلد ليفعل به ما يشتهى أعطاه حوالى ثلاثة جنيهات ليشترى بها بعض الأشياء فضلا عن أنه فى مناسبة أخرى اشترى له ستة قمصان وبعض الياقات والمناديل وساعة من الفضة وسلسلة. وحول خطابات وايلد إلى اللورد ألفريد دوجلاس قال وود إنه لا يذكر عددها كما أنه لا يذكر الطريقة التى أرجعها بها إلى وايلد الذى أعطاه ثلاثين جنيها، ولأن هذا المبلغ لم يكن كافيا لسفره إلى أمريكا فقد أضاف إليه فيما بعد خمسة وعشرين جنيها أوصلها إليه عن طريق مرسال. وهكذا تمكن وود من السفر إلى

أمريكا ولكنه عاد منها بعد فترة وجيزة، وقام السير إدوارد كلارك باستجوابه وسؤاله عن واقعة استيلائه على ثلاثمائة أو أربعمائة جنيه من أحد الأثرياء فأجاب بأن زميله آلن هو الذى استولى على هذا المبلغ وأنه أعطاه مائة وخمسة وسبعين جنيها وأعطى تشارلس باركر ثلاثين جنيها ثم احتفظ بالباقى لنفسه. وذكر وود فى شهادته بأنه استولى على خطابات وايلد إلى اللورد دوجلاس فى الفترة بين يناير ومارس ١٨٩٣ أثناء وجوده فى أكسفورد. وأضاف وود أنه لا يذكر طريقة إرجاعه الخطابات إلى وايلد ولكنه يذكر أن أحد هذه الخطابات كان ناقصا وأن ألين هو الذى احتفظ به بعد أن أخذه من جيب زميله وود. ثم جاء السفرجى توماس برايس الذى يعمل فى فندق سانت جيمس ليشهد أن وايلد كان نزيلا فى الفندق فى الفترة من أكتوبر ١٨٩٣ حتى ابريل ١٨٩٤ حيث استقبل نفرا من حثالة القوم أمثال تشارلس باركر وأتكنز وسكارف وشاب آخر يدعى بارفورد ورد اسمه فى التحقيق لأول مرة.

ثم استدعى فريد أتكنز للإدلاء بشهادته فقال إنه يعمل كممثل كوميدى وكاتب فى مكتب للمراهنة وأنه تعرف على أوسكار وايلد عن طريق تيلور. وذكر أتكنز أن وايلد دعاه للسفر والإقامة

معه بعض الوقت فى باريس، ووصف أتكنز أول عشاء تناوله معه قبل رحيلهما إلى باريس فقال إن مضيفه طوقه بذراعه وعبر عن غرامه به. وأضاف أنه طبع قبلة على وجنتى السفرجى الذى يقوم بخدمتهما فى المطعم. واستطرد أتكنز أنه ذهب فى إحدى الأمسيات لمشاهدة عروض كاباريه الطاحونة الحمراء المعروف فى باريس. ولما عاد إلى الفندق فى ساعة متأخرة اكتشف أن وايلد يتقاسم الفراش مع شاب اسمه سكواب. وهنا تدخل محامى وايلد وتقدم لاستجواب أتكنز بهدف إثبات أنه رجل مبتز وسيء السمعة فسأله عن واقعة اشتراكه مع زميل له فى ابتزاز مائتى جنيه من رجل ثرى من مدينة برمنجهام، ولكن أتكنز أنكر هذه الواقعة إنكارا تاما. وعندئذ أسر المحامى بتعليماته إلى واحد من مساعديه الذى خرج على التو ليأتى بالدليل على كذب الشاهد.

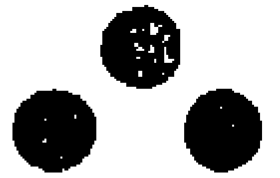
وفى تلك الأثناء استمعت المحكمة إلى شهادة مسز مارى أبلجيت مديرة البيت الذى عاش فيه أتكنز ما يقرب من شهر. قالت هذه المرأة إن وايلد درج على زيارة أتكنز مرتين فى أسبوع واحد وأن خادمة حجرته شكت لها من حالة ملاءات السرير بعد كل زيارة له تاركا عليها بقعا غريبة تلطخها. وتلاها الشاب سيدنى بافور الذى شهد بأن وايلد أعطاه حافظة سجائر فضية كهدية ،

ولكنه أنكر إنكارا تاما أن شيئا منافيا للأخلاق حدث بينهما. والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن شهادة سيدنى مافور هذه تعارضت مع شهادته السابقة فى قسم البوليس، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن اللورد ألفريد دوجلاس ضغط عليه حتى يغير أقواله أمام المحكمة، ثم استدعى إدوارد شيلى للشهادة فأنكر وجود أية علاقة آثمة بينه وبين مؤلفنا ، وأضاف أنه قرر أن يقطع كل صلة تربطه به عندما أدرك سوء سمعته، وذكر شيلى أنه ترك مكتب الناشرين الذى يعمل فيه بسبب معايرة زملائه له وغمزهم ولمزهم عليه من جراء علاقته المشبوهة بوايلد، واعترف شيلى فى استجوابه أنه اقتيد ذات يوم إلى قسم البوليس بسبب اعتدائه على والده وأنه التجأ إلى وايلد كى يدفع له كفالة الإفراج المطلوبة.

ثم طلب السير إدوارد كلارك استدعاء أتكنز مرة أخرى للشهادة، وهنا أبرز هذا المحامى محضر البوليس الذى تحرر للشاهد بسبب ابتزازه المال من أحد الأثرياء عن طريق إتباع أساليب التهديد والبلطجة، وبسبب أقواله المتضاربة والكاذبة وجهت المحكمة إليه تهمة الشهادة الزور، وبعد ذلك أدلى صاحب فندق ألبمارل بشهادته ، فقال إنه لاحظ أن عددا كبيرا من الشبان والغلمان يزورون وايلد فى الفندق ويبيتون معه ولهذا طلب منه أن

يدفع حسابه ويغادر الفندق ومما زاد الطين بلة أن المحكمة استمعت إلى أنتونيو ميج أستاذ التدليك بالفندق فشهد بأنه دخل يوما ما على وايلد فى حجرته لعمل التدليك المعتاد لزبونه وايلد فوجد شابا راقدا فى سريره فى حين كان وايلد نفسه يتأهب لارتداء ملابسه. وأراد وايلد أن يصرف أستاذ التدليك فاعتذر له بأنه مشغول للغاية وأن صحته تحسنت فلم يعد بحاجة إلى تدليك. ثم جاءت خادمة الغرفة لتؤكد ما قاله أستاذ التدليك ، فقد قالت إن ملاءات السرير كانت تلطخها بقع غير مألوفة. وهذا ما أيدته صاحبة الفندق فى شهادتها.

وهكذا بات من الواضح أن الخطر يحيق بأوسكار وايلد وأن محاميه السير إدوارد كلارك ـ رغم براعته ـ يقاتل من أجل قضية خاسرة.



استغرقت هذه الإستجوابات ثلاثة أيام متتالية. وأخيرا تقدم ممثل الإدعاء (أو النيابة العامة) ويدعى تشارلس جيل لاستجواب أوسكار وايلد بشأن إنتاجه الأدبى. وعلق السير إدوارد كلارك على ذلك بقوله إنه ليس من العدل أن يحكم المرء على أى إنسان من خلال مؤلفاته. وأكد كلارك أن أعداء وايلد درجوا دون وجه حق

على قراءة معانى خبيثة فى طيات مؤلفاته وبالذات رواية «صورة دوريان جراى». وعاب كلارك على أن الإدعاء لم يكتف باستجوابه بشأن مؤلفاته فحسب بل أيضا بشأن مؤلفات غيره مثل قصة «الكاهن وتابعه الغلام» إلى جانب الرواية الفرنسية التى تحمل عنوان «فى الاتجاه المعاكس». ويعتبر تعليق السير كلارك إشارة واضحة لاستجواب كارسون لموكله فى أثناء المحاكمة الأولى. وذهب كلارك أنه ليس أدل على براءة موكله من أنه لم يخش أن يثير هذه القضية أمام الرأى العام وأنه كان باستطاعته أن يهرب من انجلترا ولكنه آثر البقاء فيها ليواجه أية اتهامات يوجهها إليه شانئوه.

لم يمنع هذا ممثل الإدعاء من إعادة استجواب وايلد بشأن مؤلفاته كما سبق لكارسون أن فعل. قال وايلد أنه استأجر لبعض الوقت غرفا بفندق جيمس لأنه أراد أن يعيش فى جو هادىء يساعده على العمل والإنتاج الأدبى ويبعده عن صخب ولديه . بدأ تشارلس جيل يستجوبه بصدد «الحرباء» ومدى مساهمة اللورد ألفريد دوجلاس فى تحرير هذه المجلة. فضلا عن رأيه فيما نشره دوجلاس فيها من قصائد وأشعار وبالذات قصيدتيه «فى مدح العار» و«عشقان». وعن القصيدة الأولى قال إن الشاعر هنا كان

يمتدح التواضع وليس العار فى قصيدته. وعن القصيدة الثانية سأله تشارلس جيل ما يعنيه الشاعر بقوله: «العشق الذى لا يجسر أن يبوح باسمه» وهنا دب الحماس فى قلب وايلد الذى أجاب فى صوت مؤثر بليغ غلبه الشجن وتردد صداه فى قاعة المحكمة التى ران عليها الصمت العميق: «الحب الذى لا يجرؤ أن يذكر اسمه فى هذا القرن هو تلك المودة العظيمة التى تنشأ بين رجل متقدم فى العمر وشاب يصغره فى السن. مثل الحب الذى كان يصل داود بيوناثان ومثل الحب الذى جعله أفلاطون حجر الزاوية فى فلسفته ومثل الحب الذى نجده فى سوناتات ميكلا نجلو وشكسبير. إنه تلك المودة الروحية العميقة التى تجمع بين النقاوة والكـ ـ. وهو الحب الذى يلهم الأعمال الفنية العظيمة، ويسرى فى أرجائها مثل أعمال ميكلا نجلو وشكسبير ومثل هذين الخطابين الذين كتبتهما بصورتهما الراهنة». ثم انقضت فترة من الصمت البليغ استأنف بعدها وايلد كلامه قائلا: «إن هذا الحب يساء فهمه فى هذا القرن إلى الحد الذى يمكن وصفه بأنه «الحب الذى لا يجرؤ أن يبوح باسمه» والذى بسببه أجد نفسى هنا فى قفص الاتهام. إن هذا الحب جميل وبديع بل إنه أنبل صورة يمكن للمودة أن تتخذها. وليس هناك شىء غير طبيعى فى هذا الحب، فهو حب

فكرى كالذى نجده بصورة متكررة بين رجل متقدم فى العمر وشاب يصغره سنا. ففى حين يملك الرجل المتقدم فى العمر الفكر، يملك الشاب كل الفرحة والأمل ومجد الحياة، ولا يفهم العالم حقيقة هذا الحب بل يسخر منه، ويعذب صاحبه أحيانا».

كانت هذه الكلمات بليغة لدرجة أن الحاضرين استقبلوها بالتصفيق والتهليل. وعن شهادة خدم الفنادق ضده قال وايلد إنه غير مسئول عما يقوله الخدم عنه بعد مغادرته لهذه الفنادق بعدة سنوات. ثم وصف شهادة كل من شيلى وتشارلس باركر وأتكنز وويد بأنها كاذبة وعارية من الحقيقة، ولكن وايلد لم ينكر صلته بهم ودعوته لهم تناول الطعام معه كما أنه لم ينكر أنه قدم إليهم بعض الهدايا الصغيرة. وعندما سأله تشارلس جيل عن سر اهتمامه بهؤلاء الشباب أجاب بقوله إنه يحب الشباب ويجد فيه جاذبية خاصة. وعندئذ قال له جيل: «أنت إذن تفضل الكلاب والقطط الصغيرة السن على الكلاب والقطط الكبيرة السن» رد عليه مؤلفنا ردا جعل الحاضرين يضجون بالضحك إذا قال: «أظن ذلك. فأنا على سبيل المثال أستمتع بصحبة محام شاب لم ينبت شعر ذقنه بنفس الدرجة التى أستمتع بصحبة أكثر المستشارين القضائيين موهبة وعلما». وعن الفروق الاجتماعية الواضحة بينه وبين معارفه

قال إنها مسألة لا تهمه بالمرة فهو يجد في حديث هؤلاء الشباب ما ينشط ذهنه ويبدد سأمته ومله ، وعن معرفته بتيلور قال إنه كان يزور تيلور في بيته ولم يجد فيه ما يثير الشبهات. وانتقل وايلد في شهادته إلى الحديث عن موفار الذى أرسل إليه خطابا مهينا فقال إنه من الجائز أن والده حرضه ضده وطلب منه قطع علاقته به لأنه كان يظن أن مسلك ابنه غير القويم يرجع إلى أثر وايلد وصحبته فيه.

وأخيرا دار بين وايلد وجيل الحديث التالي. سأله جيل قائلا:

- هل قدمت هدايا جميلة إلى جميع هؤلاء الأشخاص؟

- أستميحك عذرا فأنا أختلف معك. إنى لم أعط حافظات السجائر كهدايا إلا لاثنين أو ثلاثة من هؤلاء الشبان فمثل هؤلاء الشبان يكثرون من تدخين السجائر. ثم أن فى شخصيتى ضعفا يتمثل فى تقديم حافظات السجائر إلى معارفى.

- هذه عادة مكلفة بعض الشيء إذا مارسها المرء دون تمييز أو تمحيص. أليس كذلك؟

- ولكنها أقل تبذيرا من إهداء حمالات الجوارب المرصعة بالجواهر للسيدات.

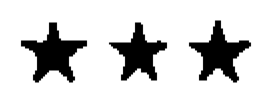
وكانت تلك إشارة واضحة إلى مسلك تشارلس جيل الذى كان معروفا عنه أنه زير نساء.

ثم جاء الدور على ألفريد تيلور لاستجوابه فأنكر الاتهامات الموجهة ضده كما أنكر أنه سبق طرده من المدرسة الخاصة بعد ضبطه متلبسا مع صبى صغير فى المراحيض. ولكنه لم ينكر استقباله لعدد من الشبان فى بيته الذى احتفظ فيه ببعض الملابس والجوارب والباروكات النسائية، وأنكر تيلور أنه كان يتكسب من تزويد الأثرياء بالشواذ من الغلمان لقاء مبالغ من المال. وعن الفستان الذى ضبطه البوليس فى منزله قال إنه رداء شرقى من القسطنطينية اشتراه من سيدة خصيصا لحضور حفل أقيم فى كوفنت جاردن لعرض الأزياء الخيالية الغريبة.

وتقدم السير إدوارد كلارك للدفاع عن موكله أوسكار وايلد فقال إن الإدعاء جنى عليه عندما استجوبه بشأن بعض الكتب والأشعار التى ألفها غيره، ونوه بأهمية وايلد الأدبية على المستوى العالمى. وأكد أنه ليس من العدالة فى شىء أن يأخذ المحلفون مأخذ الجد بشهادة حثالة الناس أمثال باركر وورد وأتكنز. فقد ثبت من شهادتهم أنهم لا يكذبون فحسب بل يمارسون أعمال

البلطجة والابتزاز أيضا. وذهب كلارك إلى أن هذه الطغمة استطاعت أن تخدع موكله بمظهرها الناعم البراق وحديثها المهذب. وتأثر وايلد تأثرا عميقا بدفاع كلارك عنه لدرجة أن دمعة فرت من عينه فأمسك بورقة وأرسلها إليه بعد أن سطر عليها بعض كلمات الشكر والامتنان.

وعقب ممثل الإدعاء تشارلس جيل على دفاع السير كلارك بقوله إن التجاء وايلد إلى القضاء ليس دليلا على براءته كما يذهب محاميه، فلا أحد بإمكانه أن يعرف ما كان يدور بخلده عندما فعل ذلك. وأغلب الظن أنه لم يكن يتصور أن الأمر سوف ينقلب ضده. وأضاف ممثل الإدعاء أن اعتراف الشهود من أمثال باركر وود وأتكنز على وايلد هو فى المقام الأول اعتراف على أنفسهم. وليس من المعقول أن يقبل أى إنسان أن يدمغ نفسه أو يلطخ سمعتها إلا إذا كان كل ما يقول فى شهادته صحيحا.



استغرقت إجراءات المحاكمة الثانية أربعة أيام .. وفى اليوم الخامس قام القاضى بتلخيص الموقف ووجه حديثه إلى هيئة المحلفين قائلا إنه يتعين عليهم مراعاة الحيدة عند النظر فى هذا الموضوع بسبب خوض الصحافة الدائم فيه. ولهذا -التمس من

هيئة المحلفين عدم التأثر بهجوم الصحافة على وايلد وانتقاصها من قدره. وذهب القاضى إلى رأى قانونى مفاده أنه لا يمكن الاعتماد على شهادة الشركاء فى أية جريمة ضد أى شريك لهم فيها، لأن هذا من شأنه أن يفتح الباب أمام السفلة والأشرار للانقضاض على الشرفاء والأبرياء وتسليط السيوف على رقاب العباد. وبناء عليه ذهب القاضى إلى براءة كل من المتهمين وايلد وتيلور ونصح القاضى بعدم الحكم على سلوك وايلد من واقع روايته «صورة دوريان جراى». يقول القاضى فى هذا الشأن إن الكاتب الخلاق يرسم فى روايته صورة للشرير المنفر والقبيح دون أن يعنى ذلك أنه يشاركه فى الشر. وأضاف أن أحسن العقول الأدبية الخلاقة وأنبلها فى القرن الثامن عشر أنتجت أدبا يخدش الحياء. ولكن ذلك لا ينقص بحال من الأحوال من شأنهم أو يقلل من قدرهم. وذكر القاضى أنه على استعداد للتسليم لوايلد بأنه لا يوجد فى خطاباته إلى اللورد ألفريد دوجلاس مايدعو إلى الخجل وأن هذه الخطابات تنطوى على مشاعر طبيعية وسوية، ولم يعلق القاضى أهمية تذكر على شهادة مديرة الفندق جين كوتر وشهادة أستاذ التدليك فى فندق سافوى .

ورأى القاضى أن البقع التى لطخت ملاءات سرير وايلد وإن كانت تعزز التهمة الموجهة ضده ليست دليلا على إتيانه بأفعال مخلة بالآداب. وقال القاضى إن نفس الشىء ينطبق على ألفريد تيلور. ثم خاطب القاضى هيئة المحلفين طالبا إليهم تدارس النقاط التالية والتفكير فيها مليا:

١ ـ هل ارتكب وايلد أفعالا مخلة بالآداب مع إدوارد شيلى وألفريد وود ومع شخص أو أشخاص آخرين غير معروفين فى فندق سافوى أو مع تشارلس باركر؟

٢ ـ هل سهل تيلور أو حاول تسهيل ارتكاب هذه الأفعال أو أى منها بتزويد الغلمان؟

٣ ـ هل حاول وايلد أو تيلور أو أى منهما أن يجعلا أتكنز يرتكب أفعالا مخلة بالآداب؟

٤ ـ هل ارتكب تيلور أفعالا مخلة بالآداب مع تشارلس باركر أو وليم باركر؟

وبعد أن اجتمعت هيئة المحلفين لتدارس القضية وتمحيص النقاط الأربع الآنفة الذكر قاموا بتبليغ القاضى أنهم اجتمعوا على رأى بالنفى بخصوص السؤال الثالث ولكنهم اختلفوا فيما بينهم

حول النقاط الثلاثة الباقية واقترح القاضى عليهم إعادة النظر فى هذا الأمر لعلهم يصلون بشأنه إلى رأى تطمئن إليه ضمائرهم. ورغم إلحاح القاضى عليهم فقد أصروا على عدم جدوى إعادة نظرهم فى الموضوع مؤكدين أنه لا سبيل إلى التوفيق بين آرائهم المتضاربة. وفى نهاية اجتماعهم خرج المحلفون ليعلنوا براءة المتهمين وايلد وتيلور.

غير أن هذه البراءة ألقت بظلال كثيفة على سمعة وايلد بسبب اقتران اسمه باسم تيلور المعروف بانحلاله والذى اشتبه فيه البوليس وداهم منزله حتى قبل مثوله مع وايلد أمام القضاء. وقد لازم سوء الحظ أديبنا أكثر من مرة. فقد اجتمع اسمه مع اسم تيلور فى عريضة اتهام واحدة. وحتى عندما نظر القضاء فيما بعد فى أمر تيلور منفصلا عن وايلد شاء حظ مؤلفنا العاثر أن ينظر القضاء قضيته عقب النظر فى قضية تيلور مباشرة.

ويقول المراقبون لسير القضية أن قوة دفاع السير إدوارد كلارك كانت السبب فى انقسام آراء المحلفين ومن ثم فى إصدار حكمهم ببراءة وايلد وتيلور. فلولا هذا الدفاع القوى لكانت الصورة مختلفة عما كانت عليه. وهكذا أصبح من حق وايلد المطالبة بالإفراج عنه بكفالة. ورغم أن الكفالة بلغت خمسة آلاف جنيه فقد

تطوع أخو صديقه ألفريد دوجلاس (وهو اللورد دوجلاس أف هوويك) والقس ستيوارت هيدلام لدفعها. والجدير بالذكر أن الحكم ببراءة وايلد ــ من الناحية القانونية ـ لم يكن حكما نهائيا بل كان حكما مؤقتا يمكن الرجوع فيه إذا رأت النيابة العامة إعادة تقديم المتهم إلى المحاكمة. وهذا ماسوف نراه في المحاكمة الثالثة.

المحاكمة الثالثة

بعد أن تم الإفراج عن أوسكار وايلد بكفالة قام اللورد دوجلاس أف هوويك بحجز حجرتين فى فندق ميدلاند، وما أن تأهب مؤلفنا لتناول طعام العشاء مع مضيفه حتى دخل مدير الفندق عليه ليسأله: «أنت أوسكار وايلد على ما أعتقد؟» وبمجرد أن رد وايلد عليه بالإيجاب طلب منه ذلك الرجل مغادرة المكان فورا، وأدرك وايلد أن الماركيز كوينزبرى لن يتركه فى حاله ولن يكف عن ملاحقته فقد استأجر طغمة من الأشرار لاقتفاء أثره وطرده من كل فندق يحاول النزول فيه. وظل هؤلاء الأشرار يطاردونه من فندق إلى فندق حتى ضواحى لندن النائية. ولكنه تمكن من الإفلات منهم بعد منتصف الليل. وكانت أمه تعيش مع أخيه ويلى فى شارع أوكلى حيث توجه مؤلفنا وهو فى حالة من الإعياء البالغ لا تقوى رجلاه على حمل جسده المنهوك. وطرق وايلد الباب ففتحه ويلى الذى أدهشه منظر أخيه المنهوك القوى وهو يخاطبه فى أنفاس متقطعة: «اعطنى مأوى يا ويلى، دعنى أرقد على البلاط حتى لا أهلك فى الطريق»، وما أن تفوه بهذه الألفاظ حتى سقط منهارا على عتبة البيت كما لو كان حيوانا جريحا، على حد وصف أخيه. وهناك عاش وايلد بائسا ومريضا

لبضعة أيام، وترك الجو العائلى فى نفسه أسوأ الأثر لأن أمه الغريبة الأطوار وأخاه السكير لم يكفا عن إسداء النصح له كى يتصرف كجنتلمان أيرلندى ويتحمل ما هو فيه من شدة وكرب. فلا غرو إذا رأينا وايلد يجأر بالشكوى قائلا: «هذا البيت تشيع فيه الكآبة فويلى يتفضل علىّ بإيوائى وأعتقد أنه حسن النية، ولكن هذا كله شىء فظيع». وزاره آنذاك صديقه روبرت شيرارد الذى جاء من باريس فوجده منزويا فى إحدى حجرات البيت الخالية من الأثاث والتى تعبث فيها الفوضى. ونظر شيرارد إلى وجه صديقه فوجده متورما محتقنا يتحدث بصوت كسير وتفوح من فمه رائحة السكر البين. وظل وايلد يردد أمامه : «لماذا لم تحضر السم معك من باريس». ونكأ جراحه أن أخاه ويلى لم يفهم حقيقة المحنة التى يكابدها فقد قال فى سذاجة غريبة إلى برنارد شو: «إن أخى ليس إنسانا سيئا فأنت تستطيع أن تطمئن على أية امرأة معه فى أى مكان». ورغم أن معظم أصدقائه ومعارفه تخلوا عنه فإنه لم يعدم أن يجد من يقف بجانبه فى محنته. فعندما علمت أديلا شوستر بسوء حالته المالية أرسلت إليه شيكا قيمته ألف جنيه استرلينى، وأيضا استضافته أدا لفرسون وزوجها فى منزلهما المريح فى

كورت فيلد جاردنز حيث أمكنه أن ينعم بشيء من الراحة حتى بداية المحاكمة الثالثة.

وأصبح من الواضح أن إجراءات النيابة العامة لإعادة تقديم أوسكار وايلد إلى المحاكمة كانت على قدم وساق وأن المدعى العام السير فرانك لوكوود كان مصمما على إثبات التهمة عليه. واقترح لوكوود على كارسون أن يتولى إعادة التحقيق معه ولكن قلب كارسون لم يطاوعه على ذلك. بل إنه حاول إثناء زميله النائب العام عن الاستمرار فى التحقيق معه قائلا: «أليس بإمكانك أن تترك (الجدع) فى حاله الآن؟ لقد تعذب كثيرا». فأجابه لوكوود بقوله: «كنت أود ذلك. ولكننا لا نستطيع . بل إننا لا نجرؤ أن نفعل هذا وإلا قال الناس عنا على الفور فى انجلترا والخارج أننا اضطررنا إلى صرف النظر عن القضية بسبب الأسماء التى وردت فى خطابات الماركيز كوينزبرى». والجدير بالذكر أن اسم ابن عم زوجة المدعى العام نفسه ورد فى المحاكمتين الأولى والثانية باعتباره واحدا من ثلة تيلور السيئة السمعة. وكان هذا من سوء حظ مؤلفنا الذى كان يمكن للنيابة العامة أن تحفظ ملف قضيته بسبب اختلاف الرأى بين هيئة المحلفين لو لم يخش المدعى العام على نفسه من الملامة والتقريع ومن الاتهام بالتقاعس والتستر على أقاربه. ويمكن القول أن المسئولين شجعوا وايلد على مغادرة

البلاد بشكل غير رسمي. وقيل إن صديقه الكاتب المعروف فرانك هاريس اتخذ الترتيبات الخاصة بتهريبه خارج البلاد فى يخت خاص. وتوسلت إليه زوجته والدموع تنهمر من مقلتيها أن يسارع بالهرب. غير أن توسلاتها ذهبت أدراج الرياح. ورفض وايلد فى عناد وتشبث عجيب أن يتزحزح قيد أنملة قائلا إنه يأبى على نفسه أن يهرب و«يختبىء» ويخذل من ضمنوه لدى الشرطة والمحاكم.

وأثناء إقامته عند أخيه زاره ذات يوم فرانك هاريس ودعاه للخروج معه لتناول الغداء فى مكان غير مطروق وبعيد عن الأنظار. وتجاذب الصديقان أطراف الحديث أثناء الغداء. وأصابت الدهشة البالغة فرانك هاريس عندما صرح له وايلد أن شهادة عمال فندق سافوى لا أساس لها من الصحة. يقول وايلد فى هذا الشأن:

ـ إنهم أخطأوا يا فرانك، لم أكن أنا الشخص المقصود فى فندق سافوى بل بوزى (اللورد ألفريد) دوجلاس. إننى لم أكن أجرؤ على التصرف بمثل هذه الجرأة. لقد ذهبت لرؤية بوزى فى الصباح فى حجرته. وهنا صاح هاريس قائلا:

ـ شكرا لله ! لماذا لم يوضح محاميك السير إدوارد كلارك هذا الخطأ ؟

ـ أراد أن يفعل ذلك ولكنى منعته وأخبرته أنه يجب عليه ألا يفعل هذا، فالواجب يقتضى منى أن أخلص لبوذى. ولم يكن بمقدورى أن أخذله.

ـ ولكن كان يجب على محاميك أن يذكر ذلك. على أية حال فلسوف أفعل هذا بنفسى إذا لم يفعله أحد. وأمامنا الآن ثلاثة أسابيع سوف أعثر فيها على خادمة الحجرة. وسوف أجعل هذه الخادمة تدرك الخطأ الذى ارتكبته. ومن المحتمل أنها تذكرتك بسبب ضخامة جسمك. الأمر الذى أوقعها فى الخطأ وجعلها تظن أنك الشخص المذنب.

ـ ولكن ما فائدة ذلك يا فرانك؟ ما الفائدة؟ فبفرض أنك أقنعت خادمة الغرفة وأنها سحبت أقوالها فهناك شهادة شيلى التى أكد القاضى أنها شهادة سليمة ويعتد بها.

ـ سوف تشاهد بنفسك أن شهادة شيلى سوف تستبعد فى المحاكمة القادمة.

ـ أوه يا فرانك. أنت تتحدث بعاطفة شديدة وإقتناع كامل كما لو كنت إنسانا بريئا.

وظهرت على هاريس دهشة كبيرة فسأل وايلد:

ـ ولكنك برىء . أليس كذلك؟

ـ لا يافرانك. لقد كنت أظن أنك تعلم ذلك طيلة الوقت.

وعقدت الدهشة لسان فرانك هاريس برهة. قال بعدها:

ـ كلا. لم أكن أعرف. إننى لم أصدق الإتهام الموجه ضدك. لم أصدقه للحظة واحدة.

استطاعت عائلة لفرسون طوال فترة بقاء أوسكار وايلد ضيفا عليها أن تحتفظ بوجوده فى بيتها سرا لا يعرفه غير الخدم الذين صدرت إليهم أوامر مشددة بإغلاق أفواههم. ولأن هذه العائلة كانت لا تطمئن إلى الحوذى فقد أعطته إجازة خشية أن يفشى السر. ومن ناحيته تحاشى وايلد أن يسبب أى حرج لأهل البيت فالتزم بحجرته لا يغادرها إلا فى مواعيد تناول الطعام معهم. وحين جاء موعد مثوله أمام المحكمة للمرة الثالثة فضل أن ينتقل إلى منزل أخيه ويلى فى أوكلى ستريت حيث زاره الرسام الكبير تولوز لوتريك ليرسم له بورتريه على خلفية ضبابية عائمة تتكون من ساعة بج بن ونهر التيمس الشهيرين.

نظرت قضية وايلد للمرة الثالثة أمام قاض عجوز فى السابعة والسبعين اسمه ألفريد ويلز. تميز ويلز بتنوع قدراته ومواهبه،

وتفوق فى تسلق الجبال إلى جانب تخصصه فى الكلاسيكيات واللغويات وعلم الرياضيات. ومثل الإدعاء هذه المرة ثلاثة أشخاص هم فرانك لوكوود ومستر تشارلس جيل اللذان سبق لنا الإشارة إليهما بالإضافة إلى هوراس أفورى. وتولى الدفاع عن المتهمين أوسكار وايلد وألفريد تيلور نفس طاقم المحامين الذين سبق لهم الدفاع عنهما من قبل. وظهر المتهمان فى قفص الاتهام ليعلنا أنهما غير مذنبين. وطلب محامى وايلد السير كلارك إلى القاضى أن ينظر فى قضية موكله بمعزل عن قضية المتهم الآخر (تيلور). فاستجاب القاضى لهذا الطلب باعتبار أنه ليس هناك اشتراك من جانبهما فى أى من التهم الموجهة ضدهما. واقترح المدعى العام لوكوود أن تبدأ المحكمة بنظر قضية تيلور قبل النظر فى قضية وايلد. فاحتج إدوارد كلارك على ذلك مستندا إلى أن عريضة الاتهام أوردت اسم موكله قبل اسم تيلور. ولكن القاضى لم يوافق على اعتراضه هذه المرة. ولكن وعده فى نفس الوقت بأنه لن يسمح بحال من الأحوال لقضية تيلور أن تسىء إلى سير محاكمة وايلد أو أن تترك فى نفوس المحلفين أثرا سيئا. وتأكيدا على ما يقول أمر القاضى بالإفراج عن وايلد بكفالة فى فترة

محاكمة تيلور دفعها نيابة عنه اللورد دوجلاس أف هوويك شقيق اللورد ألفريد دوجلاس .

بدأت إعادة محاكمة تيلور باستدعاء تشارلس باركر مرة أخرى للشهادة. واعترف باركر أنه كان ينام مع تيلور فى فراش واحد وأن تيلور الذى أعطاه مبالغ من المال درج على تسميته بحبيبه وزوجته الصغيرة كما وعد بتقديمه إلى رجال أسخياء على استعداد لأن يجزلوا له العطاء لو أنهم فعلوا به نفس الشيء وأشار الإدعاء إلى الخطاب الذى وجده البوليس فى حوزة تيلور والذى أرسله إليه شاب اسمه تشارلس ماسون. وهو نفس الشاب الذى أنكر تيلور فى محاكمته السابقة ما قيل من أنه احتفل بعقد قرانه عليه على غرار زواج الرجل بالمرأة. وسأل المدعى العام تيلور إذا كان ـ حسبما جاء فى الخطاب ـ يليق برجل أن يقول لرجل آخر: «إرجع إلى بيتك بسرعة يا حبيبى». فأجاب تيلور ضاحكا إنه لا يرى فى لغة الخطاب ما يشين.

وتركزت الاتهامات الموجهة ضد تيلور على إتيانه أفعالا مخلة بالآداب مع الأخوين تشارلس ووليم باركر. فضلا عن أنه قام بتقديم هذين الأخوين وكذلك وود إلى وايلد بهدف الإتيان بممارسات غير لائقة. قال القاضى أن اختلاط تيلور ـ رغم تعليمه

ومركزه - بهؤلاء الخدم والجهال أمر يدعو إلى الدهشة والعجب بكل تأكيد. ورأى القاضى أن أفعالا مخلة بالآداب حدثت بين تيلور وبين الأخوين تشارلس ووليم باركر. ولكنه لا يرى أن هناك دليلا على أن تيلور قدم الأخوين باركر إلى وايلد بهدف الإتيان بأفعال منافية للأخلاق. ومن ثم فقد رأى ضرورة إحالة الأمر إلى هيئة المحلفين. ثم تناول القاضى دعوة وايلد لأناس يقلون عنه فى المركز الاجتماعى إلى تناول العشاء معه فعلق بقوله إن هذا وحده لا يكفى كدليل على وجود علاقة آثمة بين الداعى والمدعوين. وبدا من لهجة القاضى المعتدلة أن كل شىء على مايرام ويبشر بكل الخير لأوسكار وايلد. حتى آراء المحلفين فى بادىء الأمر كانت تبشر بالخير. فقد اجتمعوا للمداولة ثم عادوا إلى قاعة المحكمة ليعلنوا أنهم يختلفون بشأن صحة التهمة الموجهة إلى تيلور بأن قام بتوريد الغلمان إلى وايلد. ولكن هناك اتفاقا بينهم على صحة الاتهامات الأخرى الخاصة بإتيان تيلور أفعالا مخلة بالآداب مع الأخوين تشارلس ووليم باركر.

وضمانا للموضوعية وعدالة المحاكمة طلب محامى وايلد السير إدوارد كلارك تشكيل هيئة محلفين أخرى غير التى نظرت قضية تيلور فوافق القاضى على طلبه.، والجدير بالذكر أن الماركيز

كوينزبرى حضر إلى المحكمة ليتتبع محاكمة وايلد وتيلور، وأثلج صدره إدانة المحلفين لتيلور، فخرج من القاعة ليرسل إلى زوجة ابنه اللورد دوجلاس أف هوويك رسالة عاجلة يعبر فيها عن ابتهاجه لسقوط تيلور فى يد العدالة وتمنى فى قرارة قلبه أن يلقى غريمه أوسكار وايلد نفس المصير . ولم يكتف الماركيز كوينزبرى بهذا فقد أرسل خطابات مماثلة لبقية أفراد العائلة. وتضايق اللورد دوجلاس أف هوويك من شماتة والده وتصرفاته الحاقدة، ولسوء الحظ تصادف أن قابل الأب ابنه فى الطريق فحدثت بينهما مشادة عنف فيها الإبن أباه لسوء مسلكه وحذره من التمادى فى إرسال خطابات بذيئة كالتى أرسلها إلى زوجته. وعبر الأب بصوت من شفتيه عن زرايته بكلام ابنه فأمسك الإبن بتلابيب الأب وتبادلا اللكمات على قارعة الطريق فاجتمع المارة لفض الاشتباك بينهما . وجاء شرطى ليقتادهما إلى قسم البوليس حيث اعتقد وكيل النيابة أن الأب لابد أن يكون قد بدأ بالعدوان لأنه كان مصارعا معروفا . ولم يكد الاثنان يخرجان من قسم البوليس حتى اشتبكا فى عراك آخر. فاقتيدا للمرة الثانية إلى قسم بوليس آخر. وعندما وجه البوليس إلى الأب تهمة الإخلال بالأمن والنظام صاح قائلا: «هذا هو ابنى الذى دفع اليوم كفالة للإفراج عن أوسكار وايلد. لقد

تبعني حتى ميدان بيكاديللي وضربني هناك»، واعترف الإبن بأنه ضرب أباه بالفعل ويرر ذلك بأن أباه سطر مجموعة من الخطابات التي تدعو إلى الاشمئزاز وأرسلها إلى زوجته، وفي هذه المرة حمل وكيل النيابة الطرفين مسئولية الإخلال بالأمن والنظام ولم يسمح بالإفراج عنهما إلا بعد أن دفع كل منهما الكفالة المطلوبة.

اقترح السير كلارك تأجيل محاكمة وايلد الثالثة لدورة قضائية أخرى، ولكن القاضي رفض هذا الطلب، ووقف وايلد في قفص الاتهام للمرة الثانية في محكمة الأولد بايلي يوم ٢٢ مايو ١٨٩٣ ووجهت المحكمة إليه ثماني تهم دار معظمها حول الأفعال المخلة بالآداب التي أتى بها في فندق سافوى، فضلا عن علاقته بكل من ألفريد وود وشيلي، وحدث في المحاكمة الثالثة تغير فقد رفض القاضي اعتبار أدب وايلد قرينة ضده، ورغم ذلك فقد أصر الإدعاء على الإشارة إلى الخطابين اللذين أرسلهما وايلد إلى اللورد ألفريد دوجلاس واللذين سبق الإشارة إليهما، وبسبب التضارب في أقوال شيلي برأ القاضي ساحة مؤلفنا في تهمة العلاقة الآثمة بوود، قال شيلي في شهادته أنه تأثر تأثرا عميقا بحسن معاملة وايلد له رغم أنه اضطره في مناسبتين أن يقبل ممارسة بعض الأفعال المخلة معه وأضاف أن وايلد عبر عن شديد ندمه على ما

فعل معه وطيب خاطره ورقت معاملته له وعذبت إلى أقصى حد . واعترف شيلى بأنه لم يكن بكامل قواه العقلية عندما اعتدى على والده بالضرب. وكان هذا الاعتراف المنفذ الذى نفذ منه محامى وايلد كى يشكك فى سلامة شهادته وقيمتها. وعندما استدعى ألفريد وود للشهادة كرر نفس ما ذهب إليه فى شهادته السابقة. ولكنه أضاف معلومة جديدة مفادها أنه رأى اللورد ألفريد دوجلاس بصحبة وايلد فى فندق سافوى.

وطلب المدعى العام إعادة استجواب السفرجى وجين كوتر وأستاذ التدليك العاملين فى فندق سافوى . ولاحظ محامى وايلد أن جين كوتر تلبس نظارة طبية فأمطرها بوابل من الأسئلة حتى اعترفت أمام المحكمة بضعف نظرها الشديد وأنها لم تكن تلبس نظارتها عندما رأت شابا يرقد على سرير وايلد. واستطاع محامى وايلد أيضا أن يبذر بذور الشك فى شهادة أستاذ التدليك الذى أقسم فى شهادته السابقة أن باب حجرة وايلد كان غير موصد فى حين أنه غير أقواله هذه المرة وقال إنه ليس متأكدا إذا كان الباب موصدا أم لا.

وبعد الاستماع إلى شهادة الشهود خلص القاضى إلى أن رؤية وايلد مع شاب أصغر منه سنا فى حجرة النوم مسألة غير

مألوفة ويجدر لهيئة المحلفين أن ينظروا فيها. ولكنه فى ذات الوقت أعلن براءة ساحته فى علاقته بشيلى فقد استطاع محامى وايلد أن يبرز اهتزازه العقلى. وحكم القاضى فى هذا الشأن أن شهادة شيلى غير صالحة لأنه فى حكم الشريك للمتهم. ومن ثم وجب صرف النظر عنها حتى يظهر ما يدعمها. واختتم القاضى أقواله بأنه مقتنع بضرورة إحالة علاقة وايلد بألفريد وود (الذى حصل منه على مبلغ كبير من المال للسفر إلى أمريكا) إلى هيئة المحلفين.

واستجوب المدعى العام لوكوود وايلد بشأن خطابى الغرام اللذين أرسلهما إلى اللورد ألفريد دوجلاس واللذين عثر عليهما ألفريد وود فى جيب البذلة التى أعطاها له هذا اللورد. فأجاب بأنه سعى إلى تشبيه صديقه بالشاعر هياسينوث. وكذلك سأله لوكوود عن الهدايا التى درج على تقديمها إلى الشباب من أصدقائه فاعترف بأنه قام بإهداء نحو سبع أو ثمان حافظات سجائر إلى عدد من الشبان فى الفترة بين ١٨٩٢ و١٨٩٣. وعلل اهتمامه بالشباب الذين يصغرونه سنا بقوله إن صحبتهم تروق له لأنهم ينبهرون بشهرته ويكيلون له الثناء والمديح.

ويوجه عام ظل وايلد رابط الجأش أثناء استجواب المدعى العام له. غير أن ثقته بنفسه زايلته عندما استجوبه المدعى العام

بشأن علاقته بالغلام الفونس كونواى الذى دعاه إلى نزهة وأنزله فى فندق فى مصيف برايتون بانجلترا. وظل مؤلفنا يحتفظ بهدوئه حتى رأى غريمه الماركيز كوينزبرى يدخل فجأة قاعة المحكمة ويبحث لنفسه عن مكان يجلس فيه دون جدوى فيضطر إلى الوقوف فى مؤخرة القاعة. وما أن وقعت أبصار وايلد عليه حتى ظهرت عليه علامات الانزعاج الشديد لدرجة أن يده امتدت إلى كوب الماء الموضوع أمامه ليرتشف منه.

سأل لوكوود مؤلفنا عن علاقته بوود فقرر أنه تعرف عليه عن طريق صديقه اللورد ألفريد دوجلاس الذى أوصى به خيرا وطلب منه أن يساعد وود فى إيجاد عمل يرتزق منه. وعن الخطابات التى عثر عليها وود فى جيوب البذلة القديمة (التى أعطاها له اللورد دوجلاس) اعترف وايلد بأنه سعى إلى مقابلته لاسترجاع هذه الخطابات منه، ولكنه أنكر أن المبلغ الذى أعطاه إياه كان ثمنا لاسترداد هذه الخطابات. ثم سأله المدعى العام عن ملاءات السرير التى كان ينام عليها فى فندق سافوى والبقع التى تلطخها فأنكر وجود مثل هذه البقع وأردف أنه بفرض وجودها فهى ليست ناجمة عن آية ممارسات قذرة.

وبعد استجواب المدعى العام لأوسكار وايلد تقدم السير إدوارد كلارك للدفاع عنه قائلا إن الإدعاء يطالب بإدانة موكله استنادا إلى شهادة اثنين من ذوى السمعة السيئة هما وود وباركر ثبت من التحقيق حطتهما وسوء أخلاقهما. وذهب كلارك إلى أن هذين الرجلين أدليا بشهادتهما لصالح الإدعاء العام طمعا فى أن تعاملهما المحكمة معاملة شاهدى الملك فلا تنزل العقاب بهما رغم ما اتضح من فسادهما. وأكد السير كلارك إنه لا ينبغى للمحكمة أن تشمل هذين الشريرين بالعفو. ولفت كلارك أنظار المحكمة إلى أنه من الغرابة بمكان أن يتقدم هذان الرجلان للشهادة ضد موكله بعد مرور كل هذه السنوات. وفسر اتساخ ملاءات سرير الفندق بالإسهال الذى أصاب موكله.

ورغم قوة دفاع السير إدوارد كلارك فقد ضعف أثره أمام الكلمة الختامية التى ألقاها لوكوود المدعى العام فى اليوم الرابع والأخير من المحاكمة وذلك قبل أن تنطق هيئة المحلفين بالحكم. وحمل لوكوود حملة شعواء على كل إجابات وايلد وسعى ما وسعه السعى إلى تفنيدها. وذكر أنه ليس من المعقول أن تحكم المحكمة بإدانة أحد المتهمين وهو تيلور لتحكم ببراءة المتهم الآخر أوسكار وايلد لا لشىء إلا لأنه أديب معروف يشار إليه بالبنان. هذا الأديب

الكبير الذى تناسى مكانته الاجتماعية المرموقة فخالط حثالة المجتمع. وهو لم يجد أدنى حرج من أن يقول لتيلور بالحرف الواحد: «تعال ومعك أصدقاؤك فهم أصدقائى، وليس مهما بالنسبة لى سواء جاءوا من الاسطبلات أو المطابخ». وتساءل المدعى العام لماذا تبرىء المحكمة ساحة مثل هذا الرجل مادامت أن شهادته جاءت فى كثير من الأحيان مطابقة لشهادة وود الذى دعاه إلى تناول العشاء معه فى حجرة خاصة منعزلة فى أحد الفنادق ثم أسر فى أذنه أن البيت خال لأن عائلته قد سافرت خارج المدينة. وأضاف لوكوود أن اتصال وايلد بوود بهدف استرجاع الخطابات منه معناه أنه أراد مساومته عليها. واستند المدعى العام فى هجومه على وايلد على شهادة كل من المسز مارجرى بانكروفت والسفرجى بيكر فى لوكاندة سافوى، وذهب إلى أنه من غير المعقول أن يعترف شارلس باركر بالإتيان بأفعال من شأنها أن تدمغه وتلطخ اسمه إلا إذا كانت هذه الأفعال حقيقة واقعة. وأورد المدعى العام ما اعتبره دليلا آخر على إدانة أوسكار وايلد يتلخص فى اعترافه أثناء التحقيق أن اللورد ألفريد دوجلاس كان ينام فى فندق سافوى فى حجرة داخلية مجاورة لحجرته ولا يمكن الوصول إليها إلا بالمرور على حجرة وايلد. يقول المدعى العام فى هذا الصدد: «لو كانت شهادة خادمة الغرفة ضد وايلد غير

صحيحة فلماذا لم يتقدم اللورد دوجلاس إلى المحكمة لدحضها».
وبعد ذلك ركز لوكوود على علاقة مؤلفنا المشبوبة بالغلام كونواى الذى اصطحبه إلى مصيف برايتون .. وكان خطاب الإدعاء الذى اختتم به لوكوود جلسات المحكمة من القوة وشدة الوطأة لدرجة أفقدت وايلد شيئا من توازنه. وفى كتابه المعروف «من الأعماق» سجل مؤلفنا فيما بعد تجربة سجنه المريرة فنراه يقول إنه استمع إلى سيل الاتهامات المروعة الخارجة من فم لوكوود فبدت له كما لو كانت فقرات من كتابات تاسيتوس ودانتى وأن الرعب تملكه لسماعها، وفجأة لاح له هذا الخاطر: «كم هو بديع لو أننى اعترفت بنفسى أننى فعلت هذه الأشياء جميعا».

اختتم القاضى ويلز الجلسة الأخيرة مخاطبا هيئة المحلفين بقوله: «سواء كان المتهم مذنبا أم بريئا فمن الواضح أن المستر وايلد وجد نفسه نتيجة محاكمة كوينزبرى مضطرا إلى الاعتراف بأن مسلكه - وخاصة بالنسبة للورد ألفريد دوجلاس مبرر لأن يوجه الماركيز إليه الألفاظ التى كانت السبب الأصلى فى رفعه قضية التشهير ضد اللورد كوينزبرى. ولهذا فإنى أعتقد أنه يستحيل على اثنى عشر محلفا يتسمون بالتهذيب والذكاء والأمانة والبعد عن الانحياز أن يروا أنه ليس هناك مايدعو أبا غاضبا

وعانيا ومحيا لابنه إلى إتهام المستر وايلد بأن يتصرف بالطريقة التى أشار إليها الماركيز كوينزبرى». وبعد ذلك لخص القاضى ويلز شهادات الشهود بطريقة موضوعية خالية من التجنى على المتهم. وكان ذلك واضحا بصفة خاصة فى أسلوب تناوله للخطابين اللذين أرسلهما وايلد إلى ألفريد دوجلاس. فقد علق القاضى عليهما بقوله: «إنه من الغريب أنه لم يخطر على بال كاتب هذين الخطابين أن الشاب الذى يكتب إليه لابد أن يسقط فى نظر الآخرين لو أنهم عرفوا بأمر هذين الخطابين». إن اللورد كوينزبرى خلص من هذين الخطابين إلى نتيجة يتحتم على أى أب أن يتوصل إليها رغم أنى لا أقر أن يفعل أى رجل مهذب ما فعله الماركيز عندما ترك بطاقة للمتهم فى النادى تحتوى على عبارة أشد ما تكون إساءة لم تترك للمتهم أى خيار غير الالتجاء إلى القضاء لمقاضاة الماركيز وإلا وصمه الناس بأنه شخص ليس فى وسعه إنكار التهمة النكراء الموجهة ضده». وعبر القاضى عن عدم رضائه عن الجمع بين قضيتى وايلد وتيلور فى عريضة اتهام واحدة. وذكر أنه من حق اللورد ألفريد دوجلاس عدم المثول أمام المحكمة مادام أن أحدا لم يطلب منه الإدلاء بشهادته. وأشار القاضى إلى احتدام الخلاف والانقسام داخل عائلة الماركيز

كوينزبرى وكيف أن الكراهية المشبوبة تحكم العلاقة بين الأب وأبنائه. وأضاف القاضى أنه رغم هذايتفهم دوافع الأب وحرصه على حماية ابنه من مخالطة وايلد. ثم عرض القاضى للخطاب الذى أرسله هذا الأديب إلى ألفريد دوجلاس الموشى بعبارات الغزل فقال إنه يترك أمر الحكم عليه إلى المحلفين يقررون إذا كان يتضمن عواطف وشهوات دنسة. وذهب القاضى إلى أنه من الطبيعى أن يفسر الشخص العادى هذا الخطاب تفسيرا سيئا. وأيضا ترك القاضى الأمر للمحلفين كى يبدوا رأيهم فى بقية الخطابات التى أرسلها وايلد إلى دوجلاس. ونصح القاضى المحلفين ألا يأخذوا شهادة وود على عواهنها اللهم إلا وجدوا ما يدعمها لأنه من الواضح أن شهادة وود وشخصه ليسا فوق مستوى الشبهات . وهنا عن لمندوب المحلفين أن يسأل القاضى عما إذا كانت المحكمة قد أصدرت أمرا بالقبض على اللورد ألفريد دوجلاس أو أنها تفكر فى إصدار مثل هذا الأمر، فأجاب القاضى أنه لا يمكن صدور مثل هذا الأمر إلا إذا كان هناك نوع من الدليل ضده فعلاقته الحميمة بالمتهم ـ فى حد ذاتها ـ ليست مبررا للقبض عليه. وهنا علق مندوب المحلفين قائلا إن مسألة فحص الخطابات لمعرفة براءة المتهم أو عدم براءته تنطبق على

اللورد ألفريد دوجلاس بقدر ما تنطبق على المتهم. وعندئذ أكد القاضى أن حسب اللورد دوجلاس ونسبه لا يقيانه من المساءلة. فكل ما هنالك أن اللورد دوجلاس سافر إلى الخارج بناء على طلب المتهم ، فضلا عن عدم وجود أى دليل ضده يستدعى مثوله أمام القضاء. وألمح القاضى إلى رفاق السوء الذين يخالطهم وايلد وضرورة تأثره بهم. كما أنه ذهب إلى أن تقاسم تيلور وود الفراش ليس دليلا على الممارسة الجنسية الشاذة فالفقر يدفع كثيرا من البشر إلى مثل هذه المشاركة، ولكن القاضى يرى غرابة فى أن يقدم تيلور وهو ميسور الحال على مثل هذه المشاركة فهو قادر على إنفاق مابين أربعين وخمسين جنيها فى الأسبوع الواحد. وعبر القاضى عن أسفه لعدم التجاء القضاء إلى الطب الشرعى لتحديد نوعية البقع التى لطخت ملاءات سرير وايلد. وأضاف أن شهادة كوتر خادمة الغرفة التى رأت فراش المتهم فى أسوأ حالاته لا يتوافق تاريخها مع التاريخ الذى زعمت أنها شاهدت فيه غلاما يرقد فى فراشه. وألقى القاضى بذور الشك فى شهادة الخدم فى فندق سافوى بقوله إنها شهادة لا يعتد بها نظرا لمرور نحو عامين على الواقعة. وعاب القاضى على مديرة الفندق سلبيتها فهى لم تحرك ساكنا رغم أن خادمة الحجرة شكت لها من سوء حالة فراش المتهم. ولهذا اعتبرها القاضى شريكة بشكل أو آخر فيما حدث .

وبعد انتهاء القاضى من إلقاء كلمته انسحبت هيئة المحلفين من قاعة المحكمة للتداول وتمحيص شهادات الشهود واستخلاص النتائج منها. ومر أكثر من ساعتين على اجتماعهم فظن الحاضرون أن الخلافات قد دبت بينهم وأن ذلك فى مصلحة المتهم. وأثناء انعقاد هيئة المحلفين خرج ممثلهم ليسأل القاضى سؤالا اعتبره هذا القاضى غير ذى أهمية عن شهادة السفرجى توماس برايس حول زيارات تشارلس باركر للمتهم فى فندق سانت جيمس. وبعد أن أمده القاضى بالمعلومة المطلوبة عاد إلى اجتماع المحلفين الذى لم يستغرق هذه المرة سوى بضع دقائق معدودات. وبعد خروج المحلفين من الاجتماع طرح القاضى عليهم الأسئلة وتلقى من ممثلهم الإجابة عنها. وفيما يلى النقاش الذى دار بين القاضى وممثل المحلفين الذى وجه إليه القاضى السؤال التالى:

ـ هل وجدتم المتهم مذنبا أم غير مذنب فى ارتكاب عمل مناف للأخلاق مع تشارلس باركر فى فندق سافوى فى الليلة نفسها التى تعرف فيها به؟

ـ مذنب.

ـ هل تجدونه مذنبا أم غير مذنب فى ارتكاب جريمة مماثلة بعد مرور أسبوع؟

ـ مذنب.

ـ هل تجدونه مذنبا أم غير مذنب فى ارتكاب جريمة مماثلة فى فندق سانت جيمس؟

ـ مذنب.

ـ هل تجدونه مذنبا أم غير مذنب فى ارتكاب جريمة نكراء منافية للأخلاق مع ألفريد وود فى بيت المتهم فى تايت ستريت؟

ـ مذنب؟

ـ هل تجدونه مذنبا أم غير مذنب فى ارتكاب جريمة نكراء منافية للأخلاق مع شخص ذكر غير معروف الهوية فى الحجرة رقم ٣٤٦ فى فندق سافوى؟

ـ مذنب.

ـ هل تجدونه مذنبا فى كل النقاط الواردة فى عريضة الاتهام باستثناء النقطة الخاصة بإدوارد شيلى.

ـ نعم. ولكنه غير مذنب فى هذه النقطة.

ـ هل هذا هو الحكم الذى توصلتم جميعا إليه؟

ـ نعم.

وقعت إدانة المحلفين لأوسكار وايلد وقع الصاعقة عليه كما فوجيء الحاضرون بها دون تمهيد أو مقدمات. فقد اتسمت ملاحظات القاضى بالقصد والاعتدال. ولم يفق وايلد من وقع هذه الصدمة إلا بعد مرور دقيقة أو دقيقتين. وأمر القاضى بإحضار تيلور ليقف بجوار المتهم الآخر فى القفص حتى يتلو الحكم على السجينين فى وقت واحد.

وشعر السير إدوارد كلارك أن موكله هالك لا محالة فحاول فى استماتة إرجاء الكارثة بأن طلب من القاضى تأجيل النطق بالحكم على وايلد لحين حلول الدورة القضائية القادمة بحجة أن عريضة الاتهام غير سليمة لأنها تحتوى على إتهام موكله بالتآمر. ولكن القاضى رفض هذا قائلا إن تهمة التآمر فى حكم غير الموجودة لأن المحكمة سبق لها أن برأت المتهم منها وأكد القاضى سلامة عريضة الاتهام كما أثنى على سلامة الأحكام التى توصل إليها المحلفون. ثم تلفت القاضى إلى المحكوم عليهما ليقول: «يستحيل أن أشك يا تيلور فى أنك كنت تدير ماخورا لدعارة الذكور، كما أنه يستحيل علىّ يا وايلد أن أشك فى أنك

كنت مركزا لدائرة واسعة النطاق من الفساد الشائنه المقيت بين مجموعة من الشبان. ويجدر بى فى ظل هذه الظروف أن أحكم عليكما بأقصى عقوبة يسمح بها القانون . وبناء عليه فإن المحكمة تحكم على كل منكما بالحبس لمدة سنتين مع الأشغال.

واستقبل معظم الحاضرين فى القاعة هذا الحكم بالرضا والسرور. ولم يكترث تيلور بالحكم الصادر ضده. أما وايلد فقد ظهر عليه الرعب واهتزت خطاه بعض الشىء، وحاول أن يتكلم فلم يجد ما يقول للقاضى سوى: «وأنا؟ يا سيدى اللورد ألا تسمح لى أن أقول شيئا». ورد عليه القاضى بإشارة من يده إلى الحراس كى يؤدوا واجبهم فأسرعوا بإخراج المحكوم عليه من القاعة وقاموا بالزج به فى زنزانة أسفل مبنى المحكمة فى انتظار عربة السجن لتنقله إلى سجن بينتونفيل.وخارج مبنى محكمة الأولد بيلى استقبل الجمهور الحكم على وايلد بالحبور والابتهاج . فرقص بعضهم فى الشارع تعبيرا عن ابتهاجهم وتهللت وجوه العاهرات وطفحت بالبشر فقمن يرفعن ثيابهن وكشفن عن الجزء الأسفل من أجسادهن تعبيرا عن فرحتهن بالتخلص من مزاحم لهن فى أرزاقهن. ولكن أولاد الذوات نجحوا فى كبح مشاعر الفرح باستثناء الماركيز كوينزبرى .

كانت لوائح السجن صارمة فهى لا تسمح للمسجونين بالكتابة إلى أهلهم ومعارفهم إلا مرة كل ثلاثة شهور. وكانت خطاباتهم تخضع لرقابة إدارة السجن. وقام محافظ السجن ذات مرة باستبعاد بعض الفقرات من خطاب كتبه وايلد من السجن إلى صديقه القديم روبرت روس. ولم تسمح له إدارة السجن خلال الثلاثة شهور الأولى من سجنه بقراءة الكتب باستثناء الكتاب المقدس وكتابيً التراتيل والصلوات ثم سمح له قسيس السجن بعد ذلك بقراءة رواية جون بنيان الدينية المعروفة «رحلة الحاج» . وكان هذا القسيس لا يسمح للسجناء بقراءة أى شىء غير الكتب الدينية واللاهوتية التى يختارها بنفسه لهم. فلا غرو أن وصف وايلد اختياره بالسخف.

وبمجرد دخوله سجن بنتونفيل قامت إدارة السجن بوزنه وتسليمه ممتلكاته الشخصية ثم اقتيد إلى حمام قذر تعين عليه الاستحمام فيه. وبعد إجراء الكشف الطبى عليه قرر الطبيب تكليفه بالقيام بأعمال السجن الخفيفة مثل حياكة حقائب البريد. وبعدئذ ارتدى السجين ملابس السجن الثقيلة واقتيد إلى زنزانة ليقضى فيها أولى ليالى الحبس. وفى بادىء الأمر عافت نفسه طعام السجن فامتنع عن تناوله لعدة أيام حتى نهش الجوع بدنه

فاضطر إلى تناوله، الأمر الذى سبب له الإسهال والرغبة فى القىء. وفى السجن سرت شائعة ساعدت الصحافة على ترويجها مفادها أن لوثة أصابت عقل الأديب الكبير. فأمر المستر اسكويث وزير الداخلية آنذاك بتوقيع الكشف الطبى عليه فاتضح أن بدنه وعقله سليمان. ولم يكن بالزنزانة غير برش عبارة عن لوح خشب ينام عليه السجين وبطانية ومخدة صلبة ومائدة صغيرة عليها أدوات الطعام وبعض الأدوات الشخصية. ورفضت إدارة السجن أن تسمح له بالاحتفاظ بصورة فوتوغرافية لزوجته وولديه. وفرضت عليه القيام بترتيب زنزانته بعد تنظيفها كل يوم على نحو أشد ما يكون دقة وصرامة. وكان مفتش السجن يمر عليه من وقت إلى آخر ليتأكد من أنه ينفذ التعليمات بدقة، الأمر الذى بث فى قلبه الرعب والفزع وجعله يكابد الكوابيس والأحلام المزعجة. فقد كان أخشى ما يخشاه أن يكتشف مفتش السجن أى إهمال ولو بسيط من جانبه لأن أقل هفوة يرتكبها كانت قمينة بتعريضه للعقاب الرادع. وتركت هذه المعاملة القاسية فى نفسه أسوأ الأثر لدرجة أن أصدقاءه لاحظوا بعد خروجه من السجن أنه لا يكف أينما وجد عن ترتيب الأشياء التى أمامه بمنتهى الدقة. ويذكر أحد الحراس فى هذا الشأن أنه كان أحيانا يراقب تصرفاته فى الزنزانة دون أن

يدرى فيراه يرتب ما فيها من أشياء بنظام شديد ثم يبتعد عن هذه الأشياء ليلقى نظرة فاحصة عليها ويطمئن قلبه إلى حسن نظامها، فإذا اطمأن إلى ترتيبه طفح وجهه بالبشر وكأنه طفل صغير. وكان السجين يقضى معظم أوقاته فى الحبس الانفرادى ولا يخرج إلا للتريض مع بقية المساجين لمدة ساعة واحدة يعود بعدها إلى الزنزانة ليقضى فيها الساعات الطوال وهو يؤدى عملا أشد ما يكون سخافة ومدعاة للملل هو فك أو تنسيل الحبال القديمة وتحويلها إلى دوبار. ورغم هذه الحياة المملة والكئيبة استطاع فى العشرة شهور الأخيرة من سجنه أن ينتهى من كتابة إحدى روائعه «من الأعماق» وهو ما سوف نعود إليه. ففي غياهب السجن اجتاح اليأس قلب السجين. ولكن و. ب. هولدين عضو مجلس العموم الليبرالي ـ الذى كان يعرفه أيام مجده الأدبى ـ استطاع أن يحيى فيه جذوة الأمل فى الحياة. وبوصفه عضوا فى لجنة السجون بوزارة الداخلية استعرض هذا الرجل لائحة السجون البريطانية وطلب إدخال التعديلات عليها. وأحس هولدين بوطأة المحنة التى يمر بها هذا الفنان المرهف الحس فحاول أن يمد إليه يد العون والمساعدة. كان هولدين بحكم منصبه يحق له أن يزور أى سجن

ويقابل أى سجين فى طول البلاد وعرضها. ولما ترامى إلى سمعه أن وايلد أصابه الجنون فى السجن حرص على زيارته للوقوف على أحواله. وهناك قابل قسيس السجن الذى قال له إنه فشل فشلا ذريعا فى تغيير السجين والتأثير عليه. وطلب هولدين من إدارة السجن أن تسمح له بمقابلة وايلد على انفراد. غير أن وايلد الذى ارتاب فيه رفض أن يبادله الحديث. وأراد هولدين أن يدخل الطمأنينة إلى نفسه فأفهمه أنه سعى إليه تقديرا لموهبته الأدبية. ولكنه فى نفس الوقت عبر عن أسفه لأنه يبدد هذه الموهبة فيما لا طائل منه. وأرجع هولدين هذا إلى أن وايلد لم يجد فى حياته الماضية موضوعا جديرا بالمعالجة وذهب إلى أن محنته الراهنة قمينة بأن تعاونه على إيجاد الموضوع القادر على تفجير طاقات الخلق والإبداع فيه. فتشجع وايلد وانتهز هذه الفرصة السانحة ليشكو إلى محدثه من عدم توافر الكتب التى يحب أن يقرأها ويعبر عن ضيقه برواية جون بانيان «رحلة الحاج» التى اختارها له قسيس السجن. وطلب وايلد من هولدين أن يزوده برواية فلوبيرت «مدام بوفارى» فقال له هولدين إن إدارة السجن قد تعترض عليها لأن مؤلفها أهداها إلى المحامى الذى ناضل حتى تمكن من رفع الحظر الذى فرضته الرقابة الفرنسية عليها. عندئذ انفرجت

أسارير السجين وقهقه ضاحكا وبدا من الواضح أن معنوياته قد ارتفعت خاصة بعد أن وعده هولدين بإمداده بالكتب والأدوات الكتابية. والجدير بالذكر أن وايلد عمل بنصيحة هولدين وتوفر فى السجن على تأليف عملين مهمين هما «من الأعماق» وقصيدة «بالاد فى سجن ردنج». ولكن صفوه مالبث أن تعكر بسبب زيارة أحد محامى الماركيز كوينزبرى له. ففى ٢١ يونيه ١٨٩٥ تقدم هذا المحامى بإيعاز من كوينزبرى بطلب من المحكمة لإشهار إفلاسه نظرا لعجزه عن الوفاء بمصروفات القضية التى سبق أن رفعها ضد كوينزبرى. وآلم وايلد أن يخذله صديقه اللورد ألفريد دوجلاس الذى أحجم عن تقديم العون المالى له بعد أن ورطه وحرضه على رفع القضية ضد والده. يقول مؤلفنا بمرارة وحسرة فى هذا الصدد أنه أنفق مابين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف جنيه استرلينى فى غضون سنتين أو ثلاثة بدد نصفها على أقل تقدير على صديقه الغادر.

وفى يوم ٤ يولية ١٨٩٥ نقل وايلد من سجن بنتونفيل الى سجن واندزورث الذى أشرف على إدارته مدير قاسى القلب فساءت حالته لدرجة أنه فكر فى الانتحار . يقول مؤلفنا عن قسوة هذا الرجل انه لا يتلذذ بتناول الطعام الا بعد أن يكون قد أنزل

العقاب بأحد. وذات مرة أحس بألمه أحد السجناء فاقترب منه ليواسيه مخالفا بذلك لوائح السجن التى تمنع تبادل الحديث بين السجناء الذين علمتهم حياة السجن كيف يتكلمون دون أن يحركوا شفاههم. ولكن وايلد عجز طوال فترة بقائه فى السجن عن أن يتعلم هذا الأسلوب الغريب فى الحديث. وكانت النتيجة أن الحارس ضبطه وهو يرد على محدثه فأنزل به العقاب مضاعفا.

يقول المسئولون عن إشهار إفلاس أوسكار وايلد أن مجموع الديون التى تراكمت عليه بلغت ٣٥٩١ جنيها استرلينيا لم يكن هناك سبيل لإعفائه منها سوى إشهار إفلاسه وتعيين حارس مالي عليه. وهكذا استطاع غريمه الماركيز كوينزبرى أن يستذله ويسقيه كأس الهوان. وحاول أصدقاؤه جمع المال اللازم لسداد ديونه حتى يجنبوه مذلة المثول أمام لجنة المحاسبة ولكنهم عجزوا عن جمع كل المبلغ المطلوب. وكان لانتصار كوينزبرى الساحق عليه أثر وخيم على صحته فقد أصبح على شفا الانهيار العصبى. وعندما استطاعت زوجته الحصول على إذن برؤيته فى السجن لاحظت أن وزنه قد نقص وأن جسده قد نحل. وفى تلك الفترة من حياته أصيب بالإغماء أكثر من مرة. وفي إحدى المرات سقط مغشيا عليه على أرضية زنزانته الحجرية فأصيب برضوض فى

أذنه أدت إلى إصابته بالصمم بعد أن تم الإفراج عنه. وأوصى الأطباء الذين تولوا علاجه فى المستشفى بإيداعه فى سجن ريفى كى ينشغل بفلاحة الأرض والتريض فى الهواء الطلق.

وبعد إشهار إفلاسه اقترح المستر ايفيلين راجلرز بريز رئيس لجنة السجون على وزير الداخلية نقله إلى سجن ردنج حيث أسندت إليه إدارة السجن زراعة الحديقة وتجليد الكتب وإدارة مكتبة السجن. وقد تم نقله في ٢٠ نوفمبر ١٨٩٥. ويصف وايلد الإذلال المروع الذى كابده فى الطريق إلى سجنه الجديد. فقد اصطحبه الحراس وهو مكبل اليدين وفى ملابس السجن إلى محطة القطار المسافر إلى ردنج. وظل على رصيف المحطة ينتظر وصول القطار لمدة نصف ساعة كان فيها موضع سخرية الناظرين واستهزائهم. وتقدم إليه أحد الواقفين ليبصق فى وجهه. الأمر الذى سبب له جرحا نفسيا غائرا لدرجة أنه ظل عاما كاملا يبكى كل يوم فى الميعاد نفسه ولنفس المدة التى تعرض فيها للمهانة المروعة. ورغم أن برنارد شو لم يكن صديقا له بمعنى الكلمة فقد قام بالتوقيع على التماس إلى الحكومة البريطانية بشأن الإفراج عنه. ولكنه عجز عن جمع توقيعات شخصيات عامة مرموقة على هذا الالتماس. ومن جانبه أرسل صديقه اللورد ألفريد

دوجلاس إلى الملكة فيكتوريا خطابا يلتمس فيه تدخلها الشخصى للإفراج عنه. ولكن هذا الخطاب لم يصل إلى يدى الملكة فقد قام سكرتيرها الخاص بعرضه على وزير الداخلية الذى رفض هذا الطلب رفضا باتا.

والجدير بالذكر أن مؤلفنا رغم شذوذه وانحرافه كان بارا بأمه ومحبا لها. فقد حزن عليها حزنا شديدا عندما أبلغته زوجته نبأ وفاتها وهو فى السجن. كما أوصى وايلد وهو فى سجن ردنج زوجته أن تحسن تربية ولديه ولا تدللهما أو تفسدهما مثلما فعلت الليدى كوينزبرى بولدها اللورد ألفريد دوجلاس. ومما خفف عنه فى بؤسه وشقائه أن الفرنسيين قاموا بعرض مسرحيته «سالومى» على خشبة المسرح الفرنسى فى حين تنكر له بنو جلدته فقد حظرت وزارة الداخلية البريطانية تمثيلها فى ١٠ فبراير ١٨٩٦. والذى لاشك فيه أن النجاح الذى أصابته هذه المسرحية فى فرنسا ساعد على أن تعامله إدارة السجن معاملة أفضل من ذى قبل. وتقدم السجين بشكوى إلى وزير الداخلية مفادها أن إدارة السجن لا تسمح له بقراءة أكثر من كتابين فى الأسبوع من مكتبة السجن الفقيرة ومن إصابة أذنه بالأذى نتيجة سقوطه على الأرض ومن الكلال الذى أصاب نظره ومن أنه فى حاجة إلى أدوات الكتابة

من حبر وورق. واستجابت لجنة السجون بوزارة الداخلية لشكواه فخففت بعض القيود المفروضة عليه وسمحت له بشراء الكتب الخارجية في حدود عشرة جنيهات وأمرت بتزويده بأدوات الكتابة. ووجد وايلد لدى مدير السجن الجديد الرائد نيلسون (الذى حل محل المدير السابق إيزاكسون) معاملة إنسانية كريمة رفعت من معنوياته وجعلته يقبل على الكتابة وينتهى من تأليف «من الأعماق» ولكن روحه المعنوية تدهورت بشكل واضح عندما علم بأن المحكمة أصدرت أمرا بوضع ولديه تحت وصاية مشتركة من زوجته وابن عمها أدريان هوب. فقد آلمه ألما أن تعتبره المحكمة غير جدير بتربية أولاده. ويلقى كتابه «من الأعماق» ضوءا غامرا على علاقته بألفريد دوجلاس ففيه ينحى باللائمة الشديدة عليه ويعتبره السبب الأصلى فى المصائب التى حلت به وفى ضياع ماله. كما يتهمه بأنه تنكر له فى محنته وتركه يواجه بئس المصير بمفرده. والغريب فى الأمر أن سخطه على اللورد ألفريد دوجلاس سرعان ما زال عنه. فبعد خروجه من السجن عاد مؤلفنا إلى سابق عهده ونسى غضبه الشديد على صديقه فقد كتب إليه يقول: «إننى أشعر أن أملى الوحيد فى إنتاج الأعمال الفنية الجميلة لن يتحقق إلا بوجودى معك. إن كل الناس غاضبون منى لعودتى إليك ولكنهم عاجزون عن فهمنا، فأنا أشعر إننى لا أستطيع عمل أى شىء إلا معك».

وقبيل انتهاء مدة عقوبته كتب وايلد التماسا إلى وزير الداخلية يطلب فيه السماح بالإفراج عنه قبل الموعد المحدد بوقت قصير حتى يتجنب مضايقات الصحافة له. ولكن وزير الداخلية رفض الاستجابة إلى طلبه. ونظرا لأن لائحة السجون كانت تقضى بضرورة الإفراج عن السجين من أول سجن دخل فيه فقد تم نقله من سجن ردنج وإعادته إلى سجن بنتونفيل حيث أفرج عنه فى صبيحة يوم ١٩ مايو ١٨٩٧. وبعد الإفراج عنه عادت ريما إلى عادتها القديمة. فسافر وايلد إلى مدينة نابولى بإيطاليا ليستأنف حياته مع اللورد دوجلاس. لقد ترك فيه السجن آثارا مدمرة أهمها فقدانه القدرة على الخلق والإبداع. واعترف بذلك لصديقه روبرت روس إذ قال له: «إن شيئا مات فى نفسى فلم أعد أشعر بأى رغبة فى الكتابة» . وفى تلك الآونة من حياته بلغه أن زوجته توفت في مدينة جنوة بإيطاليا فحزن عليها وشعر بالأسى لوفاتها. وفى إيطاليا حدثت قطيعة بين أوسكار وايلد وألفريد دوجلاس الذى هددته أمه بعدم الانفاق عليه إذا لم يرعو ويرجع عن غيه ويقطع كل صلة تربطه بوايلد. وأدرك وايلد أن صديقه لا يحبه لذاته بل يريد

أن يعيش عالة عليه، ومن ثم حدثت بينهما قطيعة بلا رجعة هذه المرة. وبعد أن افترق عن صديقه دوجلاس تدهورت أخلاق وايلد عن ذى قبل. فهجر الأدب والفن تماما وتفرغ لإرضاء أحط نزواته وأصبحت ممارسة الشذوذ الجنسى هدفه الأوحد فى الحياة كما أصبح يمارس الشذوذ الجنسى مع غلمان باريس وصبيتها بشكل فاجر وعلى عينك يا تاجر وبدون أدنى حياء أو خجل. وفى سبيل إرضاء نزواته تناسى جميع القيم التى أعلى من شأنها فى مبدأ حياته فلم يعد يقيم وزنا للأمانة والتهذيب والشرف. وعبثا حاول صديق له اسمه ارنست دوسون أن يعيده إلى حظيرة الممارسات الجنسية الطبيعية والسوية. فقد اصطحبه إلى بيت من بيوت الدعارة ولكن المومسات عجزن عن أن يستثرن فيه أى رغبة جنسية. وكذلك حاول الكاتب فرانك هاريس المعروف بغزواته الجنسية أن يبعده عن طريق الصبية والغلمان. ولكن وايلد أبى وجادله عن إقتناع كامل بأنه ليس فى الشذوذ الجنسى ما يشين فقد سار على نفس الدرب أباطرة كبار أمثال قيصر والأسكندر الأكبر وفنانون عظام أمثال مايكلانجلو وشكسبير. وتحدث مؤلفنا وكأنه نبى يبشر بمجيء عالم جديد تصبح فيه الممارسات الجنسية الشاذة أمرا طبيعيا ولا غبار عليه. يقول وايلد لفرانك هاريس فى

هذا الشأن : «إنني أؤمن ـ وهذا اعتقادى الراسخ ـ أن أحسن العقول حتى فى يومنا الراهن لاتدنينا أو تدفعنا وأن العالم أصبح أكثر تسامحا» ثم يضيف: «لست أشك فى أننا سوف ننتصر، ولكن الطريق طويل تتناثر عليه دماء الشهداء المروعة القانية.....».

ثم جاءت النهاية . فقد وافته المنية فى باريس يوم ٣٠ نوفمبر ١٩٠٠ . مات تائبا عن كل ما ارتكبه من ذنوب وأتى به من موبقات. وقبل وفاته بساعات وافقت الكنيسة الكاثوليكية ـ بعد طول إحجام وتردد ـ أن تضمه إلى صدرها وتعتبره واحدا منها. وسرعان ما نسى العالم شذوذه وتذكر فقط فنه العظيم. وكانت ألمانيا أول دولة تعترف بأياديه البيضاء على الفن والأدب. ففيها تحولت مسرحية «سالومى» إلى أوبرا خالدة وضع ألحانها الموسيقار الكبير ريتشارد ستراوس . وبعد مضى ستة أعوام على وفاته استطاع صديقه روبرت روس الذى دله على طريق الغواية أن يعيد إليه كرامته واعتباره .. فبعد أن دفعت له دور النشر الألمانية حقوق التأليف مقابل نشرها بعض أعمال وايلد استطاع هذا الصديق الوفى أن يجمع ما يكفى لسداد كل ديونه. وبهذا تمكن من إلغاء القرار الخاص بإشهار إفلاسه. وفى ألمانيا ظهرت طبعة من كتابه «من الأعماق» قبل ظهورها فى انجلترا. وكان النجاح

الذى أصابه كتابه «من الأعماق» المنشور عام ١٩٠٥ سببا مباشرا فى اهتمام الإنجليز بأدبه من جديد. وتحققت نبوءة روس الذى قال سوف يأتى يوم يصبح فيه منزل أوسكار وايلد فى تايت ستريت مزارا يؤمه الناس، وقد صدق ظنه. فبعد مضى ما يقرب من نصف قرن على وفاته قام مجلس مدينة لندن بإقامة لوحة تكريما للراحل العظيم بمناسبة مرور مائة عام على ميلاده. وقام السير كومبتون ماكنزى بإزاحة الستار عن هذه اللوحة فى ١٦ أكتوبر ١٩٥٤.

٣ ـ حول اللواط فى رواية

«صورة دوريان جراى»

تمهيـــــد :

عرفت الإنسانية ممارسة اللواط منذ فجر التاريخ، ويتضمن سفر التكوين أول تدوين لهذه الظاهرة فهو يحدثنا عن سدومة وعامورة وأهل لوط الذين أرسل الله إليهم ملكين لهدايتهما فلم يعبأوا بهما وظلوا فى غيهم سادرين فأنزل الله بهم العقاب بأن دمر مدائنهم وأصاب أهلها بالعمى، يقول المؤرخ الرومانى ليفيتيكوس إن القوانين نصت على إعدام كل من يتم ضبطه وهو يمارس الشذوذ الجنسى، وقد ظلت عقوبة الإعدام قائمة فى القانون البريطانى حتى عام ١٨٢٨ كما ظلت بعض أحكام الإعدام لهذا السبب تنفذ فى انجلترا إلى وقت متأخر حتى عام ١٨١١. ونحن نرى الروائى الانجليزى سموليت الذى نشر رواية رودريك راندوم عام ١٧٤٨ يتحسر على انتشار اللواط فى عصره ويقول إنه قريبا سيأتى اليوم عندما تصبح ممارسة اللواط أكثر انتشارا

من ممارسة الزنا. وفي عام ١٨٨٥ أدخلت بعض التعديلات على القانون الجنائي في بريطانيا فقضت بأن تكون أقصى عقوبة للواط على النحو التالي: السجن مدى الحياة للممارسة الفعلية والسجن لمدة عشرة أعوام لمحاولة ممارستها والسجن سنتان مع الشغل الشاق للتصرف البذيء والخادش للحياء . وهذه المادة الأخيرة التي حوكم أوسكار وايلد بمقتضاها وكانت النتيجة أن حكمت المحكمة عليه بسنتين حبس مع الأشغال كما سبق أن رأينا. والجدير بالذكر أن قسوة الحكم الصادر ضده دفعت أمثاله إلى توخي الحذر الشديد عند الإتيان بهذه الممارسات الشاذة . وبحلول عام ١٩٥٧ صدر تقرير قانوني يعرف بتقرير وولفندن بعدم اعتبار الشذوذ الجنسي جريمة جنائية مادام أن الممارسين له في سن الرشد ويفعلون هذا برضائهم وفي الخفاء. وهي توصيات تضمنها فيما بعد قانون الجرائم الجنسية لعام ١٩٦٧ , والجدير بالذكر أن هذا القانون يطبق في انجلترا وويلز ولا يطبق على اسكتلندا وأيرلندا.

«صورة دوريان جراي» :

يتناول السواد الأعظم من النقاد «صورة دوريان جراي» على أنها رواية تصور المذهب الجمالي الداعي إلى الفن للفن. ويسعى النقاد إلى تتبع أثر الرواية القوطية فيها ابتداء من بلزاك وإدجار

آلان بو حتى والتر باتر وهيوزمانز ولا يخطر ببال هؤلاء النقاد فى العادة أن يعالجوا هذه الرواية باعتبار أنها تدور حول الشذوذ الجنسى ولكن باعتبارها عملا أدبيا فحسب . ويقول روبرت كروت ـ كوك فى أحدث سيرة حياة صدرت عن وايلد فى لندن عام ١٩٧٢ أن مؤلفنا استمد اثنين من أهم شخصيات روايته من الواقع فالفنان باسيل هولوورد هو الفنان تشارلس شانون الذى عاش فى حياة زوجية سعيدة مع رجل آخر هو تشارلس ريكتس. كما أن اللورد هنرى ووتون هو اللورد روناك جوور. فضلا عن ذلك فالرواية باعتراف أوسكار وايلد تعكس شخصيته. يقول وايلد فى هذا الشأن: «إن شخصية دوريان جراى تحتوى على جانب كبير من شخصيتى. فباسيل هولوورد هو ما أظن أنه شخصيتى واللورد هنرى يمثل ما يظن العالم أنه شخصيتى فى حين أن دوريان جراى يمثل ما أحب أن أكون عليه». وهناك فى الرواية فقرة تتضمن مقت دوريان جراى لما يتعرض له الإنسان من كبت يلحق بصاحبه أضرارا تفوق ما يلحقه به الانحلال. وليس من شك أن هذه الفقرة تشير إلى قسوة العقوبات القانونية فى أواخر العصر الفكتورى أى فى أواخر القرن التاسع عشر .

«استعرض (دوريان جراى) حركة الإنسان عبر التاريخ فاستولى عليه إحساس بالضياع. لقد فرط الإنسان فى الكثير وبدون أى جدوى واضحة. لقد عرف الإنسان أنواعا من الرفض المتشبث المجنون وأشكالا مروعة من تعذيب النفس وإنكار الذات اللذين ينبعان من الخوف واللذين يؤديان إلى ذلة أفظع بكثير وكثير جدا من الذلة الموهومة التى يسعى المرء فى جهله إلى الهروب منها. ويذهب الناقد الكبير إلى أن هناك تعارضا يتعذر التوفيق بينه وبين هذه الجوانب المتنافرة فى شخصية المؤلف. فالفنان الرقيق القلب والمتفائل هولوورد يمثل المثل الأعلى التى تسعى الرواية إلى تحقيقه .. وهو تعلم الإنسان أن يركز على لحظات الحياة التى لا تعدو فى حد ذاتها أن تكون لحظة وأن يجد أن أقصى ما تحققه الحياة هو إضفاء الروحانية عليها».

ولكن هولوورد يلقى مصرعه على يد نقيض له تماما هو دوريان جراى الذى يعيش عيشة الفجور والتهتك. ومن ناحية أخرى لا يمكن للقارىء أن يأخذ أفكار ووتون الذى يحرض دوريان على ارتكاب المعاصى ويسير فى طريق الغواية مأخذ الجد بسبب ما يتسم به من سلبية واضحة . كما أنه يعيش عيشة الفسق والمجون بالنيابة ، بمعنى أنه يحرض دوريان جراى على ارتكاب الفواحش. فلا غرو إذا رأينا هولوورد يقول للورد ووتون: «أنت لا تقول شيئا

أخلاقيا أبدا كما أنك لا تفعل شيئا رديئا أبدا. إن تشكك فى نوازع البشر مجرد تظاهر». الرواية لاتكف عن إخبارنا بأن دوريان جراى يستمتع بإفساد الشباب دون تحديد لطبيعة هذا الفساد ونوعه. فالرواية لا تحكى لنا الأعمال الفاسدة التى يأتى بها دوريان جراى.

وهناك شواهد تدل على أن المؤلف استوحى روايته من تجاربه الذاتية وسيرة حياته. يقول كوك فى سيرة حياة أوسكار وايلد التى سبق الإشارة إليها:

«عندما انتهى وقت جلسة مستر وايلد أمام الرسام الذى قام برسم بورتريه له ونظر فى صورته جال فى باله أن الشىء الجميل إذا اتخذ شكل جنتلمان فى منتصف العمر لا يمكن أن يكون مصدر فرحه الدائم. ثم صاح وايلد قائلا: «ياله من أمر فاجع. هذه الصورة لن تتقدم فى السن أو تشيخ أبدا فى حين أن الشيخوخة سوف تدركنى)». وبعدئذ التجأ وايلد إلى الإنشاء النثرى ليعبر فيه عن هذه العاطفة المتأججة التى اجتاحت روحه وكانت النتيجة أنه قام بتأليف دوريان جراى.

هذا ما نجده بالحرف الواحد مذكورا فى روايته . فعندما انتهى الرسام باسيل هولوورد من رسم صورة دوريان جراى

حملق هذا الشاب فيها وعلق بقوله: «يا له من أمر حزين. فسوف يتقدم بى العمر وسوف أصبح إنسانا بشعا ومروعا. ولكن هذه الصورة سوف تظل دوما على بهائها. آه لو حدث العكس وقيض لى أن احتفظ بشبابى دائما وأن يدرك الهرم صورتى بدلا منى . عندئذ سأكون على أتم استعداد لأن أدفع روحى ثمنا لهذا. واستجاب القدر أو الشيطان لطلبه فمنحه شبابا دائما ونضيرا بلا روح مكنه من إيقاع الرجال والنساء فى غرامه دون أن يتعين عليه أن يبادلهم الحب».

ويضفى تعاطى المخدرات جوا خاصا على الرواية ففى الصفحة الأولى نشم رائحة الأفيون تنبعث من لفافات التبغ كما أن دوريان جراى شم زهرة قبيل إقدامه على قتل صديقه الفنان هولوورد. هذا الجو الذى يفوح بعبق الأفيون يقترن بالفساد. وتشير الرواية من طرف خفى إلى أن الرسام هولوورد عندما وقعت أنظاره لأول مرة على دوريان جراى اجتاز أزمة نفسية وتعرض لإغراء جنسي. يقول هولوورد عن لحظة اللقاء أنه شعر بالخوف يعتريه وأنه على شفا محنة. ويعترف هولوورد بأنه يعبد دوريان جراى ولا يمكنه الاستغناء عنه ويقارن بين حبه لدوريان جراى والحب الذى كابده ميكلا نجلو وشكسبير. إن هولوورد لم يكن

بحاجة إلى دوريان جراى من أجل الإلهام الفنى فحسب بل أيضا كشريك يسيطر على علاقتهما السادية ـ الماسوكية. يقول هولوورد فى هذا الشأن: «إن أهواء دوريان ونزواته قانون بالنسبة لكل الناس إلا نفسه ... إنه لا يقيم اعتبارا أو وزنا للآخرين على نحو بشع ويبدو أنه يجد متعة حقيقية فى إيلامى».

ويرى جيفرى مايرز أن الفنان هولوورد يمثل الشذوذ الذى يتسم بالمثالية فى حين أن اللورد ووتون ليس سوى رجل فاسد وشاذ جنسيا. واستطاع ووتون الاستحواذ على دوريان بمجرد أن قدمه هولوورد إليه وساعد على هذا برم دوريان بغيرة الرسام الشديدة وعنف ولائه وإخلاصه وإفراطه فى تقريظه وعزوفه عن الكلام بطريقة غريبة، وقد نجح ووتون فى استغلال هذا الشاب بجمال صورته فدفعه نحو الهاوية الأخلاقية.

وعندما تتناول الرواية علاقة اللورد بزوجته التى طلقت منه نراها تحكى لنا أن هذا اللورد كان يخون زوجته من أجل دوريان جراى دون أن يكترث بخيانة زوجته له ، حتى الإشارات المتكررة للإغريق لها دلالتها فمن المعروف أن الشذوذ الجنسى بين الذكور كان عند الإغريق أمرا مستقرا وتقليدا راسخا. وكما نجد فى بعض فلسفات الإغريق هناك تناسق بين ظاهر الإنسان وباطنه

وبين شكله وطبيعته. تقول إحدى شخصيات الرواية إن الناس الأشرار هم أناس طاعنون فى السن وشديدو القبح. ونفس الشىء ينطبق على دوريان جراى الذى ظهرت البشاعة على صورته.. بقدر ما اقترف من جرائم، ونحن نرى فى الرواية أن دوريان يخدع نفسه عندما يظن أن بإمكانه أن يحب امرأة ولا ينبغى علينا أن ننسى أن دوريان عندما شاهد فتاته سيبيل تمثل على المسرح دور روزاليند فى مسرحية شكسبير المعروفة «كما تهوى» لا تروق أو تستهويه كامرأة بل كغلام يستثير فيه نزعته نحو المثلية. يقول دوريان فى هذا الصدد: «خرجت وهى ترتدى ملابس صبى وكانت آية فى الروعة، إنها لم تبد فى نظرى بمثل هذا الإبداع قط». ودوريان جراى يفضل الوهم على الحقيقة. فبعد أن تخلى الرسام هولوورد عن رسم هذا الشاب على نحو مثالى وبدأ يصوره على نحو واقعى أخذت الصداقة بينهما تنهار. وأيضا أحب دوريان الممثلة سيبيل عندما كانت تعيش فى عالم الوهم وتقوم بتمثيل أدوارها المسرحية التافهة. فقد كان حريصا على أن يراها كطيف أو حلم يداعب الخيال وليس كامرأة من لحم ودم. وبعد أن أحبت سيبيل دوريان تحولت إلى امرأة من شحم ولحم فأعرض عنها هذا الشاب لأنه كان يفضل أن يراها كطيف من صنع الخيال. يقول

جيفرى مايرز فى هذا الشأن أن وايلد تأثر تأثرا واضحا بالأفكار التى عبر عنها الكاتب هيوزمانز الذى يدافع عن الشذوذ الجنسى فى كتابه «ضد الطبيعة» والجدير بالذكر أن هيوزمانز فى كتابه يربط بين الشذوذ الجنسى (وهو نشاط محرم ومعاد للمجتمع) وبين الإبداع الفنى. والرأى عنده أن شواذ الجنس يحيطون أنفسهم بجو معقد من الأوهام من شأنه أن يضفى روحانية على الحواس. وحتى يحكم اللورد ووتون السيطرة على دوريان جراى نراه يهديه نسخة من كتاب مدمر للأخلاق هو كتاب هيوزمانز «ضد الطبيعة» الذى رأى فيه دوريان صورة دقيقة لحياته حتى قبل أن يولد. وراقت أفكار الكتاب فى نظره لأنها قدمت تبريرا على الصعيدين الجمالى والفنى للممارسات الجنسية الشاذة. وقد عبر وايلد عن تأثره الواضح بأفكار هيوزمانز بقوله إن «صورة دوريان جراى» ليست سوى تنويع خيالى للدراسة المفرطة فى الواقعية التى قدمها هيوزمانز عن طبيعة الفنان فى عالم يناصب الفن العداء. ورغم أن دوريان حمل هذا الكتاب وزر إفساده فإن هذا الكتاب لم يفعل أكثر من تأكيد الجوانب الفاسدة فيه أصلا. وتمثل الصورة التى رسمها هولوورد لدوريان جراى حب هذا الشاب الشديد لنفسه بقدر ما تمثل مقته الشديد للذات. فضلا عن أنه

يرزح تحت وطأة الإحساس الشديد بالذنب. ويختلف موقف اللورد ووتون عن موقف الرسام هولوورد إزاء حب دوريان جراى للممثلة سيبيل. فقد أثار هذا الحب فى هولوورد إحساسه الشديد بالغيرة ولكنه فضل هذا الحب على أن ينصرف دوريان إلى حب رجل آخر. أما اللورد ووتون فلم يأبه أو يكترث به مطلقا ولم يحس نحوه بأدنى غيرة لأنه كان متأكدا أن دوريان عاجز عن أن يحب أية امرأة. ويفسر هذا قسوته فى معاملة كل من ضحيتيه النسائيتين سيبيل وهيتى وهجرانه لهما، الأمر الذى جعلاهما تتخلصان من حياتهما. فضلا عن أن عددا من الرجال أقدم على الانتحار بسبب تورطهم معه فى فضائح وعلاقات جنسية غير سوية. ومما يؤكد نزعاته الجنسية الشاذة أنه عاش مع اللورد ووتون فى الجزائر تحت سقف بيت واحد بعيدا عن عين القانون الساهرة. بالإضافة إلى أنه خالط أو شاب الناس وحثالتهم فى المواخير المخصصة لدعارة الذكور.

إن رواية «صورة دوريان جراى» تعلى من شأن الرذيلة وتمجد الشر على نحو يذكرنا بديوان بودلير المعروف «أزهار الشر» . ورغم أن وايلد فى مقدمة روايته ينكر أن هناك كتبا أخلاقية وكتبا غير أخلاقية فقد كتب عام ١٨٩٠ يقول إن ضمير دوريان كان يعذبه لدرجة أفسدت عليه اجتناء اللذة كما أنه قتل نفسه فى سعيه إلى

قتل ضميره. والغريب أن وايلد الذى بدأ روايته بالدفاع عن الحرية الجنسية الكاملة أنهاها على نحو أخلاقى بأن جعل الشذوذ الجنسى مرادفا للشر غير المحدد المعالم.

لقد عجز وايلد عن التوفيق بين رغبته فى ممارسة الشذوذ الجنسي دون رادع أو ضابط ولكنه خاف فى نفس الوقت من إدانة المجتمع له. ويتضح لنا هذا من موقفه من الصورة. فهو يلهو كما يشاء مادامت الصورة كانت مخبأة فى مكان أمين ولكن صفو حياته يتلبد بالغيوم حين يشعر بأنه مهدد باكتشاف أمره وأمر الصورة معا. لقد تأثر أندريه جيد بأوسكار وايلد فى حياته وأدبه تأثرا واضحا كما انبهر بأحاديثه الطلية ونكاته وملحه الذكية غير أن أسلوب وايلد فى الكتابة لم يرق له فقد وجده مفتعلا ومنقولا عن أساليب الآخرين. والرأى عند جيد أن فكرة رواية «صورة دوريان جراى». بديعة فى منشأها وأكثر تميزا وأهمية من رواية «جلد الحزين» لبلزاك ولكن المؤلف أفسد تحفته الأدبية فهى تمنع عواطف القارىء من الانسياب وتصيبه بالعمى بسبب شدة انبهاره بسطحها. فضلا عن أنه يفقد تلك العاطفة المحورية العميقة التى تدور حولها أحداث الرواية.

القسم الثانى

١ ـ آرثر رامبو (١٨٥٤ ـ ١٨٩١)

اسمه بالكامل جان نيكولاس آرثر رامبو. إذا قلت عنه إنه شيطان رجيم كنت من الصادقين. وإذا قلت إنه صوفى يسعى إلى النورانية والشفافية الروحية فأنت أيضا من الصادقين ، علمه ربيبه الشاعر بول فيرلين الفسق والمجون الشاذ فبز أستاذه وتفوق عليه. تمرد رامبو على الغرب وحضارته فلفظه الغرب وأزور عنه وأراد بدوره أن يثأر من المجتمع الذى لفظه فتعمد بكامل وعيه وإدراكه أن يقهر بدنه ويفرض عليه العهر لا سعيا وراء لذة يحسها بقدر ما كان رغبة من جانبه فى أن يسوم بدنه مر العذاب. وكأنه يريد أن يتقرب من الله عن طريق العهر والشذوذ. ولكن الويل كل الويل لمن يظن أنه ند للآلهة فانتقامها جبار لا يعرف الرحمة فلا غرو إذا رأيناه فى أخريات .أيامه يتحول إلى رجل عاجز كسيح يفتك به المرض والوهن. وكأن الآلهة عاقبته لأنه كفر بها وأعلن العصيان عليها واستهزأ بها فى أبذأ لغة يمكن للإنسان أن يتصورها والمهم من هذا وذاك أنه معجزة شاعرية لا نظير لها فى آداب العالم. فلم تعرف الإنسانية شاعرا يبدأ حياته الشعرية وهو مراهق فى نحو الخامسة عشرة ثم يختمها وهو شاب لايزيد عمره على تسعة عشر عاما، ولكنه استطاع فى خلال هذه

الســـنوات الأربع أو الخمس على أكثـر تقدير أن يحفر لنفسه مكانا بين الخالدين.

نشأتـــــه :

ولد آرثر رامبو يوم ٢٠ أكتوبر عام ١٨٥٤ تحت كوكب منحوس في قرية صغيرة ولكنها جميلة اسمها قرية شارلفيل الفرنسية القريبة من الحدود البلجيكية. ومن النادر أن نجد أما في مثل قسوة والدته ماري كاترين فيليسيتيه فيتالي كويف تلك المرأة الرهيبة في تسلطها وتزمتها وينم مظهرها عن جمود العواطف وتحجرها. ولكن بعض الدارسين يلتمسون لها العذر ويذهبون إلى أنها ليست متحجرة العواطف مثلما تبدو. أما أبوه فكان يختلف عن أمه تماما. فهو يعشق الحياة ويحب المرح ويميل إلى معاشرة الناس. اشترك والد رامبو في الحملة الفرنسية على الجزائر ثم أرسلته القيادة العسكرية في القرم وإيطاليا، وبسبب حنكته وحكمته بل وإنسانيته في معاملة الجزائريين عهد إليه الجيش الفرنسي بتولي أحد المناصب الإدارية الرفيعة رغم أنه كان مجرد جاويش عندما انخرط في الحياة العسكرية. وكانت لوالد الشاعر نزعات أدبية واضحة فقد كتب مجموعة من الكتب لم تر طريقها إلى النشر. فضلا عن أنه أتقن اللغة العربية وترجم القرآن إلى الفرنسية. وساعدت هذه الترجمة ابنه الشاعر فيما بعد في دراسة

اللغة العربية، ولم يكن الرجل سعيدا فى زواجه فآثر أن يختفى من وجه زوجته إلى الأبد تاركا وراءه خمسة أطفال هم على التوالى فردريك وآرثر ثم ثلاث بنات ماتت البنت الكبرى فى طفولتها ثم ولدت بعدها فيتالى وايزابيلا التى تعلق بهما قلب الشاعر فى أخريات أيامه . وفى بعض الأحيان كان الأبوان يتشاجران ويقذفان بعضهما البعض بالأوانى الفضية والمعدنية. الأمر الذى روع الطفل آرثر وبث فى قلبه الفزع. وبعد اختفاء زوجها آلت المرأة على نفسها تنشئة أولادها على النحو القاسى والمتشدد الذى تميزت به وكان همها الأول والأخير تربية أبنائها على الجد والصرامة وتطهيرهم من كل عيب أو ضعف.

كان الشاعر فى السادسة عندما خرج والده من البيت ولم يعد. وعلى أية حال كان ظهوره فى البيت حتى فى الأحوال الطبيعية قليلا بسبب انتقاله المستمر من بلدة إلى أخرى. وباختفائه اختفى من حياة الشاعر وحياة أخوته كل أثر للدفء الإنسانى فقد كانت مشاعر الأم باردة برودة الموت. الأمر الذى جعل الصبى يشعر بالوحدة والوحشة والافتقار إلى الحب والحنان منذ نعومة أظفاره وحاولت الأم أن تبعد آرثر عن صحبة أولاد الشوارع حتى لا تتلوث شخصيته بخشونتهم وفظاظتهم وحتى لا

يتعلم منهم البذاءة وبدا الابن مثالا للهدوء والدماثة والانصياع لأمه ومدرسيه الأمر الذى جعلها تنخدع بمظهره الوديع المطيع. ولم تدر أن مراجل التمرد والسخط تعتمل فى دخيلته على نحو ينذر بالانفجار. وأن الملاك البرىء يخفى وراءه شيطانا رجيما.

دأبت الأم على محاصرة ولديها والتضييق عليهما بصورة مروعة تحدوها الرغبة فى وقايتهما من أصدقاء السوء. ولهذا كانت تنتظر أرثر على باب المدرسة عند خروجه منها حتى تضمن عدم اختلاطه بهم وظلت الأم لا تسمح لولديها بالرجوع إلى البيت وحدهما إلا بعد بلوغهما سن الخامسة عشرة وكانت تشرف بنفسها على مراجعة طفليها لدروسهما ولم تتورع عن صفع أرثر على وجهه إذا أخطأ فى حفظ دروسه. وذات ليلة حرمته من وجبة العشاء لأنه أخطأ خطأ بسيطا فى حفظ مئات الأبيات من الشعر اللاتينى عن ظهر قلب. فلا غرو إذا رأيناه يكره المدرسة وواجباته المدرسية وعندما أراد أن يخلو إلى نفسه لم يجد مكانا يهرب فيه من جو البيت الخانق سوى المراحيض خارج البيت يمكث فيها الساعات الطوال يسرح بخياله ويترك العنان لأفكاره. وهكذا لجأ الصبى إلى خياله الواسع العريض يلوذ به من غلظة أمه ومعاملتها القاسية التى لا ترحم. ورغم أنه لم ير البحر قط حتى ذلك الوقت

فقد رأى فيه أمله فى الحرية والانطلاق والمغامرة. وكان فى طفولته يتصور فى خياله أن فراشه قد تحول إلى بحر هادىء تستقر الوحوش الكاسرة فى قاعه المليء بالصخور والأعشاب ، فيمنع أخاه فردريك من القيام بأدنى حركة حتى لا يحرك سطحه الساكن ولا تتلاطم أمواجه.

والجدير بالذكر أن موهبته الأدبية ظهرت فى وقت باكر للغاية ففى الثامنة من عمره كتب مقالا طويلا ينم عن تأثره بالنثر الرومانسى الفرنسى يتميز بسلاسة لغته وقدرته المذهلة على الوصف. وقد بلغ إيمانه آنذاك بالدين مبلغا جعله يتشاجر مع بعض الصبية الذين رآهم يعبثون بماء الكنيسة الذى صلى عليه الكاهن ويرشون به بعضهم البعض. فتكاثر عليه هؤلاء الصبية وأعطوه علقة ساخنة لا يمكن نسيانها. وفى المدرسة أذهل آرثر مدرسه عندما قدم إليه ملخصا تاريخيا عن مصر وسوريا وبابل فى الأزمنة القديمة يتميز بحسن العرض ونضوج الفكر مما لا يتناسب مع صغر سنه. ورغم مقته للحياة المدرسية فقد ترك مدرسه المسيو ليرتييه أفضل الأثر فقد غرس فيه عشق الآداب الكلاسيكية سواء كانت إغريقية أم لاتينية أم فرنسية. واستطاع الصبى أن يتفوق على جميع أقرانه فى المدرسة الأمر الذى جعل

مدرسيه وجميع زملائه يحترمونه ويبجلونه وعوضه ذلك عن إذلال أمه له وصفعاتها المهينة لكرامته والجارحة لكبريائه.

وفي الخامسة عشرة من عمره نجح آرثر رامبو في نشر قصيدة له بعنوان «هدية اليتيم في العام الجديد» في يناير ١٨٧٠ ويمثل هذا العام تاريخا بالغ الأهمية في حياة الغلام الشاعر. فقد جاء فيه إلى مدرسة شارلفيل مدرس شاعر اسمه جورج إزامبارد ترك في نفسه أعمق الأثر. وسرعان ما توثقت العلاقة بين هذا المدرس وتلميذه وساعد على هذا أن فارق السن بينهما لم يكن كبيرا. وأنس الغلام لمدرسه فاعترف له أن حبه للقراءة يدفعه إلى التحايل للحصول على الكتب ويمنعه ضيق ذات اليد من اقتنائها. فهو يأخذها من خلف ظهور أصحاب المكتبات لقراءتها ثم إعادتها إلى مكانها غير أن الخوف من افتضاح أمره كان يمنعه في كثير من الأحيان من إعادتها لأصحابها. ولهذا أشفق عليه إزامبارد وسمح له باستعارة مايشاء من الكتب من مكتبته الخاصة. وأرشده إزامبارد في مطالعاته في الأدبين الإغريقي واللاتيني وفي قراءة أعمال الأدباء الفرنسيين أمثال رابيليه ومونتسكيو وفولتير وروسو وهيليفيتون . وفي يوم من الأيام استاءت أمه عندما وجدته مستغرقا في قراءة رواية البؤساء لفكتور هيجو. فأرسلت خطابا

إلى إزامبارد تلومه فيه على سماحه لابنها بقراءة مثل هذه الكتب السيئة. علما بأنه سبق للأم أن شكت إلى إدارة المدرسة أن زميلاً لابنها في الدراسة أقرضه كتابا سيىء الأثر ومدمرا للأخلاق العامة من تأليف ألفريد موسيه بعنوان «اعترافات ابن القرن». وحمّلت الأم إدارة المدرسة مسئولية هذا التقصير والتهاون. ولم يكترث ازامبارد بتوبيخ الأم له واستمر في إقراض ابنها عيون الأدب الفرنسي . وحتى يتجنب الابن الدخول في مشكلات مع امه لجأ إلى قراءة الكتب في بيت أستاذه. وعندما عرض الغلام الشاعر قصيدة «هدية اليتيم في العام الجديد» على أستاذه شجعه على المضي في كتابة المزيد من القصائد. ويرجع الفضل إلى إزامبارد في أن رامبو ألف في نفس العام القصائد التالية: «إحساس» و«الحداد» و«العقيدة في أونام » و«أوفيليا» و«رقصة بندوس» و«موتى فالمى» و«عقاب ترتوف» و«فينوس أناديومين» ثم «الذى يمنع نينا» و«بمصاحبة الموسيقى» و«كوميديا في ثلاث قبلات». والجدير بالذكر أن باكورة شعر رامبو تدل على شدة تأثره بشعراء مدرسة جيل بارناسوس واحتذائه حذوهم. وقد نادى هؤلاء الشعراء بنظرية الفن للفن ونشـروا أسفارهم في مجلة «البارناسوس المعاصرة» ويعتبر جوتييه ودى بانفيل وكوبيه من

رواد هذه الحركة الأدبية . فى مايو ١٨٧٠ أرسل الغلام رامبو أول خطاب له إلى الشاعر تيودور دى بانفيل رئيس تحرير مجلة «البارناسوس المعاصرة» وبرفقته قصيدته الطويلة «العقيدة فى أونام» وقصيدتيه القصيرتين «أوفيليا» و«إحساس» طالبا إليه فى أدب جم أن ينشرها . غير أن دى بانفيل اعتذر عن النشر بسبب ضيق المساحة وكثرة القصائد التى تقرر نشرها . ولعلنا لا ننسى أن عام ١٨٧٠ شهد أحداثا مهمة فى حياة رامبو على رأسها انتصاراته الدراسية الساحقة التى أهلته للحصول على الجوائز وهربه لأول مرة إلى باريس وهربه للمرة الثانية إلى بروكسل فى بلجيكا ثم ذهابه إلى مدينة دوواى حيث تعيش عمات مدرسه ازامبارد وهو ماسوف نعود إلى ذكره على نحو أكثر تفصيلا. وقد تعرف رامبو على صديقه ذواقة الأدب أوجست برتيانى فى ربيع ١٨٧٠ الذى لعب دورا كبيرا فى صياغة حياته وتشكيلها . وتنتمى قصيدتاه «شعراء فى السابعة من أعمارهم» و«فى بيت عمات إزامبارد» إلى تلك الفترة. وإن نسينا فلا ننسى أن تلك الفترة من حياته شهدت إندلاع ألسنة الحرب الفرنسية ـ البروسية التى انتهت بهزيمة فرنسا النكراء واستسلامها المهين أمام الألمان . ويجدر بنا أن نؤكد أن تلك الفترة التى لم يبلغ فيها الشاعر بعد

السادسة عشرة من عمره مرحلة قائمة بذاتها من مراحل تطوره الشعرى، وهى مرحلة تميزت ـ كما أسلفنا ـ بالمحافظة والتقليد والافتقار إلى الأصالة واقتفاء أثر مدرسة البارناسوسيين . وفى الأجازة المدرسية لصيف عام ١٨٧٠ تعرضت مدينة تشارلفيل التى تعيش فيها أسرة الشاعر لمخاطر الحرب بسبب قربها من منطقة القتال وألقت الحرب بظلالها الثقيلة والكئيبة على حياة رامبو. وأراد إزامبارد أن يخفف عنه ويهون عليه فسمح له بزيارة شقته أثناء غيابه عنها فى باريس للاطلاع على محتويات مكتبته الصغيرة التى لم يمر شهر واحد حتى التهم ما فيها من كتب. فبدأ الضجر والبرم يعاودانه. ويعبر رامبو فى قصيدته «بمصاحبة الموسيقى» عن سخطه على الحياة البورجوازية ومسلماتها واشمئزازه من رضاء الطبقة البورجوازية عن نفسها. وتعتبر هذه القصيدة نموذجا لأسلوبه المتهكم الساخر.

وبقدر ما كان الشاعر فى طفولته وصباه مثالا يحتذى فى الدماثة والطاعة والامتثال بقدر ما كان أخوه فردريك الذى يكبره بأقل من عام مثلا حيا على التمرد والعصيان لدرجة أن أمه رغم قوة شكيمتها يئست من إصلاح ما اعوج من شأنه وركزت على آرثر حتى يعوضها عن خسارتها عن ضياع ابنها الكبير. وفى أحد

الأيام شاه . فردريك فرقة من العساكر الفرنسيين تجتاز شوارع شارلفيل طريقها إلى جبهة القتال فتسلل هذا الابن العاق إلى صفوفها دون أن يحس به أحد واستقل القطار لينضم إلى الفرقة المتجهة إلى أرض المعركة. وعندما اكتشف الضباط المسئولون أمره عجبوا من جرأته ولكنهم شعروا في نفس الوقت بنوع من العطف عليه والرغبة في مساعدته فألحقوه بالفرقة كجندى إضافي. وبهذا تمكن فردريك من التخلص من استبداد أمه وسيطرتها عليه. وشجع هذا التصرف الأخ الأصغر أن يحذو حذو الأخ الأكبر. ففي يوم ٢٨ أغسطس عام ١٨٧٠ على وجه التحديد كان آرثر يسير برفقة أمه وأختيه في المراعي المحيطة بنهر الميز. وفجأة ودون أية مقدمات إدعى آرثر أنه يريد العودة إلى البيت ليحضر كتابا يقرؤه. ولكنه ذهب ولم يُعد فقد ركب القطار المتجه إلى باريس دون أن يكون معه تذكرة سفر أو في جيبه فرنك واحد. فتم القبض عليه وإحالته إلى قسم البوليس. ولم تجد الشرطة معه أية أوراق تثبت شخصيته. ورفض الغلام الإدلاء باسمه وعنوانه. فزج البوليس به لمدة أسبوع في الحجز تمهيدا لتقديمه إلى المحاكمة. وعندما اقترب موعد المحاكمة زال عنه تظاهره بالتماسك وانهارت قواه وأصابه الذعر فسارع إلى إرسال خطاب

إلى ازامبارد يطلب منه أن يخف لنجدته. ولم يضن عليه مدرسه بالمساعدة فأرسل إلى البوليس المبلغ المطلوب لإخلاء سبيله ورجا مدير السجن أن يعيد الغلام إلى أهله في مدينة تشارلفيل أو ـ في حالة تعذر هذا بسبب ظروف الحرب ـ إلى مدينة دوواى حيث تعيش عمات ازامبارد الثلاث. وبالفعل مكث الغلام مع عمات مدرسه إزامبارد لمدة ثلاثة أسابيع. ورغم أن هذه الآنسات العانسات استلطفنه ورغبن في استمراره معهن فقد خشي إزامبارد على نفسه فأصر على إرجاعه إلى ذويه تجنبا للمسئولية وتحاشيا للمشكلات، وكتب ازامبارد للأم يخبرها بأن ولدها بخير وأنه يعيش في أمان مع عماته. وهاجت الأم وماجت وأرسلت ردا غاضبا ومهينا للغلام وأصر الغلام على عدم الرجوع إلى أمه فاضطر مدرسه للضغط عليه كي يعود إلى أهله. ولكن آرثر رفض بوقاحة وسلاطة لسان أن يستجيب له. فاشتد معه ازامبارد واضطره إلى الامتثال. وما أن عاد الغلام إلى أمه حتى كالت لإزامبارد السباب والشتائم وشدت ولدها من أذنه وجرته إلى داخل البيت. وبمجرد أن فرغ ازامبارد من أداء مهمته الشاقة حتى سارع بالإنصراف ومضى إلى حال سبيله وهو يتمنى في قرارة قلبه ألا يرى هذه المرأة الفظة مرة أخرى. ولم تمر بضعة أيام حتى تلقى ازامبارد رسالة من أم الغلام تستغيث به فقد هرب

ابنها للمرة الثانية ولم تعرف له مكانا. وبسبب قلقه على مصير الغلام الذى تعلق قلبه به استجاب إزامبارد لطلب الأم. وبعد البحث والتحرى اتضح أن الغلام سار دون طعام أو زاد على قدميه من فرنسا حتى عبر الحدود البلجيكية ووصل إلى بروكسل فى حذاء ممزق وثياب مهلهلة. وفى بروكسل توجه الغلام إلى عنوان صديق لإزامبارد عرف من أستاذه بالمصادفة أنه يعيش هناك. وادعى الغلام لصديق ازامبارد أن أهله أرسلوه إلى بروكسل لإتمام تعليمه وأنه فقد كل نقوده فى الطريق. فأعطاه الرجل ثيابا نظيفة ومبلغا من المال. وفى صبيحة اليوم التالى لمبيته فى بيت هذا الرجل انصرف الغلام دون أن يكشف عن خط سيره. ثم توجه من تلقاء نفسه إلى بيت عمات إزامبارد الثلاث. وفرحت تلك العانسات عندما فوجئن به أمامهن. وعندما أتى إزامبارد لزيارة عماته فوجىء هو أيضا بوجود تلميذه. وأراد الأستاذ أن يقرع تلميذه على مسلكه السيىء والطائش ولكن قلبه لم يطاوعه عندما رآه مثل طالب مثالي نجيب منكبا في هدوء شامل وعناية بالغة على تبييض مجموعة من قصائده التى كتبها فى فترة صعلكته فى كل من فرنسا وبلجيكا. وهى قصائد تمثل تقدما واضحا على قصائده السابقة كما أنها تعبر بشكل واضح عن شخصية الشاعر. ورغم

ما تعرض له الغلام من جوع ومشقة في تلك الفترة التي دامت أسبوعين فقد عرف فيها السعادة والحرية والانطلاق وخلو البال بصورة ليس لها مثيل في كل حياته. وقد انعكست هذه السعادة في أشعار تلك الفترة التي تنم عن البراءة. وتشمل أشعار هذه الفترة على القصائد التالية: «المذعورون» و«المد» و «الكاباريه الأخضر» بالإضافة إلى قصائد من وحي أوضاع بلاده السياسية مثل «الشر» و«سودة غضب قيصر» و«انتصار ساربروك الكاسح» و«النائم في الوادي» . ولما عرف إزامبارد مكان هذا الابن العاق رأى من واجبه أن يبلغ أمه به حتى يطمئنها عليه. ولكن الأم هذه المرة رفضت أن تدفع نفقات عودته إليها وأصرت على تأديبه وإرجاعه عن طريق أقسام البوليس. وأراد ازامبارد أن يجنب الغلام البهدلة فتوجه إلى قسم البوليس وانتزع من رجل الشرطة المنوط به تسليم الغلام إلى أهله وعدا بحسن معاملته وعدم الإساءة إليه. والجدير بالذكر أن الفترة الباكرة في حياة رامبو الشعرية (وهي الفترة التي احتذى فيها حذو الشعراء البارناسوسيين) تميز قريضه منها بالنقاوة والبعد عن البذاءة والفحش والسوقية وهو ما سوف نجده في شعره في المرحلة اللاحقة التي نبذ فيها الدين وجميع مبادىء الأخلاق وتجرأ على الذات الإلهية.

الملاك الطاهر يتحول إلى شيطان رجيم:

شعر الفرنسيون بهوانهم القومى عندما اندحرت قوات الامبراطور نابليون الثالث عام ١٨٧٠ فى سيدان أمام القوات البروسية الظافرة ، وأراد رامبو أن يتطوع للذود عن حمى الأوطان ولكن السلطات العسكرية رفضت طلبه لحداثة سنه الذى لم يتجاوز السادسة عشرة. كما أن شكله بدا أصغر بكثير من عمره. ولم يجد الغلام ما يفعله غير التجوال مع صديق الطفولة ديلاهاى فى الحقول والغابات والدخول مع صديقه فى مناقشات مستفيضة حول الأدب والسياسة وأحوال البلاد المتردية والحاجة إلى الثورة والتغيير. وفى تلك الفترة بدأ رامبو يطالع الشعراء الجدد والمعاصرين له أمثال بول فيرلين الذى راق له بسبب ما تميز به شعره من تجديد وحرية فى استخدام العروض. ومعنى ذلك أنه تأثر بشعر فيرلين قبل أن يراه. وفى تلك المرحلة من حياته ظهر تمرده الجارف على السلطة في جميع أشكالها كرد فعل ضد استبداد أمه به وقسوتها عليه. والغريب أنه رغم سخطه الشديد على سيطرة أمه عليه فقد ورث عنها القدرة على إخفاء عواطفه الجياشة تحت ستار زائف من التحجر والجمود.

ورغم استئناف الدراسة فى مدارس تشارلفيل أثناء الحرب الفرنسية البروسية فقد رفض رامبو العودة إلى مدرسته بحجة أن البلاد فى محنة وتحتاج إلى ماهو أهم من الدروس والتحصيل وباع ساعته وسافر بثمنها إلى باريس التى وصل إليها خاوى الوفاض. واستطاع أن يحصل على عنوان ستوديو رسام كاريكاتور معروف اسمه أندريه جيل. ولما ذهب إليه وجد الباب مفتوحا فدلف إلى الداخل ولم يكن فيه أحد . وهناك استسلم الغلام للنعاس من فرط التعب والإنهاك. ودخل الرسام مرسمه ليجد الغلام نائما على أريكته من فرط التعب والإعياء. وظن الرجل فى بادىء الأمر أنه لص جاء لسرقته ولكنه سرعان ما تنبه إلى خطأه عندما حانت منه التفاتة إلى وجه الصبى الطاهر البرىء. وأيقظ الرسام الصبى الذى هب مفزوعا من نومه وآثار النعاس تداعب جفونه . وسأله الرسام عن هويته فأجابه بأنه شاعر جاء من تشارلفيل إلى باريس سعيا وراء الرزق. ورق له قلب الرسام الطيب فأعطاه كل ما فى جيبه وهو عشرة فرنكات. ونصحه بالعودة إلى أمه وأهله. ولكن رامبو ضرب بهذه النصيحة عرض الحائط وآثر أن يبقى فى باريس لعله يجد عملا يرتزق منه. ولكنه فشل مما اضطره إلى التقاط بقايا الطعام من صفائح الزبالة وكسر الخبز الملقاة فى الشوارع ويشحذ من المارة وينام أسفل الكبارى والجسور وفى مداخل المنازل والقوارب الراسية على ضفاف النهر.

فى تلك الفترة كانت باريس تمور بالأفكار الثورية الداعية إلى إقامة الاشتراكية والإطاحة بحكم نابليون الثالث الذى أهدر كرامة الشعب الفرنسى . فلا غرو أن تأثر رامبو بهذه الأفكار. ورغم ذلك يمكن القول إن رامبو الثائر المتمرد ظل طفلا غريرا فى شئون الحياة اليومية بوجه عام وفى أمور الجنس بوجه خاص. صحيح أنه فى تلك الفترة كتب عن الحب ولكنه عالجه على نحو أدبى صرف وكما قرأ عنه فى الكتب وقصائد الشعراء. ويمكن القول أن رامبو احتفظ ببراءته الجنسية حتى عام ١٨٧١ . ومما يؤكد ذلك أن صديقه ديلاهاى لم يلحظ عليه فى فترة الدراسة أى جنوح فى حديثه ومسلكه إلى الشذوذ الجنسى ورغم أن رامبو كان فى السادسة عشرة من عمره عندما وصل إلى باريس فقد بدا فى شكل فتاة خجولة صغيرة الحجم ناعمة الملمس لها شعر متموج كسبائك الذهب. وأغلب الظن أن بعض الجنود الفرنسيين فى باريس استملحوه فقاموا فى ابريل (تقريبا) سنة ١٨٧١ بالاعتداء الجنسى عليه. الأمر الذى صدمه ونفره من الجنس مدى الحياة. وعلمته هذه التجربة الجنسية أن الجنس شىء قمىء وأنه فى الواقع شىء يختلف اختلافا تاما عما هو مكتوب فى الكتب

والأشعار. ومنذ ذلك الحين أصبح رامبو شخصا آخر فقد أصابته الصدمة الجنسية بالغثيان والاشمئزاز من الحياة وعدم القدرة على التأقلم معها أو أخذها على علاتها. وتحرق شوقا للهروب من الواقع إلى ماضى طفولته البريئة أو فى تجاوزه لاستشراف عالم من صنع خياله طاهر ونقى وخال من الشرور والآثام. عالم ملىء بالحسن والجمال. وفى باريس عانى الغلام الشاعر من الجوع والوحدة والشقاء. فقرر أن يعود إلى مدينة تشارلفيل سيرا على الأقدام دون أن ينتظر نجاح الثوار الفرنسيين فى إقامة الكوميون الشيوعى الذى ظل يتمناه ويتوق قلبه إليه. وتحمس رامبو لقيام الكوميون الشيوعى فى باريس واعتبره وصديقه ديلاهاى نقطة تحول فى حياة الشعب الفرنسى.

وأثناء وجوده فى باريس أرسل رامبو إلى صديق له يدعى ديمنيه قصيدة ألفها بعنوان «القلب المعذب» ثم سماها فيما بعد «القلب المسروق» ثم أعاد تسميتها بالقلب المهرج. وطلب رامبو إلى صديقه أن يقوم بإحراق جميع قصائده التى سبق أن أعطاها له فى أيام سذاجته وغفلته. وتتضمن هذه القصيدة الجرح الذى أصاب قلبه الصغير نتيجة تجربته الجنسية المقززة. وأرسل رامبو نسخة من قصيدته إلى إزامبارد الذى لم يفهمها حق الفهم ولم

يدرك محنة الشاعر والعذاب الذى كابده على المستوى الشخصى، وبدلا من أن يظهر إزامبارد تقديرا للقصيدة وعطفا على مضمونها أخذ يسخر منها الأمر الذى جعل مؤلفها يبتعد عنه بعد أن كان يعتبره صديقا له وفى منزلة والده. والجدير بالذكر أن قصائد رامبو الباكرة تتضمن بشكل أو آخر جانبا من سيرة حياته. فقصيدة «الذكريات» - حسبما يقول زوج أخته - تصف أول هروب لرامبو إلى باريس فى ٢٨ أغسطس ١٨٧٠ فى حين يرى بعض الدارسين أنها تصف رحيل والد الشاعر وهجرانه لزوجته فى أغسطس ١٨٤٦ وتتكون هذه القصيدة من خمسة مقاطع يحتوى كل مقطع منها على ثمانية سطور. والمقطع الثالث من القصيدة يصف الأم كامرأة مشدودة القامة تسحق الزهور تحت قدميها أثناء سيرها وهى الآمرة والناهية فى أطفالها الذين ينكبون على قراءة كتبهم فى الحقول فلا يلعبون أو يمرحون فيها مثلما يفعل الأطفال فى سنهم. وفجأة يترك أحدهم جماعته هربا من هذا الجو الخانق ويختفى وراء الجبل فتجرى وراءه الأم لتبحث عنه، ومن الواضح أن هذا المقطع يعبر عن سيرة حياة الشاعر الذى ضاق ذرعا باستبداد أمه وسيطرتها الغاشمة عليه فالتجأ إلى الهروب منها، أو أنه يعبر عن سيرة حياة أبيه الذى لم يطق تزمت زوجته وجمودها فاختفى من حياتها.

وبعد قصيدة «القلب المعذب» انفلت عيار رامبو ووجد متعته في تلطيخ سمعته والإساءة إلى اسمه. حتى مظهره الخارجي أصبح آية في القذارة فهو يرفض أن يستحم ويطيل شعره الذى اتسخ وتدلى على كتفيه. وتعمد أن يسير في أكثر شوارع تشارلفيل ازدحاما في ملابسه الرثة وهيئته القذرة. وأراد أحد سكان المدينة ممن يعرفونه إحراجه فأعطاه مبلغا صغيرا من المال ونصحه أن يقص بها شعره. فأخذه منه رامبو معبرا عن امتنان زائف ثم دخل محلا لبيع السجائر لينفق هذه الدراهم القليلة على شراء المعسل ليملأ بها غليونه. وتمزق قلب الأم وانفطر على حال ابنها المائل الذى رفض العودة إلى مدرسته. وبدلا من استكمال دراسته عمل رامبو في وظيفة متواضعة للغاية في صحيفة محلية عديمة الأهمية. واستاء مدرسوه السابقون وناظر مدرسته من تصرفاته وخاصة لأنه كان يتعمد أن يغدو ويروح في منظره الرث أمام باب المدرسة التي شهدت أوج تفوقه الدراسي ويتوقف خارج الفصول ليتفرج على زملائه وهم منصرفون إلى الدرس والتحصيل. ورأى المسئولون عن المدرسة أنه يعطي بذلك مثلا سيئا لأقرانه ويسيء إلى سمعة المدرسة. وبطبيعة الحال تحسر هؤلاء

المسئولون على النابغة الذى رفع رأس مدرسته عاليا والذى لن يكون له صنو بين أقرانه طرا. كما تحسروا على الصبى الدمث الوديع الطاهر الذى كان الخجل والحياء المفرطان يعقدان لسانه . وإمعانا فى التحدى لم يخف رامبو هرطقته واستهزاءه بالله والدين والكنيسة، وفى تلك الفترة اتسم حديثه الذى يندى له الجبين خجلا بالبذاءة والفحش وعاش الغلام الغض الإهاب عيشة ملؤها الصعلكة والتشرد يسلى الناس فى المقاهى والمنتديات بحكاياته الفاحشة وبذاءاته وهرطقاته لقاء كوب من الشراب أو قدح من الخمر التى كانت تطلق لسانه من عقاله. وأراد الغلام أن يصدم مشاعر مستمعيه فكان يدعى أمامهم أنه يجمع الكلاب الضالة فى بيته ليمارس الجنس معها. وفى هذه الفترة من حياة التشرد والقذارة كتب قصيدة تعبر عن ضياعه بعنوان «أخوات البر والإحسان». وفى ضياعه عجز الحب وجمال الطبيعة أن يدخلا الهدوء والسكينة على روحه المضطربة الهائجة. يقول أحد معارفه أنه فى عام ١٨٧١ جرب معاشرة النساء فأخفق. فقد سلمت له ابنة أحد القضاة له نفسها ولكنها هجرته عندما أخفق معها، الأمر الذى زاد من عقدة الجنس عنده واشمئزازه من النساء ودفعه إلى اجترار تجربة الإعتداء الجنسى عليه فى باريس .. ويلاحظ

الدارسون أن شعره فى هذه المرحلة بدأ يتضمن عنصرا جديدا هو إحساسه العميق بالذنب واحتدام الصراع فى دخيلته بين البراءة والإثم وبين طبيعته الملائكية ونوازعه الشيطانية. وهو صراع لم يستطع أن يجد حلا له حتى فى أكثر أشعاره نضجا واكتمالا . لقد صور له غروره وخيلاؤه أنه يستطيع بتمرده أن يحطم الدين المسيحى وأن يستأصل من الجذور ذلك الشعور بالذنب الذى تغرسه المسيحية فى نفوس المؤمنين بها. ويتضح لنا من قصيدته «المناولات الأولى» عجز هذا التمرد عن ذلك. بل إن هذا التمرد زاده انقساما على نفسه كما زاد من اضطراب روحه. فرغم ما تتضمنه القصيدة من هرطقة قاذعة فإنها تعبر عن تمزقه النفسى كما تدل على أن الجنس هو السبب الحقيقى فى ثورته العارمة على الناس والمجتمع والحياة، ورغم حياة التشرد التى عاشها الغلام الشاعر فإنه دأب على الذهاب إلى مكتبة المدينة العامة ليطالع فيها كتب الفلسفة والسحر الذى بدأ يستهويه بشكل ملحوظ. وحينئذ بدأ يفكر فى وضع نظرية عن الشعر. ووظيفة الشاعر، واستغرق فى قراءة بودلير والتهام جميع الكتابات غير التقليدية والخارجة على الأعراف والأخلاق العامة لدرجة ضـــايقت

أمـين المكتبة الذى علق على ذلك بقوله إنه يقرأ كتبا لا تناسب غلاما فى السـادسـة عشرة

وقد أثمرت هذه الفترة القصائد التالية: «القلب المعذب»، «باريس الخاوية تعمر بالناس»، «القرفصاء»، «أفق المساء»، «شعراء السبع سنوات»، «الفقراء فى الكنيسة»، «راهبات الإحسان»، »«عشيقاتى الصغيرات»، ، «المناولة الأولى»، «مايقال للشاعر عن الزهور»، و«السفينة الثملة»، و«قلب تحت رداء الكهنوت»، و«صحارى الحب».

الشاعر النبـى:

كان رامبو فى باكورة حياته الأدبية واقعا تحت تأثير جماعة البارناسيين المنادين بمبدأ الفن للفن. ولكن تغيرا جوهريا سرعان ما طرأ على موقفه الأدبى عند وصوله إلى مرحلة النضج . فقد سعى إلى الاستقلال عن هذه الجماعة بأن استحدث نظرية أطلق عليها نظرية النبوة فى الشعر. ولم يتوصل رامبو إلى هذه النظرية إلا بعد أن هدأت نفسه وسكنت روحه المهتاجة العاصفة.بعدئذ توقف عن كتابة الشعر المهرطق والبذىء، والتجأ إلى التعبير الشعرى كسبيل إلى الوصول إلى عالم لا نهائى من الروحانية والنورانية. لقد كان رامبو منذ طفولته يتعطش إلى معاينة الله. غير أن مراهقته العاصفة المضطربة جعلته يتجرأ على الله لأنه رأى

فى سلطانه صورة لاستبداد أمه به وطغيانها عليه. وعندما هدأت نفسه أدرك أن التجرؤ على الذات الإلهية يزيد من شقائه وتعاسته فبدأ يسعى من جديد إلى التواصل مع الله والكمال المطلق والحقيقة المطلقة. ومن ثم نظر إلى الشعر على أنه وسيلة إلى تحقيق الشفافية الروحية واختراق حجب الغيب وتجاوز العالم المادى المحسوس والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه. وهكذا أصبح الشاعر فى نظره مجرد وسيط غير واع تستخدمه القوى الغيبية ليكشف للبشرية عما هو مستور.

وفى فترة تشرده وصعلكته تعرف رامبو بموظف فى الجمارك الفرنسية اسمه تشارل بريتانى ترك فى حياته أعمق الأثر. كان بريتانى يعشق الفنون والآداب مثلما يعشق الخمر والنساء ويرغب فى الاستمتاع بأطايب الحياة. وتأثر رامبو على وجه الخصوص باهتمام هذا الرجل بالسحر والغيبيات واستجلاء العالم غير المنظور وبالفلسفة الشرقية المعروفة بالكابلا والتى سوف نعرض لها فيما بعد. ورغم أن بريتانى شجع رامبو على أن يحيا حياة ملؤها العربدة والانفلات من جميع المواصفات والأعراف الأخلاقية فقد شجعه أيضا ـ وهذا هو المهم ـ ألا يحفل بالجسد كفاية في حد ذاته بل يهتم بحياة الذهن والعقل. وكما أسلفنا كان الشاعر شديد الحياء ومفرط الخجل ولكن قدحا من الخمر كان كافيا

لإطلاق لسانه من عقاله. وعندما التقى ببريتانى فى مقاهى باريس كان يقدم له التبغ وأقداح الخمر مجانا . فتنفك عقدة لسانه ويتحول إلى متحدث ممتع مفوه يسحر المستمعين إليه. وتحت تأثير بريتانى توفر رامبو على دراسة كتب السحر والفلسفات الغيبية الشرقية مثل البوذية التى اقتنع الشاعر بأنها موطن الحكمة وأن العالم ضل السبيل عندما نبذ حكمة الشرق وسلك سبيل الغرب.

استمد رامبو نظريته عن نبوة الشاعر من تلك الأفكار الغيبية التى كانت شائعة فى عهده والجدير بالذكر أنه تأثر بأفكار بودلير عن السحر والغيب عندما صاغ فكرته عن نبوة الشاعر. ورغم تأثره ببودلير كان يختلف عنه. ففى حين آمن بودلير بجوهر المسيحية الكاثوليكية واعترف بخطيئة الإنسان فقد سعى رامبو إلى اقتلاع هذا الإحساس بالخطيئة من النفس البشرية محاولا أن يرجع بها إلى عصور الوثنية عندما كان الإنسان لا يعرف الإحساس بالذنب ولا يميز بين الخير والشر. ولكن محاولته كما قلنا باءت بالفشل الذريع لأن الإحساس بالخطيئة الذى غرسته المسيحية فى نفوس أتباعها أصبح جزءا لا يتجزأ من حياة الإنسان سواء شاء أو لم يشأ.

أشرنا إلى تأثر رامبو بالكابلا .. فماهى الكابلا؟ الكابلا هى أساس كل الفلسفات المستمدة من السحر والأفكار الغيبية . وهى تتمثل أساسا فى التقاليد العبرية الخاصة بتفسير التوراة. ولا أحد يعرف مصدر الكابلا على وجه التحديد. فبعض الباحثين يرى أنها نشأت فى الاسكندرية والبعض الآخر يرى أنها ظهرت فى القرون الوسطى، ولكن الثابت أن الدعوة إلى الكابلا لم تنشط إلا فى عهد تلك الكنيسة المسيحية وضعفها أى فى عصر النهضة ونهاية القرن الثامن عشر ، وبعد نشأة الفلسفة الوضعية فى فرنسا بعد عام ١٨٣٠ . ففى هذه الأوقات التى اهتزت فيها العقيدة المسيحية وانتفى اليقين الدينى لجأ الإنسان إلى الكابلا للتعبير عن رغبته فى استشراف الحياة الصوفية كبديل عن الدين التقليدى ويبدو أن بعض أصول الكابلا يرجع إلى بعض المعتقدات السائدة فى بلاد الفرس وإلى بعض معتقدات الكلاونيين كما أن هناك كثيرا من أوجه الشبه بين الكابلا والمعتقدات الهندية. وتهدف الكابلا إلى منح الإنسان القدرة على إماطة اللثام عن أسرار الوجود وغوامض الكون وكنه الذات الإلهية، والله ـ وفقا للكابلا ـ هو الذى يربط بين أجزاء الوجود المتناثرة ويمنحها الانسجام والوحدة. ويرى رامبو فى تلك الفترة من حياته أن أمل الشاعر يكمن فى تحقيق الكابلا أو ذلك الفيض من الصفاء الذى يمكن الإنسان من رؤية الله

ومعاينته .. ويذهب إلى أن الوصول إلى هذه الحالة من الصفاء والوجد الروحى لا تعنى بلوغ الإنسان السعادة. بالعكس فالكابلا تسبب لصاحبها البؤس والشقاء ومكابدة صنوف العذاب.

والجدير بالذكر أنّ رامبو استقي إيمانه بالكابلا أيضا من الأديب الفرنسي بالانش الذى عاش فى مدينة ليون فى أواخر القرن الثامن عشر. آمن بالانش بالعاطفة والخيال والحدس ونبذ العقل والفكر المجرد. ورأى أن الشاعر الحقيقي هو القادر على استشراف المستقبل واختراق حجب الغيب وتجاوز حدود العالم المادى الذى يحيط بنا . إن كل شيء نراه ونلمسه فيما حولنا ليس سوى رمز للوحدانية الخالدة أو صورة ناقصة للأبدية. فالحياة فى نظره رمز وكذلك الشعر والفن. ومن ثم سرمديتهما. ويضيف بالانش إنه عندما يتمكن الشاعر من شق حجب الغيب أى عندما تتوافر له أسباب النبوة فسوف يتحدث إلى العالم بلغة تفهمها جميع الشعوب. وهذا جوهر ما دعا إليه رامبو فى نظريته عن الشاعر النبي.

لعل أثر بودلير فى رامبو يفوق أثر الآخرين فيه. فقد أخذ شاعرنا عنه الإيمان بأن للأحلام أهمية قصوى فى عملية الخلق

والإبداع الفنى، وسار شاعرنا على نفس دربه فى التهالك على المخدرات والمسكرات يستعين بها فى الاستغراق فى الأحلام وعدم الإفاقة منها.

وعندما استحدث رامبو فى صدر شبابه مذهبه الجمالى فى الأدب كان لايزال واقعا تحت تأثير ثلة أصدقائه أمثال إزامبارد وديلاهاى وبريتانى . ولكنه ما لبث أن حقق استقلاله الكامل عنهم بعد أن انتهى من صياغة نظريته الجمالية عن نبوة الشاعر. وبعد أن تم له هذا الاستقلال رمى بمبادىء المدرسة البارناسوسية المنادية بالفن للفن عرض الحائط كما أنه ازور عن بودلير وتخلص من نفوذه فيه. ومن الخطأ أن نظن أن رامبو توصل إلى نظرية جمالية متكاملة ومتسقة، فآراؤه مهوشة ومضطربة وقد ضمنها فى رسالتين تتناولان النبى الشاعر بعث الأولى إلى صديقه إزامبارد فى ١٣ مايو ١٨٧١ والثانية إلى بول ديمينى فى ١٥ مايو من نفس هذا العام. وقد استمد رامبو أفكاره فى الجماليات من كتب السحر والكابلا وأعمال بالانش. فضلا عن أنه وجد فى بودلير نموذجا للشاعر النبى الذى ينبغى الإقتداء به. وخيل إلى رامبو أن بودلير تمكن من تحقيق حريته واستقلاله عن طريق العربدة والانفلات الأخلاقى وإدمان المسكرات والمخدرات. ولم يفطن

رامبو إلى أن بودلير كان فى دخيلة نفسه يتمزق وهو يرى نفسه عبدا ذليلا للمخدرات ويجاهد للقضاء على ضعفه المشين أمامها . والرأى عند رامبو أن الإنسانية لم تعرف الشعر الصادق إلا فى عهد الإغريق وأن مجىء الدين المسيحى كان وبالا وقاضيا على تلقائيته. كما أنه حول طبقة الشعراء إلى طبقة من الكتبة والموظفين. ويرى رامبو أن الفضل يرجع إلى الحركة الرومانسية فى إحياء الشعر بعد موات وعودة التلقائية إليه بعد أن فقدها نتيجة العقد والكبت الذى غرسته الديانة المسيحية وهكذا أصبح الشعراء الرومانسيون عن غير وعى منهم وبدرجات متفاوتة تجسيدا لفكرة الشاعر النبى الذى يتجاوز بخياله وبصيرته حدود العالم المادى. والكاتب الحق أو الشاعر النبى ليست له أهمية فى حد ذاته فأهميته ترجع إلى أنه مجرد أداة أو وسيلة للتعبير عما هو أبدى وخالد. وعلى الشاعر أن يستمع إلى صوت الخلود الذى يأتيه من وراء عالم المادة والمحسوسات. ولن يتحقق للأديب هذا إلا بقضائه على عمل العقل والعربدة والانفلات الأخلاقى من اللواط إلى تعاطى المسكرات إلى إدمان المخدرات. وكما أسلفنا تراءى لرامبو فى غروره أنه يستطيع أن يقتلع الإحساس بالخطيئة من نفسه. وهو ما عجز عن تحقيقه فى نهاية الأمر. ويذهب رامبو إلى

أن واجب الشاعر عندما يلج قدس الأقداس وينجح فى شق الحجب التى تمنعه من رؤية المستور فإن واجبه يحتم عليه أن يعبر عما رآه وراء الغيب وينقل تجربته إلى غيره من البشر. ونظرا لعجز اللغة الراهنة عن التعبير عن هذه الرؤى العلوية واستحالة التعبير عما لا يمكن التعبير عنه فلا محيص من أن يستحدث الشاعر النبى لغة جديدة تتناسب مع ما يبغى التعبير عنه. وفى سعيه إلى اختراع هذه اللغة الجديدة ألف رامبو سوناتة شعرية مشهورة ولكنها سيئة السمعة تعرف بسوناتة «الحروف المتحركة» التى امتدحها دعاة المدرسة الرمزية واتخذوها نبراسا لهم. ولعل أحسن وصف لهذه السوناتة قول رامبو نفسه فى قصيدته المعروفة «فصل من الجحيم»: «لقد اخترعت الحروف المتحركة ألوانا» وأن لكل حرف متحرك اللون الخاص به. فعلى سبيل المثال يرى رامبو أن الحرف المتحرك A لونه أسود والحرف المتحرك E لونه أبيض وهلم جرا. ولا يعرف الدارسون على وجه التحقيق السبب الذى حدا به إلى الربط بين الحروف المتحركة والألوان ولكن يبدو أن الذى أوحى إليه بهذه الفكرة أن كتاب الحروف الهجائية الذى كان يستخدمه فى طفولته كان يزدان بالألوان لتشويق الأطفال إلى التعليم وتحبيبهم فيه. كما أنه استقى من كتب السحر والكيمياء القديمة التى تبحث عن حجر الفيلسوف الذى

يحول المعادن الرخيصة إلى ذهب الفكرة القائلة بأن لكل حرف متحرك معناه ودلالته. لقد كان رامبو يحلم بأن يجعل من لغة الشعر لها صفة الدوام .. لغة أقرب ما تكون إلى لغة الرياضيات فى دقتها وديمومتها بحيث لا تتغير بتغير الزمان أو المكان. ومعنى ذلك أنه كان يحلم أن يجعل من مفردات اللغة شيئا ثابتا لا يتغير فى مثل ثبات وديمومة عالم المثل عند أفلاطون ولن يتحقق ذلك بطبيعة الحال إلا إذا نبذ الشاعر النبى كل ما استحدثته الإنسانية فى غابر العصور من مواصفات وتقاليد لغوية استعبدت الإنسان منذ مجىء الدين المسيحى إلى العالم. ولم يستغرق استحداث هذه النظرية اللغوية الجديدة والساعية إلى تحطيم التراث اللغوى السابق عليه من رامبو وقتا طويلا فقد صاغ نظريته عن النبى الشاعر الذى سوف يحطم اللغة التقليدية ويستبدلها بلغة جديدة فى غضون بضعة أسابيع دون أن يتوافر لديه الوقت الكافى لوضعها موضع التجريب كما أن حداثة سن شاعرنا لم تتح له الفرصة بعد لاختبار دعوته المتهتكة إلى تحرير الروح عن طريق ما أسماه لخبطة الحواس وتداخلها عن طريق التهالك على المخدرات والمسكرات التى تذهب بالعقل والوعى وتؤدى إلى اضطراب هذه الحواس. ومعنى ذلك أن دعوته إلى التهتك حتى ذلك الوقت لم تعدُ نطاق التنظير. وسوف نرى فيما بعد (وخاصة عندما

يتعرف على الشاعر بول فيرلين) أنه يضع هذه الدعوة الداعية إلى التصوف عن طريق الفسق والتهتك موضع التنفيذ.

السفينــة الثملــة:

قبل أن نعرض لقصيدة رامبو المهمة «السفينة الثملة» نشير إلى قصيدته الفكاهية الساخرة بعنوان «ماذا يقال لشاعر عن الأزهار» التى تهاجم واحدا من أشهر الشعراء البارناسسيين هو بانفيل. وتتميز هذه القصيدة بالأصالة والقدرة المذهلة على التجديد فى الصور والمفردات الشعرية، ونلاحظ أن هذه القصيدة الفكهة تتضمن سخرية من موقف الشعراء البارناسسيين وعلى رأسهم بانفيل من الزهور . ويرى رامبو أن بانفيل من كثرة وصفه فى شعره للأزهار يبدو وكأنه صاحب محل لبيع الزهور فشعره يزدحم إلى زهور الكاميليا بجانب زهور الزنابق على وجه الخصوص.. ويقول رامبو أن بانفيل لا يجد غضاضة فى أن يرى سيقان هذه الزهور مقطوعة وليست فى تربتها كما يحب المشتغلون بفلاحة البساتين أن يروها.

لقد اتجه رامبو فى منتصف عام ١٨٧١ إلى إجراء التجارب الجريئة على لغة الشعر فأدخل عليها الألفاظ التافهة والبذيئة .

فضلا على الألفاظ العلمية. وقد تركت هذه اللغة التى لم ترق لفيرلين أثرها على جيل الشعراء الذى جاء من بعده.

وفى تلك الفترة من حياته الشعرية ألف رامبو قصيدة «السفينة الثملة» التى حظيت بشهرة شعبية كاسحة. والغريب فى الأمر أن رامبو حتى وقت كتابة هذه القصيدة لم يكن قد رأى البحر. ولكنه تأثر ما فى ذلك ريب بتلك القوارب الراسية على نهر الميز والتى كان الصيادون يستخدمونها. وكان من عادة شاعرنا فى صباه أن يذهب إلى تلك القوارب ويستلقى فى باطنها وخياله سارح إلى بعيد. وتنم هذه القصيدة على الأصالة والقدرة على التجديد واستحداث الألفاظ والأخيلة التى تناسبه. ومع أن رامبو لم يكن قد رأى البحر فقد استحضره فى خياله عن طريق الكتب المصورة التى حصل عليها كجائزة لتفوقه فى الدراسة، ومنها كتاب «عالم المحيطات» لفيبجيه وكتاب «البحر» لمشيليه. وكلا الكتابين يصفان الأسماك والحيوانات المائية الغريبة والمتوحشة التى تعيش تحت سطح الماء. أضف إلى ذلك أن رامبو تأثر بمجموعة من الكتب منها «عشرون ألف فرسخ تحت البحر» لجول فيرن و «الكادحون فى أعماق البحار» لفكتور هيجو و«جوردون بيم» و«ابتلاع الدوامة»

لإدجار ألان بو. وتعتبر قصيدة «السفينة الثملة» من أنجح التجارب الأدبية التي تنطوى على تطبيق عملي لنظريته التى استحدثها بشأن «الشاعر النبى» ، ومعنى هذا أن مضمون القصيدة تكرار لما ذهب إليه الشاعر فى «رسائل الشاعر النبى» . إن رامبو ألف «السفينة الثملة» في وقت كان ينتظر فيه بفارغ الصبر وصول خطاب من الشاعر فيرلين. فقد كان أمله أن يمد إليه هذا الشاعر الكبير يد العون والمساعدة لينشله من ذلك الجو الخانق للموهبة فى الريف الذى يكتم أنفاسه. وتضايق رامبو من تأخر فيرلين فى الرد عليه. ولكن فيرلين اهتم بطلبه وراح يستشير عددا من كبار الأدباء البارزين آنذاك عما عساهم أن يفعلوا لمساعدة هذه الموهبة الصاعدة. وعندما عرض عليهم فيرلين أشعاره استقبلوها بالمديح والثناء واعترفوا بموهبة صاحبها وأصالته، الأمر الذى شجع فيرلين فى نهاية الأمر إلى دعوته إلى باريس . وأرسل فيرلين الذى لم يكن يعرف رامبو إلى الأديب الشاب أجرة السفر من بلدته فى الريف إلى باريس. غير أن أمه رفضت أن تشترى له ثيابا جديدة يلبسها بدلا من ثيابه الرثة. وأغلب الظن أنه سافر إلى باريس هذه المرة فى خريف عام ١٨٧١. وحتى ذلك التاريخ كانت دعوته إلى الإنحلال الخلقى ولخبطة الحواس يهدف استشراف

عالم الروح غير المحدود مجرد حبر على ورق، كما أن تجربته الجنسية كانت محدودة للغاية رغم بشاعة التجربة التي تعرض لها على أيدى الجنود.

وتعبر «السفينة الثملة» عن سيرة حياة مؤلفها الفكرية والروحية التى تمخر عباب البحر تتقاذفها أمواجه وتلاطمها أنواؤه العاتية وتدفع بها بين الصخور من جزيرة لا يسكنها بشر إلى جزيرة أخرى خالية من السكان، فقد تعرض طاقمها للذبح والإبادة، ولم يبق على ظهرها أحد سوى الشاعر فهو الوحيد الذى بقى على قيد الحياة، وفى نهاية المطاف يرى الشاعر السفينة التى تقله وهى ترتفع به إلى عنان السماء فيحدوه الأمل أن يلج داخلها حيث الخلود والأبدية، ولكن هيهات أن يتحقق له مايريد فسفينته تظل معلقة بين السماء والأرض فلا هى على أديم الأرض ولا هى فى قبة السماء، وأخيرا يفيق الشاعر من أوهامه حين تهبط الأمواج التى تحمل السفينة فجأة فإذا بالسماء تغيب عن بصره وإذ بالسفينة تسقط من علٍ ليصحو الشاعر على أرض الحقيقة والواقع وتتبدد كل أحلامه.

الشيطان يعيش في كنف شيطان آخر

(رامبو وفيرلين) :

عندما سافر رامبو من بلدته تشارلفيل إلى باريس فى خريف عام ١٨٧١ بدعوة من بول فيرلين كان هذا الشاعر الكبير يعيش مع أهل زوجته في حى مونمارتر. وبعد انحسار المد الثورى وزوال الحكومة الاشتراكية فى باريس تعرض الشاعر فيرلين للبطالة والطرد من وظيفته المدنية بسبب عدم كفاءته من ناحية وسوء خلقه وعاداته من ناحية أخرى، فضلا عن أن النظام الحاكم الجديد المعادى للاشتراكية إزور عنه. وقبل الزواج عاش فيرلين حياة ملؤها الإباحية والفساد فسعت أمه إلى تزويجه من فتاة ثرية اسمها ماتيلدا بهدف إصلاح سلوكه المعوج. ولكن هذا الزواج لم يجد معه فتيلا، ورغم عدم التكافؤ المادى والاجتماعى بين فيرلين وزوجته فقد قبلت حماته هذه الزيجة لأنها تحب أن تعتبر نفسها راعية للفنون والآداب، وجذبها بريق شهرة فيرلين وموهبته الأدبية فلم تعر فقره المزمن أو حتى سوء سمعته أدنى اهتمام وتصورت أن الزواج سوف يصلح من حاله. وعندما سمعت هذه الحماة من زوج ابنتها بأمر رامبو الشاعر الشاب الريفى الواعد الذى تنبأ له

الأدباء بأن يبز فيكتور هيجو نفسه ويتفوق عليه اقترحت المرأة فى براءتها وحسن نواياها على زوج ابنتها أن يستضيفه فى بيتها فقد كانت تأمل أن يذكر لها تاريخ الأدب الفرنسى هذا الصنيع. ولم تدر المسكينة أنها بذلك تحضر الأفعى إلى منزلها وأنها سوف تأوى فى بيتها وحشا همجيا ليس لوقاحته وصفاقته وصلفه حدود.

وفوجئت المرأة بدخول شاب ريفى عليها فى ملابس مهلهلة غاية فى الرثاثة والقذارة لا يحمل فى يده حتى حقيبة سفر يحتفظ فيها بملابسه الداخلية ومشطا للشعر وفرشة أسنان ، ونظرت حماة فيرلين إلى ياقة ضيفها فوجدته يضع حول رقبته شيئا شبيها بفتلة الدوبارة يستخدمها كربطة عنق. حتى فيرلين نفسه دهش لمنظر هذا الغلام فقد كان يتوقع أن يرى أمامه شابا مكتمل الرجولة فإذا به يشاهد وجها كالملائكة يطفح بالبراءة وعينين صافيتين تنفذان إلى الأعماق ولا حد لنقاوتهما. باختصار رأى غلاما جميل المحيا فى نحو السابعة عشرة من عمره.

لم يرتح رامبو لجو العائلة البورجوازى منذ اللحظة التى وطأت قدماه أرض البيت. الأمر الذى استفزه ودفعه إلى التصرف على نحو وقح منذ البداية. ولم يجد معه أن الأسرة الكريمة التى استضافته سعت ما وسعها السعى إلى أن تعاملة بأدب وتخفى

دهشتها من منظره القذر المقزز. فبعد تناول طعام الغداء أخرج رامبو غليونه القذر ووضع رجلا على رجل كما وضع منكبيه على مائدة الطعام وبدأ ينفث دخان تبغه الكريه الرائحة. وفى أحد الأيام عاد فيرلين ليرى ضيفه وهو يدخن مستلقيا على الممر الملىء بالحصى والمؤدى إلى باب البيت ومستمتعا بدفء أشعة الشمس والجيران المحترمون يتفرجون عليه متعجبين.

ورغم أن فيرلين أنجب من زوجته ماتيلدا ولدا أسماه جورج وأن الزواج نجح فى شفائه لحين من داء الشذوذ الجنسى فقد استمر يعاقر الخمر ويفرط فى شربها ويكاد ألا يفيق منها. وفى يوم من الأيام عاد إلى بيته يترنح من السكر وأفزع زوجته عندما أصر أن ينام بحذائه الوسخ وكامل ملابسه على سريرها. فلما عرفت حماته ماحدث انتهزت هذه الفرصة لمساومته وأصرت أن يغادر رامبو البيت على الفور. وشعر رامبو أنه أصبح ضيفا غير مرغوب فيه فخرج من البيت فيما بعد ولم يعد. وبعد رحيله دخلت الأم وابنتها حجرته فاكتشفتا أن فراشه ملىء بالقمل. وأرادت الزوجة أن تقنع زوجها فيرلين أن خروج رامبو من البيت كان ضرورة فاقتادت زوجها إلى الحجرة ليرى بنفسه الحشرات التى خلفها الضيف وراءه. ولكن فيرلين ضحك فى وجه زوجته وقال لها

إن رامبو يحتفظ بمثل هذه الحشرات جاهزة حتى يقذف بها كل قسيس يصادفه في الطريق.

واختفى رامبو ليتصعلك ويتشرد في شوارع باريس وحاراتها وأزقتها دون أن يترك وراءه أي عنوان. وتعب فيرلين في البحث عنه ولكنه فشل في تعقبه. غير أن المصادفة لعبت دورا في التقائه به بعد مرور عدة أسابيع . فقد التقى به مصادفة في عرض الطريق، ونظر فيرلين إلي وجه الغلام فوجده ممتقعا من شدة الجوع ويسير في أسمال بالية. وعرف منه أنه عجز طوال فترة غيابه عن أن يجد عملا يقتات منه. وقدم فيرلين إلى رامبو وجبة كاملة وتدخل لدى الشاعر ثيودور بانفيل لإيوائه. وبالفعل قام بانفيل الطيب القلب بإسكانه في غرفة في بيته فوق السطوح على مقربة من بوليفارد سان ميشيل، وأمدته والدة بانفيل بكل مستلزماته العاجلة والضرورية واجتمع بانفيل وأصدقاؤه من الأدباء فقرروا أن يخصصوا له مبلغا يوميا بسيطا يمنعه من التضور جوعا. ولكن رامبو روع جيرانه ذات يوم عندما رأوه واقفا وهو عريان كما ولدته أمه أمام نافذة حجرته ويقذف بالصرة التي تحتوي على ثيابه في الشارع العمومي. وكان من الطبيعي أن يترك رامبو مسكنه بعد تلك الفضيحة ليبدأ حياة التشرد من جديد. وأقام لبضعة أسابيع

عند مؤلف موسيقى بوهيمى اسمه كابانر. وفى تلك المرحلة من حياته كتب قصيدة بعنوان «الباحثات عن القمل». وفى شهر نوفمبر عام ١٨٧١ على وجه التحديد جرب رامبو لأول مرة تدخين الحشيش سعيا وراء تغييب عقله واضطراب حواسه. وظل رامبو يعتمد على أريحية المحسنين يوميا فى توفير مكان يبيت فيه حتى استأجر له فيرلين فى يناير ١٨٧٢ حجرة بالقرب من بوليفارد مونبارناس. وقد شهدت هذه الحجرة تهتكا من جانب كل من فيرلين ورامبو يفوق الوصف لدرجة أن السلطات قامت بإبعاد رامبو عن باريس لبعض الوقت. وفى شهر يوليو من عام ١٨٧٢ سافر رامبو وفيرلين إلى بروكسل فى بلجيكا ليواصلا حياة المجون والفسق وممارسة الحب الحرام.

ورغم أن كثيرا من الأدباء الفرنسيين أظهروا مساندة لرامبو واستعدادا للوقوف بجانبه حتى يقف على قدميه ويشق طريقه فإن غروره ووقاحته تسببا فى إغضابهم منه وحنقهم عليه. ورغم أن كثيرا من هؤلاء الأدباء كانوا يعيشون عيشة ملؤها الانطلاق والبوهيمية فإنهم اشمئزوا من تصرفاته ولم يتصوروا أنه بإمكان أى إنسان أن ينحدر إلى مثل هذا المستوى من الانحطاط والانحلال. وفى إحدى الأمسيات دعت مجموعة من الأدباء أطلقت

على نفسها اسم «الأشرار الطيبين» الشاعر فيرلين (الذى دعا بدوره صديقه رامبو) إلى حضور حفل غداء تعقبه أمسية للإستماع إلى الشاعر جان ايكارد وهو يقرأ مختارات من قصائده. وبعد انتهاء الغداء أفرط رامبو فى الشراب حتى لعبت الخمر برأسه. ولاحظ المجتمعون أن رامبو كان يعلق عقب كل بيت شعر يقرؤه إيكارد بقوله البذىء: «هذا براز». وتمالك الحاضرون أنفسهم آملين أن يتعب رامبو ويكف عن هذا العبث من تلقاء نفسه. ولكن صياحه زاد فى الارتفاع حتى غطى على صوت الشاعر نفسه. فثارت ثائرة واحد منهم فتدخل لإسكات هذا الشاب الوقح. فنشبت مشاجرة بينه وبين رامبو الذى انتزع عصا فيرلين المصنوعة على هيئة سيف وهاجم بها الرجل الذى أراد إسكاته. ولولا أن هرع بعض الموجودين لفض المشاجرة لحدث ما لا تحمد عقباه. ثم قاموا بنقل الشاعر المخمور إلى حجرته ليغط فى سبات عميق. وكانت تلك الحادثة القشة التى قصمت ظهر البعير. فقد قاطعه بعدها معظم الأدباء ورفضوا دعوته إلى منتدياتهم. الأمر الذى زاد من غطرسته وزرايته بهم. وانفض عنه جميع أدباء باريس ولم يبق فى صفه من المؤمنين بموهبته غير اثنين هما الشاعر بول فيرلين وأديب آخر اسمه إميل بليمونت. وفى تلك

الفترة استغرق الشاعران فيرلين ورامبو فى حياة السكر والعربدة يقضيان ليلتهما في شرب الأبسنت فى المقاهى والحانات فإذا أغلقت أبوابها يذهبان لاستكمال السهرة واحتساء الخمر فى حجرة رامبو حتى صبيحة اليوم التالى. وفى تلك الفترة كان فيرلين قد ورث شيئا من الثروة عن أبيه بددها عن آخرها فى اللهو والشراب. والغريب أن موقف فيرلين من هذا اللهو اختلف عن موقف رامبو منه. ففي حين كان فيرلين يجد فيه نوعا من الاستمتاع العابر بالحياة اعتبره رامبو نوعا من الشهادة وتعذيب النفس وإضناء الروح. ويتجلى لنا هذا من قصيدته «كوميديا العطش» وكأن الشاعر يسعى إلى تطهير نفسه من الأوشاب عن طريق عذاب الفسق والتهتك والانحلال. والغريب أن انغماس رامبو فى المباءات والمباذل لم يفلح فى إطفاء نور الجمال والسموق الروحى الذى كان يطل دائما من عينيه فقد ظل وجهه رغم تهتكه يضىء بنور الطهر والنقاوة.

ويجرنا هذا إلى الحديث عن العلاقة الجنسية الفاضحة التى ربطت بين الشاعرين رامبو وفيرلين. والجدير بالذكر أن دعوة رامبو إلى التهتك الجنسى ظلت مقصورة على مجال الفكر ولم تخرج إلى حيز التنفيذ إلا بعد أن توثقت علاقته بفيرلين. وأغلب

الظن أن رامبو ـ على عكس فيرلين ـ لم يكن بطبعه يميل إلى الشذوذ الجنسى ولكنه وجد فى ممارسته الطريق إلى تحرير نفسه من جميع المعتقدات والمبادىء التقليدية المتوارثة ومن كل المحرمات والمكبوتات والقيود الأخلاقية . ولاشك فى أن هذا التحرر من المواصفات الأخلاقية اقترن بتفجير طاقات الخلق والإبداع فيه التى بلغت ذروتها فى تلك الفترة التى كان يمارس فيها الجنس الحرام مع فيرلين.

وما من شك فى أن رامبو فى تلك الفترة وقع تحت تأثير فيرلين العميق فقد بدأ خط يده يتطابق مع خط فيرلين لدرجة أن ايزابيل أخت رامبو أخطأت فى خط فيرلين وأعتقدت أنه خط أخيها. أما فيرلين فكان منحلا وشريرا وشاذا يجنح بطبيعته منذ صدر شبابه حتى عقد زواجه إلى معاشرة الغلمان والنساء على حد سواء، ومما أغراه بالعلاقة الآثمة برامبو أن زوجته ماتيلدا كانت معتلة الصحة فى فترة تعرفه برامبو، الأمر الذى منعه من معاشرتها . فضلا عن أنه بدأ يضيق ذرعا بالحياة العائلية البورجوازية المحترمة. كانت تجربة رامبو الجنسية محدودة للغاية عندما تعرف على فيرلين باستثناء ما يشتبه أنه حادثة اعتداء بعض الجنود فى باريس عليه. وكان فيرلين أكبر منه بعشر سنوات، ولهذا يمكن اعتبار فيرلين

الأستاذ ورامبو التلميذ فى رحلة الجنس الحرام. ولكن التلميذ سرعان ما تفوق على أستاذه فبدأ يحرض فيرلين على التجديد فى ارتكاب المعصيات. وبمرور الوقت استطاع التلميذ أن يبسط نفوذه على أستاذه وأن يخضعه لإرادته ويجره من أنفه كما يقولون. وأصبح الأستاذ لعبة فى يد تلميذه يتقاذفها وفق هواه. وحرض رامبو أستاذه على هجر زوجته وولده وعلى التضحية بالحياة الاجتماعية المحترمة كما حرضه على قذارة المظهر وارتداء الإسمال وارتياد أحط الحانات. أما التلميذ فقد توهجت فيه قدرته على الإبداع الأدبى فأنتج أعظم قصائده وأروع أشعاره فى تلك الفترة.

وفى بروكسل ببلجيكا دب الخلاف بين العاشقين واحتدم بينهما الشجار. فأخرج فيرلين مسدسه وأصاب رامبو بجرح. فتولت السلطات البلجيكية التحقيق معه. وتم توقيع الكشف الطبي على فيرلين . وجاء فى تقرير الطبيب الشرعى أنه ظهرت على المتهم شواهد حديثة تدل على ممارسته للواط سلبا أو إيجابا. وقد عبر فيرلين فى أشعاره عن السعادة التى غمرته بسبب علاقته الآثمة برامبو. ولكن خشى افتضاح أمره فأنهى قصائد حبه المحرم على نحو يسمح بتفسيرها بطريقة بريئة. وقد وجد البوليس

البلجيكى وقت القبض على فيرلين فى بروكسل قصيدة شعر، فاضحة فى حافظة نقود رامبو بعنوان «التلميذ النجيب» يخاطب فيها فيرلين بأسلوب فاضح ويقول له فيها «إنه كله ملكه يعلوه عندما يشاء».

وعندما طلبت ماتيلدا الطلاق من زوجها فيرلين استند محاميها إلى ممارساته الداعرة مع الشاب آرثر رامبو. وقد وقعت فى يد الزوجة مجموعة الخطابات التى تبادلها العاشقان يتراوح عددها بين ثلاثين وأربعين خطابا تدل بوضوح على طبيعة العلاقة الشاذة التى ربطت بينهما. ولكن محامى الزوجة لم ير ما يدعو إلى تقديم هذه الخطابات إلى هيئة المحكمة لأن تهمة استخدام فيرلين للقسوة البدنية مع زوجته كانت ثابتة عليه وسببا كافيا لحصول الزوجة على الطلاق. ومن المؤسف أن الزوجة قامت بإحراق هذه الخطابات لأن بعضها تحف أدبية. وقد فعلت ذلك خوفا من أن تقع هذه الخطابات يوما ما فى يد ابنها عندما يكبر فيعرف سيرة أبيه غير العطرة. وبالنظر لأن العلاقة بين الشاعرين لم تكن سوية فقد انتهت بهما إلى سوء الفهم والشقاء والعذاب والإحباط. وأخذ فيرلين يبكى وينوح ويندب حظه ويغمره الشعور بالذنب ويندم على علاقته الآثمة برامبو، الأمر الذى جعل رامبو يمعن فى احتقاره

والسخرية منه . وأخيرا أفاق رامبو بدوره من هذه العلاقة فأثارت اشمئزازه وتقززه. وباضمحلال حب رامبو لفيرلين بدأت مظاهر السادية تبدو على تصرفاته. فقد دأب على السخرية من أفكار فيرلين ومعتقداته التى يؤمن بها بشكل لاذع الأمر الذى جعل فيرلين فى كثير من الأحيان يجهش بالبكاء فلا يرحمه رامبو بل يلهب ظهره بمزيد من سياط الإهانات والسخرية ولم يتورع رامبو من إلحاق الأذى البدنى بفيرلين فبينما هما جالسان فى أحد المقاهى وسط بعض الأصدقاء طلب منه رامبو أن يضع يده على المائدة، فلما فعل فيرلين هذا أخرج رامبو مطوى من جيبه وجرح بها يد عشيقه. وخرج فيرلين من المقهى غاضبا فجرى رامبو خلفه فى الطريق ليستمر فى جرحه فى عدة أماكن أخرى من جسده، غير أن رامبو كان أحيانا يندم على هذا فيعتذر لفيرلين عن قسوته ويطيب خاطره بأعذب الكلمات وأرقها. فتعود مياه الود القديم إلى مجاريها .

كان فيرلين فيما مضى يعتنى بمظهره، ولكنه فى صحبة رامبو أهمله إهمالا مروعا. فقد روع معارفه من الأدباء عند حضور حفل افتتاح إحدى مسرحيات كوبيه حيث ظهر المدعوون من الأدباء فى أبهى صورة وفى ملابسهم الأنيقة. وتحلت زوجاتهم بالمجوهرات

التي يخطف سناها الابصار بينما ظهر فيرلين في أسمال بالية وهو يتأبط ذراع عشيقه الذى لا يقل عنه قذارة واتساخا. وفى صحبة رامبو كان فيرلين يفرط في الشراب عن المعتاد. فكان يرجع إلى بيته مخمورا حتى الثمالة فيروع زوجته ويفزعها. فكانت المسكينة تضع يدها على قلبها وهو يهددها بإحراق الدولاب اللاصق لغرفة نومها والذى يحتفظ فيه والدها بأسلحته النارية. والغريب أن ماتيلدا كانت تستقبل اعتداءه عليها بالضرب بخنوع واستسلام كامل. الأمر الذى يزيد من سورة غضبه وحنقه وضيقه منها. وبلغ استسلامها مبلغا جعلها لا تحرك ساكنا عندما حاول في ليلة ما أن يحرق شعرها بعود ثقاب مشتعل. ولولا انطفاؤه ولطف الله بها ـ بعد أن لسع عود الكبريت بعضا من خصلات شعرها ـ لكانت المسكينة قد احترقت. وفي مرة أخرى أصابها بالمطواة في يديها ومعصمها. كل هذا وهي مستسلمة لا تدافع عن نفسها. والغريب أنه كان ينتقم من السادية التي يلحقها به رامبو من زوجته الوديعة الخاضعة. ولكن ذات مرة لم يعد في إمكان ماتيلدا السكوت على زوجها فقد أوشك على خنقها وقتل ابنه الرضيع في اللفة. فقد قذف به وهو سكران إلى أقصى الحجرة ولولا سمك اللفة التي تغطي جسده اللدن لسقط هذا الرضيع ميتا.

ولما أفاق شعر فيرلين بهول فعلته انخرط فى النشيج والبكاء وطلب من زوجته أن تسامحه وتغفر له جنونه، فقبلت الزوجة أن تصالحه على شرط أن يقطع صلته برامبو ويرسله إلى بلده تشارلفيل. وقبل فيرلين هذا الشرط وطلب من عشيقه أن يعود إلى بلدته ويبقى فيها حتى تهدأ العاصفة. ووعده فيرلين باستئناف العلاقة بينهما بعد تصفية الخلاف بينه وبين زوجته، وأعطاه عنوانا آخر غير عنوان البيت ليرسل خطاباته عليه حتى لا تعرف بذلك زوجته ورغم أن رامبو استجاب لطلبه وغادر باريس عائدا إلى تشارفيل فقد أوغر صدره أن يفضل فيرلين زوجته عليه. وبعد أن تصالح فيرلين مع زوجته بادر فى لهفة إلى استدعاء عشيقه إلى باريس وأرسل إليه ثمن تذكرة السفر. وعاد رامبو إلى باريس فى مايو ١٨٧٢ حيث عاش فى حجرة استأجرها له فيرلين بالقرب من السوربون. وهناك واصل حياة السكر والمجون اللذين انغمس فيهما للتخلص من شعوره القاتل بالوحدة والوحشة.

«إشراقات» رامبو وسعيه الروحى:

وإلى جانب اهتمام رامبو بالسحر والتنجيم والعرافة والكيمياء القديمه تأثر رامبو بفرقة الحشاشين التى نشأت فى القاهرة عام ١٠٢٠ على يد حسن بن الصباح فعودت أعضاءها على الطاعة

العمياء مستعينة فى ذلك بتعاطى الحشيش. والذى استهوى رامبو فى هذه الفرقة سعيها عن طريق تعاطى الحشيش إلى تداخل الحواس و«السطلة» فضلا عن الرغبة فى النفاذ إلى عالم السرمدية والخلود.

ولكن تغيرا خطيرا طرأ على آرائه ومعتقداته فقد بدأ يندم على اهتمامه بالسحر والتنجيم والعرافة وحجر الفيلسوف واعتبر أن هذه المعارف الغيبية هى السبب فى اللعنة التى حلت به وعلى أية حال فلا مناص من الاعتراف بأن شغل رامبو الشاغل فى تلك الفترة وما قبلها هو الوصول إلى حالة من الوجد الصوفى ومعاينة وجه الله. والجدير بالذكر أن عدم اكتراثه بفقره وعدم خجله من قذارته كان يرجع إلى شدة انشغاله ـ على طريقته ـ بعالم السرمدية والخلود: وفي أوج قوته الروحية ألف قصيدته العظيمة «السعى الروحى» التى سلمها إلى فيرلين عام ١٨٧٢. وقد توافر وهو فى هذه الحالة الروحية الشفافة على تأليف الجانب الأعظم من مجموعة قصائده المشهورة والمعروفة بـ «الإشراقات»، التى يعتبرها النقاد والدارسون من أعظم ما سطره هذا الشاعر فى حياته إن لم تكن أعظمها جميعا. غير أن هذا السموق الروحى سرعان ما تبدد ليحل محله إعياء روحى جعله يضيف إلى

إشراقاته مجموعة من القصائد النثرية تدل على اشمئزازه من حياته ونضوب طاقته الروحية واختفاء الرؤى السرمدية وحلول اللعنة به.

تعتبر بعض قصائد «الإشراقات» من أبدع ما سطر رامبو من أشعار. وإذا كان ما يقوله فيرلين عن الإشراقات صحيحا فإن تأليفها يرجع إلى الفترة بين ١٨٧٣ ـ ١٨٧٥. ولكن الدارسين ليسوا على يقين من دقة هذه التواريخ ومن سلامة الترتيب الذى نشرت به ويعود السبب فى ذلك إلى أن مخطوطات الديوان ظلت تنتقل من يد إلى يد وأن اكتشاف قصائدها لم يكن دفعة واحدة. وعندما فكر فيرلين فى نشرها لاحظ أن قصائده لا تدور حول فكرة أساسية واحدة بل هى مجموعة متناثرة من الشذرات والانطباعات والتجليات. الأمر الذى دفعه إلى الكتابة إلى مؤلفها فى إفريقيا. ولم يرد رامبو على خطاباته . فنشر فيرلين القصائد باعتبار أن صاحبها ميت وأنها من تأليف المرحوم رامبو.

وبوجه عام يمكن تقسيم الإشراقات إلى جزءين. الجزء الأول مجموعة من الأشعار الانطباعية ، والجزء الثانى طائفة من القصائد النثرية. والجدير بالذكر أن القصائد النثرية تنم عن نزعة واضحة إلى التجديد فى حين أن القصائد الشعرية تجنح إلى

التقليد. ومن ثم فإن القصائد النثرية أكثر غنى وخصوبة فى نظر الدارس، فضلا عما يجده الدارس من عسر فى تفسيرها بسبب غموضها. كما أنها تحتاج من القارىء إلى قدر كبير من الخيال حتى يتمكن من استيعابها. وتحدثنا «الإشراقات» عن الطوفان الذى أغرق به الله الأرض عندما وجد أن الإنسان قد زاغ وفسد. وانتقى الله قلة ضئيلة من الأخيار كتب لهم النجاة من الطوفان والبقاء على قيد الحياة، وانصلح حال الإنسان من بعد الطوفان ولكن إلى حين. فقد فشل الطوفان فى اقتلاع جذور الشر من الإنسان الذى سرعان ما عاد إلى سابق شره. ومن ثم الحاجة إلى طوفان آخر من شأنه تطهير البشرية من شرورها وآثامها. وتعكس «الإشراقات» المقت المتزايد الذى يحمله الشاعر للعالم المادى المحسوس وتحرقه شوقا إلى تجاوزه والهرب منه. ويلجأ الشاعر إلى عدة وسائل تساعده على هذا الهروب أولها رجوعه إلى ذكريات الطفولة البريئة والنابضة بالحياة تماما مثلما فعل الشاعر الانجليزى المعروف وغيره من كبار الرومانسيين. ويرجع الفضل إلى ديلاهاى صديق الطفولة فى لفت الأنظار إلى أن معظم هذه القصائد لا تدور حول طفولة الشاعر فحسب بل إن الشاعر لم يخترع شيئا فقد استقى مادتها بالكامل من تجارب هذه الطفولة

وكذلك التجأ رامبو إلى أرض الأحلام يهرب إليها من أرض الواقع فالأحلام من شأنها أن تصل المرء بالعالم المظلم الغامض والخصيب الذى يحيط به. فضلا عن استعانته بالمخدرات والكحول والعطش والجوع وإنهاك البدن من أجل إقامة مثل هذه الصلة. وانتهى الأمر بأن أصاب الاضطراب حواسه وأوشك بالفعل على الجنون. وهو يعترف فى «فصل فى الربيع» أنه اعتاد على الهلوسة وأنه لا يميز بين مداخن المصانع ومنارات الجوامع كما أنه يرى بعينيه عربات تجرها الجياد تنطلق فى عنان السماء والأبهاء القابعة فى قاع البحيرات. وقد وجد فى الحشيش على وجه التحديد أسرع وسيلة لاستثارة قدرته على الخلق والإبداع. ويبدو أن شاعرنا ألف كثيرا من إشراقاته وهو واقع تحت تأثير الحشيش.

وإذا كان ما تقدم وسيلة الشاعر فى استلهام الشعر فإنه يستمد جل إلهامه من رؤاه ومغامراته الروحية التى تتجاوز العالم المادى المحدود وتستشرف عالما روحيا خالدا خارقا للطبيعة وليس من شك فى أن طبيعة رامبو كانت فى الجوهر والأساس طبيعة دينية. فبالرغم من كل شىء يعترف له بول كلوديل بالفضل فى عودته إلى حظيرة الإيمان بالدين. ويقارن كلوديل بين

الإشراقات وكتابات المفكرين الكاثوليك رغم أن رامبو فى كثير من أشعاره يعبر عن تمرده على الدين والله. وحقيقة الأمر أن تمرده هذا كان يحمل فى أحشائه رغبة فى نبذ صورة الإله القاسى المتجبر الذى رسمته الطبقة البورجوازية والرأسمالية الجشعة والمستغلة من أجل الالتصاق بإله رحيم يحب الفقراء والمعوزين. لم يكن رامبو سعيدا بكفره وهرطقته وبعده عن حضرة الله. ومن ثم بذل قصارى جهده للتقرب إليه. وتتجلى نزعته إلى الدين بوضوح فى قصيدتين من الإشراقات هما «له حق» و«الجان» وفى القصيدة الثانية على وجه التحديد.

وتعطينا قصائد الإشراقات الصوفية الانطباع بأن الشاعر يجاهد من أجل أن يصف تجربته الصوفية فى لغة تعجز عن وصفها. ولهذا يلجأ الشاعر إلى الرموز بدلا من النعات والأوصاف يحاول عن طريقها أن يخلق لدى القارىء نفس الحالة الروحية والعاطفية التي دعته إلى تأليف قصيدته . ولا تتكشف رؤية الشاعر لنا دفعة واحدة ولكنها تكشف لنا عن نفسها فى صورة سلسلة من الومضات أو الإشراقات . ونحن إذا أخذنا هذه القصائد كل على حدة فإنها تعطينا الانطباع بأن الشاعر يتلمس طريقه نحو التعبير عن حالة الوجد الروحى التى يكابدها، وعن الرؤى الروحية التى

يستشرفها، والقصائد لا تتحرى أى ترتيب منطقى وتعتمد فى أثرها على قدرتها على الإيحاء، وهى أشبه ما تكون بحالة الطفل الذى يريد التعبير عما يشعر به من نشوى فلا تسعفه الكلمات ولا يجد أمامه من سبيل غير تكرار بعض الألفاظ الموحية والمعبرة عن التجربة التى تتجاوز قدرته على الفهم أو الإحاطة. ولعل أفضل مثل على هذا هو شعور الفيلسوف الفرنسى المعروف باسكال فى الليلة التى رأى فيها الله يتجلى له. فهو لم يجد أمامه غير بضعة كلمات يصيح بها: «يا للفرحة ... يا للفرحة .. يا للفرحة ويا لدموع الفرح...».

وتدل «الإشراقات» على استقلاله وأصالته وعدم تأثره حتى بالشاعر فيرلين الذى كان آنذاك لصيقا به. فهى لا تعبر إلا عن ذاته ووحدته وأحلامه وصلته الروحية بالله. ومن أجمل قصائد «الإشراقات» قصيدة بعنوان «الشروق»، وموقف الشاعر فيها من الطبيعة يختلف تمام الاختلاف عن موقف الشعراء الآخرين منها. فالطبيعة تبدو له وكأنها جسد امرأة مغر وجذاب يشتهيه الشاعر ويتحرق شوقا لامتلاكه. ويريد أن يعطيها نوعا من الحب لم يسبق أن أعطاه قط لأية امرأة. والقصيدة لا تصف الشاعر وهو يضاجع هذه المرأة الفاتنة بل وهو فى حالة جماع معها.

ورغم أن رامبو سبق كاهن ولا فورج وغيرهما في استحداث الشعر الحر بعشرة أعوام على أقل تقدير فإن إنجازه الحقيقى يتمثل في إنتاجه من القصائد النثرية. ففي قصائده النثرية تتجلى أصالته .. والقصيدة النثرية تناسب موهبته وخاصة لأنها تسمح له بحرية لا نهاية لها. ومن الخطأ أن نظن أن رامبو أول من استخدم القصيدة النثرية فقد سبقه إلى ذلك جيرارد دى نيرفال وألوسيوس برتراند وشارل بودلير وشارل كروس والقصيدة النثرية في يد هؤلاء الأدباء إما وصفية أو سردية. أما القصيدة النثرية عند رامبو فشيء مختلف لا هو بالوصفي ولا هو بالسردي بل هو شيء شديد الإيجاز والاختصار والتركيز، وأحيانا نرى أن وظيفة القصيدة النثرية تتلخص في التعبير عن ومضة صوفية قصيرة أو إشراقة عابرة وأنها لاتزيد على سطر واحد. ولا يقطع الدارسون بالمصدر الذى استقى منه رامبو هذا الضرب في القريض. فمنهم من يرده إلى إطلاعه الدائم في طفولته على الكتاب المقدس، ومنهم من يرده إلى تأثره بترجمات الشعر الغنائي الصيني إلى الفرنسية التي انتشرت آنذاك. ومن الجائز أنه تأثر بالقصيدة النثرية التي نظمها صديقه الشاعر شارل كروس. والجدير بالذكر أن الفضل يرجع إلى فيرلين في تأليف رامبو لهذه القصائد النثرية فقد أدى تشجيعه

مؤازرته وإيمانه الذى لا يتزعزع بموهبته الأدبية إلى استمرار رامبو فى الخلق والإبداع رغم فقره المدقع وضياعه الاجتماعى ورغم كل ما قابله من مظاهر الإحباط والفشل وزراية العالم الخارجى به.

تهتك فى لندن وفى عواصم أوربية أخرى:

حتى تكتمل لنا صورة التهتك الذى عاشه رامبو مع فيرلين نذكر أنه فى صيف عام ١٨٧٢ ضاق شاعرنا ذرعا بالحياة فى باريس فعقد العزم على مغادرتها برفقة عاشقه فيرلين الذى لم يعد يطيق فراقه وأصبح رهن إشارته وطوع بنانه. وفى أحد أيام هذا الصيف خرج فيرلين من منزله متوجها إلى صيدلية قريبة ليحضر منها دواء لزوجته المريضة. وعرض رامبو على عاشقه أن يهربا معا بعيدا عن باريس. واعترض فيرلين على هذه الفكرة بقوله: «وماذا عن زوجتى؟». فأجابه رامبو قائلا: «فلتذهب زوجتك إلى الجحيم». وكما توقع رامبو انتهى الأمر باستسلام فيرلين الكامل لمشيئته. ثم استقل العاشقان القطار المتجه إلى آراس حيث تعيش عمة فيرلين العجوز. وفى آراس جلسا فى أحد المقاهى يقتلان الوقت ويتجاذبان أطراف الحديث ويخترعان حكايات من نسج الخيال. وتظاهر الرجلان أنهما من اللصوص وقطاع الطرق

فسمعهما بعض الجالسين على المقهى من الطبقة البورجوازية وهما يتباريان فى التباهى بما ارتكباه من سرقات وما قاما به من محاولة قتل. وتعمد الاثنان الكلام بصوت هامس وخفيض وسمع الجارسون في البار همسهما فاستدعى رجال الشرطة سرا الذين جاءوا للقبض عليهما وتقديمهما إلى القاضي، وبعد التحقيق معهما وضعهما البوليس فى القطار المتجه إلى باريس، ولكن العاشقين بدلا من أن يمكثا فى باريس ذهبا إلى مدينة تشارلفيل بعد أن تأكدا من غياب أم رامبو عنها. وفى تشارلفيل أمضى الاثنان أمسية لطيفة مع صديقهما المشترك تشارل بريتانى. ومن هناك استأجر العاشقان عربة يجرها جواد لنقلهما إلى الحدود البلجيكية، ثم سافرا من الحدود إلى بروكسل. وعيل صبر الزوجة المسكينة وهي تنتظر عودة زوجها إليها بالدواء. وظنت أن مكروها أصاب زوجها فبلغت أقسام البوليس والمستشفيات فى باريس فبحثوا عنه فى كل مكان بما فى ذلك المشرحة دون جدوى. وبعد مضى بضعة أيام أرسل فيرلين من الأراضى البلجيكية إلى زوجته الملتاعة الرسالة القصيرة التالية: «عزيزتى ماتيلدا. لا تحزنى ولا تلتاعي وكفكفي دمعك . فأنا أعيش فى كابوس ! وسوف أعود إليك يوما ما».

وعندما تسلمت الزوجة هذا الخطاب استنتجت ماحدث وأدركت أن زوجها قد هجرها تحت تأثير رامبو الساحر اللعين. فقررت أن تسافر بنفسها إلى بروكسل على أمل أن تعيد زوجها إلى رشده، وقد وصف فيرلين التقاءه بزوجته في قصيدة بعنوان «بروكسل ولندن» كتبها في الفترة من سبتمبر إلى أكتوبر ١٨٧٢. ويبدو أن ماتيلدا استطاعت عند وصولها إلى بلجيكا أن تبرز له مفاتنها وتنسيه عشقه لرامبو عند ضمهما سويا فراش واحد. ولكن أثرها عليه كامرأة سرعان ما تبخر وبعد أن تعهد الزوج لزوجته أن يقطع كل صلة تربطه برامبو نكص على عقبيه ونكث بعهده ولم يعد معها إلى باريس كما وعد وطلب من زوجته أن تسمح له بمقابلة رامبو لتوديعه وتصفية الأمور معه. وطلب إليها أن تقابله على محطة القطار. وبالفعل عاد فيرلين إليها ولكنه كان مخمورا حتى الثمالة وفي حالة نفسية سيئة للغاية. وظل صامتا طيلة الوقت لا ينبس ببنت شفة حتى وصل القطار إلى الحدود بين بلجيكا وفرنسا. وانشغلت الزوجة وأمها التي كانت تصاحبها في إنهاء إجراءات الجمارك. فلما عادا إلى القطار اكتشفا أن فيرلين قد نزل واختفى منه. وعندما بدأ القطار يتحرك وجداه واقفا على الرصيف فصاحا كي يقفز إلى عربة القطار. ولكن فيرلين أبى أن يفعل ذلك وهز

رأسه تعبيراً عن رفضه. ثم ما لبث أن تركه القطار خارجا من المحطة.

ومكث الشاعران العاشقان شهرين فى بروكسل وجابا الريف البلجيكى . وفى شهر سبتمبر سافرا بحرا من ميناء أوستند فى بلجيكا إلى ميناء دوفر بانجلترا. ثم توجه الاثنان من دوفر إلى لندن.

وفى لندن شعر فيرلين بسعادة غامرة مع رامبو وتمنى ألا يغادرها فقد استطاع أن ينذر وقته لقرض الشعر. وهناك تمكن من الانتهاء من تأليف ديوانه «رومانسيات بدون كلام». وهناك أيضا واصل الشاعران حياة التهتك والعربدة ينتقلان من حانة إلى أخرى ويختلطان بجميع طبقات المجتمع الأمر الذى ساعدهما على تعلم الانجليزية . وحاولا أن يكسبا رزقهما عن طريق إعطاء دروس خصوصية فى اللغة الفرنسية غير أن التوفيق لم يحالفهما نظرا لكثرة القائمين بتدريس هذه اللغة. وفى لندن لم يعن العاشقان بإخفاء طبيعة العلاقة الشاذة بينهما. ووصلت فضائحهما إلى باريس فانتهز محامى زوجة فيرلين هذه الفرصة السانحة لجمع الأدلة ضده حتى يسهل تطليقها منه. وعندما نما هذا إلى علم فيرلين أصابه الفزع وخشى من الفضيحة وكتب إلى والدة رامبو يطلب منها التدخل لوقف الشائعات عنه وعن ابنها.

والغريب أن أم رامبو استجابت لطلبه ولم تظهر ما كان من المتوقع أن تضمره من عداوة نحوه. ومن جانبه كتب رامبو إلى أمه يطلب منها أن تستعيد من حماة فيرلين كل الأوراق والرسائل التى كان رامبو قد بعث بها إلى صديقه فيرلين الذى تركها فى بيته فى باريس بسبب سفره المتعجل إلى بروكسل. وحتى يغريها رامبو بأداء هذه المهمة ذكر رامبو لأمه أن هذه الأوراق صالحة للنشر وأن نشرها سوف يعود عليه بشىء من المال ، وفعلا اتصلت والدة رامبو بوالدة فيرلين وسعت المرأتان إلى استرجاع هذه الأوراق .. ولكن حماة فيرلين رفضت إرجاعها. وكانت هذه الأوراق تضم كثيرا من القصائد المعروفة باسم «إشراقات» إلى جانب كثير من قصائده الباكرة وقصيدة «السعى الروحى» وهددت الحماة بأنها سوف تستخدم هذه الأوراق فى طلب الطلاق. وخرجت والدة رامبو غاضبة بعد مقابلة عاصفة مع حماة فيرلين وصممت الأم أن تبعد ابنها رامبو عن طريق فيرلين بكل الطرق. والغريب أن المعاملة السيئة التى لقيتها على يدى حماة فيرلين جعلتها تشعر بالعطف نحو هذا الشاعر والنفور من أهل زوجته. ونصحت مدام رامبو ابنها بالابتعاد عن طريق فيرلين حتى لا تجر رجله فى قضية الطلاق التى تزمع ماتيلدا رفعها ضد زوجها .

واستجاب رامبو إلى نصيحة أمه فترك فيرلين ليعود في فترة أعياد ميلاد ١٨٧٢ إلى مدينة تشارلفيل وبقى فيرلين بمفرده فى العاصمة البريطانية حيث أصيب بانفلونزا حادة، فتوهم أنه على وشك الموت وأرسل إلى رامبو كي يعود ويراه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. وبالفعل عاد إليه رامبو. وما أن استرد فيرلين صحته حتى عادت ريمة إلى عادتها القديمة . وواصل الاثنان عام ١٨٧٣ حياة الفسق والمجون في لندن. وفي تلك الفترة من حياته بدأ رامبو يزور الموانئ ويخالط البحارة وعمال الموانىء يحاول أن يفهم منهم السر في اختيارهم لحياة التجوال الدائم التي يحيونها. ولعل هذه الموانى استثارت أشجان رامبو في طفولته. وكوامن أحلامه في أن يجوب البحار في سفن من صنع الخيال. وهي الأحلام التي أوحت إليه فيما بعد بكتابة «السفينة الثملة» . ولعله أيضا أراد أن يحذو حذو هؤلاء البحارة في مغامراتهم. ومن الجائز أنه ضاق ذرعا بحياة التأمل والتفكير المجرد فأراد أن ينصرف إلى حياة العمل. وعرف رامبو من هؤلاء البحارة الآتين من كل بقاع العام أن بلاد الله البعيدة والنائية تزخر بإمكانات للتجارة والربح لا حد لها. ولعل هذا هو السبب الذي حدا به إلى أن يشد رحاله إلى عدن والحبشة فيما بعد .

وعلى كل حال عرف رامبو حياة الفقراء والمعدمين فى لندن عن كثب نتيجة اختلاطه بهم الأمر الذى جعله يعطف عطفا شديدا عليهم ليس بوصفهم أفرادا ولكن بوصفهم طبقة مكافحة كادحة. وفى تلك الفترة أيضا كتب عددا من قصائده المعروفة بعنوان «إشراقات» التى ابتعد فيها عن التصوف واقترب من الواقع ومشكلات الحياة اليومية واستبشاعه للحضارة الصناعية الحديثة. ويقال إن رامبو وفيرلين تعلما تعاطى الأفيون نتيجة اختلاطهم بالبحارة. وعلى أية حال يعتبر تحول اهتمام رامبو من سموق الحياة الروحية إلى الاهتمام بأرض الواقع أمراً كان له أثر واضح فى آرائه. فقد بدأ يقتنع بخواء الفن وبأنه ضيع حياته هباء منثورا سعيا وراء الروحيات والتصوف. وتبعا لهذا أخذ ينبذ إيمانه السابق بجدوى الفسق والانحلال اللذين لم يخلفا وراءهما غير المرارة والوحدة والندم والاشمئزاز من النفس. وانعكس هذا التغير فى آرائه فى الفن والحياة فى ديوانه المعروف باسم «فصل فى الجحيم» الذى يعتبره النقاد والدارسون مفتاحا لديوان الإشراقات السابق عليه. وهم أيضا يعتبرون «فصل فى الجحيم» بمثابة دموع حارقة ذرفها الشاعر للتعبير عن ندمه على ضياع حياته الماضية وإدراك مروع وفظيع من جانبه لعبث إيمانه

السالف بالقدرة على تغيير العالم وعلى استحداث لغة جديدة وشكل جديد للفن واعتقاده أنه بإمكانه أن يتمتع بألوهية الله عز وجل، وأدرك الشاعر أنه بذلك ارتكب أفظع معصية وهى معصية الكبرياء. والأكثر من هذا أن رامبو فقد إيمانه بجدوى الشعر وبأن الشعر مملكة الله وأن الشاعر صوت الله على الأرض. لقد صور له كبرياؤه أنه نبى بعثته العناية الإلهية من أجل هداية البشر ومن أجل أن يأتى بما لم يأت به الأوائل. فلما أفاق إلى الحقيقة والواقع أدرك أنه ليس أفضل من الشعراء السابقين عليه فى شىء وأنه ليس صوت الله على الأرض بل مجرد شاعر يستخدم شعره كما فعل غيره من الشعراء كوسيلة للتعبير عن مكنونات نفسه.

ويبدو أن رامبو قرر عام ١٨٧٣ أن يهجر عاشقه فيرلين إلى الأبد. ففى هذا العام عاد إلى أسرته فى شارلفيل ليعيش بينها. ولكنه تحرك بينهم فى صمت مطبق كصمت الموتى وظهرت عليه أعراض السهاد فهو يرقد فى سريره بالساعات الطوال مفتوح العينين لا يغمض له جفن. وبدا للمحيطين به كإنسان مدمن لا يجد المخدر الذى يشتهيه فى متناول يده فيصيبيه مس من جنون. وفى بيته وبين أهله توافر رامبو على تأليف رائعته الشعرية «فصل فى الجحيم» وقد انسلخ تماما عنهم ولم يجد مكانا يسكن إليه ويقبع

فيه لينظم شعره سوى الجرن أو مخزن الغلال في حين كانت أمه وأخته تعملان في الحقل دون أن يفكر في مشاركتهما بأي مجهود.

وفي تلك الفترة سعى فيرلين إلى الصلح مع زوجته ولكن والدها أصر على طلاقها منه. ولما أحس فيرلين أن كل شيء قد ضاع من بين يديه ألحف في عودة رامبو إليه. وكتب إليه عدة رسائل يغريه فيه بالرجوع . وبعد لأي واقتناع من جانب رامبو استطاع فيرلين أن يقنعه بالسفر معه مرة أخرى إلى انجلترا حتى ينعما بالسعادة التي عاشا فيها في عام ١٨٧٢ المنصرم. وبالفعل شد العاشقان رحالهما إلى انجلترا للمرة الثانية في ٢٧ مايو ١٨٧٣. ولكن رامبو هذه المرة لم يعرف طعما للسعادة فقد تمزقت نفسه وتلظت روحه وأحس بأنه يرزح تحت عبء ثقيل يتمثل في علاقة فيرلين به وتاقت روحه إلى التحرر من وطأة إحساسه العميق بالذنب. وبدأ يظهر في تصرفاته جنوح إلى السادية والرغبة في إيذاء مشاعر صديقه والسخرية منه ومن ضعف شخصيته والاستخفاف بكل آرائه ومبادئه. ولم يعرف رامبو نفسه ماذا حل به ولماذا يعامل فيرلين كل هذه المعاملة القاسية. وأحيانا كان يشعر بالندم لقسوته على صديقه فيعتذر له ويعامله أرق معاملة ويطلب منه العفو والسماح. وشعر فيرلين بالتعاسة فحاول أن

يحمل زوجته التى هجرته مسئولية شقائه. ويقال إن رامبو آنذاك وقع في غرام فتاة انجليزية رآها فى مترو الأنفاق فى لندن. ولكن هذه العلاقة كسابق علاقاته النسائية باءت بالفشل والإخفاق.

وفى يوم من الأيام خرج فيرلين من البيت ولم يعد بعد أن ضاق ذرعا من تهكم رامبو عليه. يقول فيرلين فى تفسير ماحدث أنه عند عودته إلى البيت ذات يوم حاملا فى إحدى يديه سمكة رنجة مملحة وفى يده الأخرى زجاجة زيت سلطة رآه رامبو من النافذة فاستغرق في القهقهة والضحك على منظره فما كان من فيرلين إلا أن ترك له المنزل دون أن يتفوه بكلمة واحدة بل دون أن يأخذ معه أى شىء بالمرة. وأصاب الفزع رامبو الذى كان يعتمد فى معاشه على فيرلين. فقد أصبح الآن وحيدا ومن غير عائل فى مدينة لندن الواسعة المترامية الأطراف. واستعرض رامبو كلمات فيرلين أخيرا فتنبه إلى أن فيرلين فى الآونة الأخيرة كثيرا ما هدد بتركه والسفر إلى بلجيكا. وجرى رامبو وهو يلهث إلى المرفأ أو حوض السفن ليجد صديقه على ظهر السفينة أنتويرب التى كانت تتأهب للإقلاع . وأشار رامبو فى اضطراب إلى صديقه كى يغادر السفينة، ولكن فيرلين أشاح عنه بوجهه. ثم أقلعت السفينة من الميناء وفيرلين على ظهرها . فانصرف رامبو محزونا وقد غلبه الهم

والأسى. ومن فوق ظهر السفينة كتب فيرلين خطابا إلى زوجته ماتيلدا رجاها فيه أن تغفر له وتلحق به فى بروكسل. وفى الوقت نفسه أرسل رامبو إلى فيرلين خطابا يتضرع فيه أن يعود إليه ويعتذر عن خطأه فى حقه. وكعادته استسلم فيرلين لضعفه وصفح عن إساءات رامبو له. ومن بروكسل كتب فيرلين إلى أمه يندب حظه العاثر ويهدد بالانتحار إذا أصرت زوجته على عدم الرجوع إليه. وفى الوقت نفسه كتب خطابا آخر إلى أم رامبو يبلغها فيه بعزمه على الانتحار . فيحن قلبها عليه وترسل إليه ردا يفيض بالعطف والشفقة ولا يتناسب مع جمود عواطفها الذى تميزت به. وفيه نصحته هذه المرأة أن ينزع من عقله فكرة الإقدام على الانتحار لأنها دلالة على الجبن والتخاذل كما نصحته بالاستمساك بأهداب الدين والثقة برحمة الله وحكمته. وطلب فيرلين من رامبو أن يقابله فى بروكسل قبل تطوعه للقتال فى أسبانيا. ولكن فيرلين المتردد دائما سرعان ما نبذ فكرة السفر إلى إسبانيا واقترح على رامبو أن يعيشا فى لندن. ولكن رامبو هذه المرة عقد العزم على التخلص نهائيا من علاقته بفيرلين. وصارح رامبو صديقه بضرورة إنهاء العلاقة بينهما. فهاج فيرلين وماج وعاد إلى البيت فى حالة سكر بين ومعه مسدس اشهره فى وجه رامبو مهددا بأنه اشتراه

ليقتل به كل من يعترض طريقه. ولم يعبأ رامبو بتهديد صديقه وأكد له عزمه على السفر إلى باريس بعد ظهر اليوم نفسه. وجن جنون فيرلين فأوصد الباب وأحضر كرسيا وجلس عليه ليمنع صديقه من الخروج وأمسك بالمسدس وأطلق ثلاث طلقات على رامبو من مسافة قصيرة لا تتعدى الثلاث ياردات. وأصابت الرصاصة الأولى معصم رامبو وطاشت الرصاصات الآخريات واستقرت في حائط الحجرة. وفي الحجرة المجاورة جلست والدة فيرلين التي كانت قد حضرت على عجل عندما أرسل إليها إبنها ينبئها بعزمه على الانتحار. وهالت فيرلين فظاعة فعله فانهار وجرى نحو أمه ليقول لها إنه أطلق الرصاص على رامبو ثم ارتمى على السرير وانخرط في نشيج ونحيب عنيف. وظهر أمامه رامبو فأحس بوخز الضمير والندم المروع. وسلم فيرلين المسدس إلى صديقه ورجاه أن يخلصه من حياته. وأخيرا نجحت الأم بمساعدة رامبو في تهدئة ابنها. وقام رامبو بربط ضمادة مؤقتة على معصمه. والغريب أن أحدا لم يتنبه إلى استمرار وجود المسدس مع فيرلين أو يفكر في انتزاعه منه والاحتفاظ به في مكان أمين.

وتوجه رامبو إلى المستشفى يصحبه فيرلين لاستخراج الرصاصة من معصمه. ولم يتهم رامبو صديقه بمحاولة قتله. وبعد

أن تماثل إلى الشفاء فكر فى أن يسافر إلى عائلته ليعيش وسطها. وعندما حان موعد رحيل رامبو بدأت العصبية تجتاح فيرلين من جديد. ومرة أخرى اعترض فيرلين طريق صديقه ورجاه وألحف فى الرجاء أن يبقى معه. ولكن رامبو أصر على الرحيل. وفى طريقهما إلى محطة السكة الحديد فقد فيرلين السيطرة تماما على أعصابه وأخذ يهدد رامبو من جديد قائلا إنه سوف يصيب الهدف هذه المرة. وخشى رامبو على حياته فجرى فى الشارع واستعان برجل بوليس وطلب منه أن يحميه ولم يكن هناك مناص من القبض على فيرلين. حدث ذلك فى ١٠ يوليو ١٨٧٣. واقتيد فيرلين إلى السجن فى بروكسل بتهمة الشروع فى قتل رامبو الذى اضطر إلى قضاء أسبوع بأكمله فى المستشفى حتى نجح الأطباء فى استخراج الرصاصة من معصمه. وبعد خروجه من المستشفى يوم ١٩ يولية ١٨٧٣ بدأ يدرك خطورة موقف فيرلين الذى وجهت إليه تهمة الشروع فى القتل. وعز على رامبو أن يلقى صديقه بئس المصير بسببه فتوجه إلى المحكمة بعد خروجه من المستشفى وصرح بأنه تنازل عن بلاغه ضد فيرلين. وأكد رامبو أن صديقه لم يشهر عليه المسدس بقصد قتله مؤكدا أن المسألة لا تعدو أن تكون مجرد

خطأ أو مصادفة. ولكن تنازل رامبو عن بلاغه لم تكن منه فائدة تذكر لأن العدل كان لابد أن يأخذ مجراه وأن تسير الإجراءات القانونية فى طريقها المحتوم. وعندما علمت زوجة فيرلين بما حدث حضر محاميها لبروكسل لجمع كل الأدلة التى تساعده على الحصول على حكم بطلاقها من زوجها. وأسهم وجود هذا المحامى فى بروكسل فى تعقيد موقف فيرلين فقد تم توقيع الكشف الطبى على فيرلين عقب ارتكابه الحادثة وجاء فى التقرير الشرعى أنه تبين وجود أعراض اتصال جنسى سلبى وإيجابى على المتهم. وقد قرأ هذا التقرير أمام هيئة المحكمة المنعقدة بتاريخ ٨ أغسطس ١٨٧٣ الأمر الذى ساعد على تشدد القضاة مع المتهم وعدم استعدادهم لتخفيف الحكم عليه. وصدر الحكم بإنزال أقصى عقوبة على المتهم وهى حبسه لمدة سنتين مع الأشغال الشاقة وتغريمه مائتى فرنك. وفى ابريل ١٨٧٤ استطاعت زوجة فيرلين الحصول على الحكم بالطلاق استنادا إلى قسوته فى معاملتها وسوء طباعه وخلقه. ولم تكن المحكمة فى حاجة إلى الاستناد إلى تهمة الشذوذ الجنسى لتصدر حكمها بالطلاق.

وكان الأسبوع الذى قضاه رامبو فى المستشفى للعلاج نقطة تحول فى حياته. فقد رأى الممرضات الراهبات يرحن ويجئن

في عنابر المرضى وكأنهن ملائكة الرحمة هبطن من السماء على الأرض وهن يتحركن في ملابسهن الطاهرة والناصعة البياض ويسرن على أطراف أصابعهن حتى لا يتسببن في إزعاج النزلاء. وذكره هذا الجو النقي الطاهر بأيام طفولته البريئة عندما كان ينتشي بعبق البخور في الكنيسة. عندئذ أحس رامبو بالراحة المطلقة التي يستمدها الإنسان من الإيمان بالله والتسليم لمشيئته.

وبعد خروجه من المستشفى في بروكسل سافر رامبو إلى أسرته ودخل عليها وذراعه مربوط إلى عنقه ومرفوع في ضمادة. وبمجرد دخوله البيت وضع رأسه على المائدة وأجهش في البكاء.

وشعرت الأم بالألم الممض الذي يكابده فلذة كبدها فترفقت به وأشفقت عليه ووعدته بأن تساعده ماليا في نشر ديوانه «فصل في الجحيم» الذي عجزت عن أن تفقه فيه حرفا بعد أن انتهى من تأليفه.

«موسم في الجحيم»:

بلغ رامبو أوجه في ديوانه «موسم في الجحيم» الذي يحتوي على فقرات نثرية تعتبر أروع ما سطره يراعه. ولا يعرف الدارسون تاريخ تأليف هذا الديوان على وجه التحديد. ولكن رامبو يذكر أنه

انتهى من تأليفه فى الفترة بين أبريل وأغسطس ١٨٧٣. ومن الثابت أن شاعرنا كتب ثلاثة من فصول هذا الديوان التسعة فى لندن عام ١٨٧٢ أثناء إقامته مع فيرلين تحت سقف واحد، الأمر الذى يدحض الزعم بأن هذا الديوان ثمرة تجربته المريرة فى بروكسل. ويصف «موسم فى الجحيم» هبوط الشاعر إلى الجحيم الذى يمكن اعتباره رمزا لمواجهة الشاعر لنفسه. وتمثل هذه المواجهة تجربة فظيعة ومروعة تنذر بالتفكك والتحلل الإنساني الكامل. ولكن الشاعر فى نهاية المطاف يتمكن من الانتصار على عوامل التفكك والتحلل. ومما يزيد من صعوبة قراءة هذا الديوان أنه يتناول الماضى والحاضر والمستقبل دون أدنى ضابط أو رابط وبدون وجود همزة وصل تصل هذه الأزمنة المختلفة بعضها ببعض. ورغم أن الديوان يتناول عزم الشاعر على الامتناع عن قرض الشعر فإنه يدور - وهو الأهم - حول حياة الشاعر الروحية وعلاقته بالله ويمكن القول إن «موسم فى الجحيم» يعالج مشكلات ثلاث هى إحساس الشاعر العميق بالذنب والندم على ما أتى من أفعال ثم حاجته إلى الإيمان بالله ثم ضرورة قبوله الحياة على علاّتها. وهى موضوعات يختلط بعضها بالبعض وتتردد فى طول الديوان وعرضه.

لقد صور له خياله وهو يؤلف إشراقاته إنه يستطيع أن يطاول الله سبحانه وتعالى وأن يجتث من نفسه جذور الإحساس بالخطيئة فاتضح له أنه واهم وأنه لا يعدو أن يكون ساذجا وعزيراً، فالشعر لم يضعه في مصاف الإلهة فوق جبل الأولمب ولكنه أنزله إلى أعماق الجحيم. لقد شغلت باله مشكلة وجود الخير والشر والصراع المحتدم بينهما. وهذا أحد الأسباب القوية التى دعته إلى تأليف «موسم فى الجحيم». والجدير بالذكر أن عنوان الديوان الأصلى كان «كتاب الوثنى أو كتاب الزنجي». واختار رامبو العنوان الأصلى ـ فالوثنى مثل الزنجي البدائى لم يأكل من شجرة معرفة الخير والشر التى غرستها الديانة المسيحية. ومن ثم فإنه لا يعرف الفرق بين الخير و الشر ولا يستطيع التمييز بينهما. وعندما اكتشف رامبو غفلته. أدرك أن الحضارة المسيحية التى يسعى للإطاحة بها تتمثل فى كل ذرة من كيانه.

ويعبر «موسم فى الجحيم» عن اشتياقه الجارف إلى العثور على إله تختلف صورته عن تلك الصورة التى رسمتها له الكنيسة الكاثوليكية والتى اعتبرها شاعرنا منفرة وقبيحة ولكن التجربة حكمت بالفشل على بحثه عن الإله البديل القادر على إرضاء

طموحاته وتطلعاته الروحية. فاضطر إلى التوقف عن البحث وأراد العودة إلى إله المسيحية القديم ولكن رغبته فى الاحتفاظ بشخصيته وحريته حال دون ذلك. ويلقى «موسم من الجحيم» الضوء على الصراع بينه وبين الله فالديوان يعطينا الانطباع بأن نفسه تهفو إلى حب الله وإلى القرب منه ولكن حبه للحرية والاستقلال يفوق حبه لله. غير أن الأيام تثبت له خواء هذه الحرية فهى مجرد وهم جديد يصيب روحه بالتشويه والشلل. وكيف لا تتشوه روحه وهو يسعى لإخراس صوت الله فيه. وبالإضافة إلى هذا الإخفاق الروحى هناك فشل الشاعر فى قبول الحياة على علاتها فقد ظلت جذوة المثالية تشتعل فيه وظل قلبه يرفض كل مظاهر القبح المحيطة به .. ومن ثم عجزه عن التوائم مع الحياة والتجائه إلى المسكرات والمخدرات وممارسة الشذوذ يناطح بها الواقع المشوه والقمىء الذى لا يملك تغييره. ويتضمن «موسم فى الجحيم» نبض إخفاق الشاعر فى مناطحة الحياة والتكيف معها.

كتب رامبو افتتاحية «موسم فى الجحيم» بعد أن عاد فى يوليه ١٨٧٣ من بروكسل وهو فى حالة من التمزق النفسى العنيف نتيجة تعرضه لخطر الموت على يدى فيرلين، الأمر الذى جعله يعيد

النظر فى حياته الماضية بأسرها ويشيح بوجهه عن الحب والفن والفلسفة. استرجع شاعرنا أيام طفولته البريئة الخالية من الشرور والآثام وتمنى العودة إليها. وأعاد رامبو النظر فى المسيحية فوجد أن الإنسان هو الشيء الوحيد القادر على إنقاذه مما هو فيه من كرب غير أن عدم استعداده للتضحية بحريته أو التنازل عن استقلاله حال دون ذلك.

وبعد المقدمة يورد الشاعر فصولا منفصلة يسميها «بعض الأوراق الفظيعة الدالة على اللعنة» على رأسها فصل طويل بعنوان «الدم الردىء» حاول فيه أن يحلل أسباب فشله ويخلص الشاعر إلى أن بلواه تكمن فى انتمائه إلى جنس بشرى منحط يعيش فى أوربا التى توارثت العقيدة المسيحية الضارة منذ ألفى عام. ويجول بخاطر الشاعر أن يهرب إلى أرض حام أو افريقيا حيث يهرب ويحتمى من الموت الروحى والحضارى الذى أصاب القارة الإفريقية ولكن يتضح له أن الطريق أمامه مسدود وأن الشر حقيقة واقعة ليس منها مهرب. ويهتدى الشاعر إلى ملاذ آخر يتمثل فى أن ينبذ الإنسان طواعية وعن طيب خاطر كل احتياجاته فتتوافر له بذلك كامل حريته ويتحرر من كل مصادر الاستعباد. ويتحدث الشاعر عن حياته فلا يجد فيها غير الوحدة والوحشة وعجز الناس

عن فهمه وفهم أحلامه واضطهادهم له لأن أفكاره تختلف عن أفكارهم. فهم لا يرون فيه سوى تجسيد للشر دون أن يعنوا بالنظر إلى نقاوة قلبه وطهارته. وتمر به التجارب فيتضح له أنه بالفعل سلك سبيل الندامة وأن الأمل على الأرض بات مستحيلا. ومن ثم رجاؤه في وجود عالم أخر يلوذ به من الدنيا. ويتهلل قلبه فرحا وانشراحا بهذا العالم الآخر ويحلم بسفينة تنقله فى أمان إلى هذا العالم حيث ينعم بالحرية وبأصوات الملائكة وهى تترنم بأهازيج الحب القدسى الخالد.

وفى الفصل الذى سطره رامبو فى يونيه - يوليو ١٨٧٣ بعنوان «الهداية الزائفة» ثم غير عنوانه إلى «ليلة الجحيم» نراه يرزح ويئن تحت وطأة الإحساس الرهيب بالذنب. ويعكس هذا الفصل مقدار الألم الممض الذى عانى منه نتيجة علاقته الشاذة والمتوترة بفيرلين. ولم يتلظ شاعرنا بألسنة اللهب المنبعثة من جحيم واحد فكل شر من شروره جحيم له ناره المستعرة التى يتلظى بها. ويشير الشاعر فى «الهلوسة رقم ١» إلى الحب وفى «الهلوسة رقم ٢» إلى الفن لسببين رئيسيين لعثرته وسقوطه. وفى فصل بعنوان «المستحيل» يتناول الشاعر فشل الفلسفات

والمعتقدات الدينية فى أن تهديه سواء السبيل، حتى إيمانه بضرورة استعادة براءة طفولته أصبح فى نظره مجرد وهم زائف لا يقل زيفا عن الاعتقاد بإمكان إلغاء المسيحية وما استحدثته من إحساس بالذنب والعودة إلى المرحلة الوثنية السابقة عليها. كذلك نبذ الحضارة الغربية من أجل الاستمساك بحكمة الشرق بدا ضربا من الهلوسات ونوعا من الأوهام، وفجأة تلوح له حياة الروح كحل لمشكلته ولكنه لا يلبث أن يرفض هذا الحل ثم يفكر فى العمل كحل ووسيلة لخلاصه من عذاباته، ومهما كان عذاب الشاعر وشقاؤه فإن «موسم فى الجحيم» ينتهى بجملة إيجابيات منها نبذ السحر والكيمياء القديمة والإيمان بالحداثة واليقين العلمى ومنها أيضا استشراف أمل جديد فى المستقبل، وفى النهاية يتخلى الشاعر عن غروره وصلفه ويعتبر نفسه واحدا من البشر العاديين وليس نبيا يهديهم سواء السبيل، ويغمره إحساس عميق بالتواضع والرغبة الصادقة فى الغفران وتتطهر روحه من الأوشاب والأدران ويتمكن من قبول الحياة على علاتها.

وعندما أصدر رامبو ديوان «موسم فى الجحيم» على نفقة والدته حمل نسخا من الديوان إلى كبار أدباء باريس وهو يتلهف لأخذ رأيهم فيه وظن أنهم سيفهمون دوافعه وأنه يقدم إليهم

الديوان كفارة عن حياته السابقة وإعوجاج مسلكه. ولكن هؤلاء الأدباء أشاحوا بوجوههم عنه فمنهم من اعتبره مخبولا ومنهم من اعتبره شيطانا رجيما وحمّله مسئولية ماحدث لفيرلين وأحس رامبو بالجرح العميق يمزق نياط قلبه عندما رأى زملاءه الأدباء يزدرونه ويزورون عن التوبة النصوح التى عبر عنها فى «موسم من الجحيم» وشعر بالوحدة القاتلة تفتك به. وفى يوم ١ نوفمبر ١٨٧٣ رآه شاعر ريفى غريب عن باريس اسمه البرت بوسان يجلس فى مقهى كان يلتقى فيه كثيرا بفيرلين مهموما محزونا شارد اللب ورغم امتلاء المقهى برواده الأدباء ممن يعرفونه فإن أحدا منهم لم يعن بالتحدث إليه بل تعمد الجميع تحاشيه. ولما رآه بوسان فى مثل هذه الحالة من الحزن والإنكسار دون أن يعرف هويته رق له قلبه وجلس بجواره وقدم إليه قدحا من الشراب. ولما لاحظ أن وجه رامبو يقطر وحشة وحزنا وكمدا آثر أن ينسحب حتى لا يكون سببا فى إزعاجه أو تعكير صفو وحدته الحزينة. وبعد أن أغلق المقهى أبوابه انصرف رامبو صامتا وظل يسير على قدميه حتى وصل إلى تشارلفيل. وهناك جمع أوراقه وأشعل فيها النار إيذانا بنبذ الفن والأدب إلى الأبد وعندما حدث ذلك كان الشاعر آرثر رامبو فى نحو التاسعة عشرة من عمره .

فيرلين مرة أخرى:

فى فبراير عام ١٨٧٤ عاد رامبو إلى باريس حيث تعرف على شاعر بوهيمى يدعى جيرمان نوفو يكبره بسنتين تقريبا. وسافر الإثنان إلى لندن حيث حاولا الارتزاق عن طريق تدريس اللغة الفرنسية للإنجليز. ولكنهما لم ينجحا فى ذلك بسبب كثرة المنافسين لهما. ويقال إنهما اشتغلا كعاملين فى مصنع لإنتاج الورق المقوى والكرتون. ولعل هذه أول مرة يشتغل فيها رامبو كعامل بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة. ولكنه لم يستمر فى هذا العمل لأنه اكتشف أن دخله منه لا يكفى لسد رمقه إلى جانب أنه مضيعة للوقت. ولكن هذا على أية حال لم يمنعه من ارتياد المتحف البريطانى ويبدو أن صحته النفسية تدهورت فى صيف عام ١٨٧٤. بشكل ينذر بالخطر لدرجة أن أمه اضطرت أن تغادر فرنسا وتسافر إليه فى انجلترا للبقاء بجواره ورعايته واصطحبت الأم معها ابنتها فيتالى التى أظهر أخوها رامبو حبا ومودة غير عاديين إذ حرص على مصاحبتها للفرجة على معالم لندن. ورغم أنه يبدو أن رامبو تلقى عروضا كثيرة للعمل فإنه رفض أن يقبل أيا منها. غير أنه قبل العمل فى مؤسسة لتعليم اللغة الفرنسية فى مدينة ريدنج فى شهر يوليو ١٨٧٤ أى عندما كان فى نحو الواحدة

والعشرين من عمره، وهناك بقى إلى نهاية العام، ثم قرر مغادرة انجلترا إلى الأبد وقد غمره شعور باليأس من الحياة ومن البشر كما فقد إيمانه بالديمقراطية وإمكان إنقاذ الإنسان من الشقاء. وكفر رامبو بالفن والأدب والدين والفلسفة ورأى أن المستقبل الحقيقى للإنسان يكمن في دراسة اللغات والرياضيات. وكما أسلفنا تعبر بعض أشعاره فى تلك الفترة من حياته عن رغبته فى زيارة أرض حام أى افريقيا. وهو ما أقدم عليه فيما بعد.

وبعد عام ١٨٧٤ أمضى رامبو خمسة أعوام من حياته هائما على وجهه فى أنحاء أوربا ومتنقلا بين القاهرة والاسكندرية . زار رامبو ألمانيا حيث تعلم اللغة الألمانية فقد كانت له قدرة مذهلة على تعلم اللغات المختلفة. وعندما خرج فيرلين من السجن من بروكسل كان رامبو لايزال فى ألمانيا. وعقب محنة السجن فكر فيرلين فى أن يصبح راهبا غير أن رئيس الدير أفهمه بوضوح أنه لا يصلح لحياة الرهبنة. فأصابه غم شديد واستطاع فيرلين عن طريق ديلاهاى الحصول على عنوان رامبو فى ألمانيا فأرسل إليه رسالة بشره فيها بضرورة العودة إلى حظيرة الدين والإيمان بالمذهب الكاثوليكى ولم يأخذ رامبو الخطاب مأخذ الجد. ولكنه وافق على مقابلة صديقه القديم. ولم يكد شمل الصديقين أن

يجتمع فى ألمانيا حتى نسى رامبو تويته كما نسى فيرلين رغبته فى الرهبنة وعادا إلى سابق حياتهما الفاسقة. وأخذا ينتقلان من حانة إلى أخرى. وفى أحد الأيام خرج الصديقان للتنزه على نهر الفيكار فدبت بينهما مشاجرة عنيفة. إذ يبدو أن فيرلين المخمور عاوده غرامه الجارف القديم لرامبو فأراد أن يحيى ما كان بينهما. غير أن رامبو انتهره فتهجم عليه فيرلين وضربه. ولكن رامبو الذي تفوق عليه فى قوته البدنية ضربه ضربة شديدة طرحته على الأرض مغشيا عليه ثم جرى تاركا إياه فاقد الوعى فى عرض الطريق. وفى الصباح عثر عليه بعض الفلاحين فالتقطوه من الطريق وحملوه فوق عربة يجرها جواد إلى المدينة. ثم سئم رامبو الحياة فى ألمانيا بعد أن تعلم لغتها ففكر فى السفر إلى إيطاليا لدراسة اللغة الإيطالية التى وصل إليها بعد أن عبر جبال الألب سيرا على الأقدام . ورغم أنه وصل إلى ميلانو منهوك القوى وفى مظهر زرى فقد أشفقت عليه صاحبة بنسيون وتوسمت فيه العلم والثقافة. وفى طريقه من ميلانو إلى برينديسى أصيب بضربة شمس كادت أن تودى بحياته فنقلوه إلى المستشفى للعلاج. وتدخل القنصل الفرنسى فى إيطاليا لإعادته إلى بلاده ولكنه آثر العمل كشيال فى الموانئ لقاء بضعة فرنكات على الرجوع إلى

أهله حتى أجبرته الحاجة على العودة إليهم. وكانت ظروف عائلته المادية آنذاك أشد ما تكون سوءا. وفكر رامبو أن يعيش على حساب فيرلين مثلما كان يفعل في الماضي. غير أن فيرلين الذى اقتنع بنفوذ صديقه السيء عليه امتنع عن مساعدته وأسدى فيرلين النصح لصديقه بالتمسك بالكنيسة الكاثوليكية ومبادىء المسيحية السامية.

ومن الثابت أن رامبو توقف عن الكتابة عام ١٨٧٥ فقد أبلغ ديلاهاى الشاعر فيرلين فى ذلك العام أن ينابيع الإبداع عند رامبو قد نضبت تماما. وفى فترة إقامته مع عائلته أمضى رامبو وقته فى تعلم المزيد من اللغات فتوافر على دراسة العربية والهندوتستانية والروسية. وخطر له أن يتعلم الموسيقى والبيانو. فطلب من فيرلين أن يمده بالمال اللازم لذلك، ولكن فيرلين استخف بطلبه معتقدا أنها حيلة جديدة يلجأ إليها رامبو كى يعيش على قفاه. ثم سافر رامبو إلى النمسا بهدف الوصول إلى روسيا والعيش فيها من أجل اتقان اللغة الروسية ، ولكن رحلته إلى روسيا لم تتجاوز العاصمة النمساوية في فينيا حيث شاء حظه العاثر أن يتعرف على عربجى نصاب جرده من كل أمواله وأمتعته الأمر الذى اضطره إلى التسول فى الشوارع حتى يجد ما يقتات به. وألقت السلطات النمساوية القبض عليه بتهمة التشرد واقتيد إلى الحدود الألمانية

لتسليمه إلى البوليس الألمانى الذى قام بدوره بنقله إلى منطقة الألزاس على الحدود الفرنسية. ومن هناك عاد مرة أخرى كسير النفس مهيض الجناح إلى عائلته فى تشارلفيل. يذكر ديلاهاى صديق عمره أنه بدا فى تلك المرحلة من حياته المضطربة العاصفة قوى البدن مفتول العضلات ونموذجا للمتشرد المحترف. وتراءى له آنذاك أن يجوب بلاد الشرق مبشرا بالدين المسيحى. ولكنه سرعان ما نبذ هذه الفكرة وفضل عليها التطوع للإنضمام إلى الجيش الهولندى الذى سافرت بعض فصائله فى ١٠ يونيه ١٨٧٦ على ظهر السفينة أورانج إلى مستعمرة جافا الهولندية فى أندونيسيا وفى الطريق إلى هذه المستعمرة رأى رامبو لأول مرة فى حياته البحر الأحمر والسودان وسواحل الخليج العربى والصومال. التى شاء قدره أن يعيش على أرضها فيما بعد ويعرفها عن كثب. غير أنه مالبث أن ضاق ذرعا بالحياة العسكرية الصارمة فهرب منها فى ١٥ أغسطس من العام نفسه دون أن يبالى بالعقد الذى وقعه مع جيش المستعمرات الهولندية لخدمته لمدة ست سنوات. وبعد هربه من الجيش الهولندى أخذ يجوب أحراش افريقيا وغاباتها لمدة شهور سافر بعدها إلى انجلترا ليعمل كبحار مفتول العضلات على ظهر سفينة شحن بريطانية تقل

شحنة سكر. وفي طريقها حول رأس الرجاء الصالح إلى ميناء ليفربول بانجلترا هبت على السفينة عاصفة عاتية كادت أن تحطمها وتقضي على حياة رامبو ومن فيها. وأخيرا وصل حيا يرزق إلى ميناء ليفربول ليقرر العودة إلى أسرته في تشارلفيل . عندئذ ظهرت عليه إمارات كبر السن رغم أنه لم يتجاوز الثانية والعشرين. فقد كثفت لحيته الشقراء وأغمق لون جلده. ولم يمكث رامبو مع عائلته في تشارلفيل طويلا فما أن انصرم فصل الشتاء وجاء الربيع حتى عاد إلى حياة التجوال الدائم فسافر إلى مدينة هامبورج بألمانيا أملا في العمل على ظهر إحدى السفن المتجهة إلى الشرق. ولكن التوفيق لم يحالفه. ويقال إنه جاب البلاد الاسكندنافية يعمل في السيرك. ولكن يبدو أنه لم يتحمل جوها القارص فطلب من القنصل الفرنسي في استوكهولم أن يعيده إلى فرنسا على نفقة الحكومة الفرنسية. وبالفعل استجاب القنصل إلى طلبه. وعاد الشاعر الشريد إلى عائلته في تشارلفيل ليمكث بها فترة قصيرة يسافر بعدها إلى جنوب الكرة الأرضية حيث الدفء اللذيذ والشمس الساطعة.

مصر مفتاح الشرق:

توجه رامبو إلى الاسكندرية للاستمتاع بجوها الدافيء. غير أن المرض أصابه في الطريق فاضطر قبطان السفينة التي تقله

إلى إنزاله للعلاج على ساحل إيطاليا. ومن إيطاليا عاد إلى أسرته كشأنه كلما ألمت به نازلة أو حلت به كارثة. ولكنه كعادته أيضا مالبث أن غادر بلدته تشارلفيل فى أكتوبر ١٨٧٨ للذهاب مرة أخرى إلى هامبورج لعله يجد سفينة أخرى تحمله إلى الشرق. وهناك تصادف أن قابل رجلا وعده بوظيفة فى الاسكندرية بشرط أن يسافر فورا إلى جنوة ليستقل السفينة المتجهة من هناك إلى مصر. وحتى يصل إلى جنوة فى إيطاليا تعين عليه اجتياز جبال الألب. ولسوء حظه اكتشف أن طريق سفر المركبات عبر الألب مغلق بسبب تكاثر الثلوج فى فصل الشتاء. فلم يجد مفرا من عبور الألب المغطى بالثلوج على قدميه. وكانت مخاطرة محفوفة بالمهالك لا يقدم عليها سوى مجنون. فهو يكاد لا يرى الطريق الممتد أمامه إلى مالا نهاية من فرط بياض الثلوج الناصع. وكانت الريح الصرصر العاتية تهب عليه فتؤلمه كأنها نصل سكين حاد. وتورمت قدماه من مشقة صعود الجبال ولم يعد يحس بأطرافه التى تجمدت من شدة الصقيع. وكادت الثلوج أن تغطيه حيا. ولولا أن لمح بيت ضيافة على الجبل يعيش فيه بعض النساك الذين اعتزلوا العالم لاستسلم للموت. وبعد أن وصل إليه وهو أقرب إلى

الموت من الحياة قدم إليه الرهبان وجبة طعام أحيته بعد موات كما أمدوه بفراش يرتاح عليه. وعندما أنقذته العناية الإلهية من الهلاك بدأت حواسه تعمل فنظر من حوله إلى جبال الألب وقد غطتها الثلوج ليرى منظرا ساحرا فاتنا يخطف سناه الأبصار. ولاحت منه نظرة إلى قريب فرأى أمامه الأبقار والأغنام والمراعى والمزارع والكروم الأمر الذى أنعشه وحفزه على السير حتى وصل إلى بحيرة لوجانو ومن هناك استقل القطار إلى جنوة، ومنها اعتلى ظهر السفينة المتجهة إلى الاسكندرية حيث التحق بالعمل فى مزرعة واسعة مترامية الأطراف، ولكنه سمع عن توافر فرص عمل أفضل فى جزيرة قبرص وتدر ربحا أكبر فقرر أن يجرب حظه فى هذه الجزيرة، وما أن تمكن من توفير بعض المال حتى سافر إلى السويس حيث التقى برجل فرنسى يملك فندقا فيها ويزاول أنشطة مشبوهة سعيا وراء الثراء السريع ومن بينها السطو على السفن الغارقة على الشواطىء وتجريدها من محتوياتها. وقبل رامبو أن يتعاون معه فأسند إليه هـذا الرجـل فى منتصف ديسمبر عـام ١٨٧٨ مهمة نهب إحـدى هـذه السفن. وبعد ذلك سـافر رامبو إلى قبرص التى احتلها الانجليز وانتزعوها من تركيا. وكانت السلطـة البريطانيـة الجـديدة بصدد إقامة عدد من

المشروعات العمرانية مثل حفر الترع وتعبيد الطرق وإدخال التحسينات على الموانىء فعين رامبو كرئيس عمال فى محجر من المحاجر الموجودة فى منطقة صحراوية خالية من النبت والزرع ومن كل أثر للحياة. وكان جو هذه المنطقة السيىء يتسبب فى وفاة كثير من الأوربيين العاملين هنا. ورغم انتشار مرض الملاريا فقد كتب الله لرامبو الحياة وظل يعمل فى قبرص حتى عام ١٨٧٩. ولكنه بدأ يشكو من مشقة العمل وظروفه القاسية فقرر أن يتركه. فضلا عن أنه وجد مشكلات عويصة في التعامل مع مرءوسيه من العمال لدرجة أنه طلب من السلطات البريطانية تزويده بالسلاح لحماية نفسه من الاعتداء وحماية المخازن التى كان مسئولا عنها من النهب والسرقة. وفى أحد الأيام قام العمال بكسر الخزنة التى بعهدته وسرقة ما فيها من مال، ولكنه تحايل على اللصوص حتى استطاع إقناعهم برد المبالغ المسروقة إليه. فقد خاطب فيهم إنسانيتهم وبين لهم أن تصرفهم سوف يؤدى إلى تضور عائلات زملائهم من الجوع. وفى يونيه عام ١٨٧٩ أصيب بالتيفود فاضطر كشأنه دائما إلى العودة إلى فرنسا للعلاج. وعند عودته إلى داره كانت مرارة أمه بسبب اعوجاج ولديها فردريك وآرثر قد بلغت مداها.

وعندما بلغ الشاعر الخامسة والعشرين من عمره في أكتوبر عام ١٨٧٩ لاحظ صديقه ديلاهاي أن تغيرا ملموسا قد طرأ عليه. فقد نبذ حياة الصخب إلى غير رجعة وكف عن العربدة وجنحت روحه المضطربة والهائجة إلى الهدوء والسكينة وبدأ الصفاء والرقة والعذوبة والشفافيه الروحية تطل من عينيه من جديد. ولم يشعر بفخر واعتزاز قدر فخره واعتزازه بالخطاب الدال على حسن السيرة والسلوك الذى أعطاه إليه رؤساؤه فى جزيرة قبرص بمناسبة تركه الخدمة معهم. حتى مظهره الخارجى بدأ يتغير، فبدلا من الأسمال القذرة التى يصر على ارتدائها أخذ يعتنى بملبسه ونظافة هيئته.

القارة السوداء تناديه (١٨٨٠ ـ ١٨٩١) :

كان رامبو فى السادسة والعشرين من عمره عندما وصل من قبرص للعمل فى محمية عدن البريطانية. ويتضح لنا من أول خطاب أرسله إلي أسرته من عدن بتاريخ ١٧ أغسطس ١٨٨٠ أنه ترك عمله فى شركة البناء فى قبرص بسبب الخلاف الذى دب بينه بين المهندس المسئول عن الموقع. ويلاحظ أن إقامته فى الشرق ميزت بكثرة مشاحناته ومشاجراته مع رؤسائه. وبعد أن غادر رامبو جزيرة قبرص أخذ يتنقل بين موانىء البحر الأحمر (مثل

جدة ومصوع والحديدة) بحثا عن فرصة عمل. وشاء قدره أن يلتقى بتاجر ومصدر بن كبير فرنسى الجنسية فى عدن اسمه بيير باردى أظهر عطفا عليه بسبب سوء حالته وأعطاه عملا بسيطا ككاتب حسابات فى شركته بعدن مقابل أجر زهيد للغاية. وإلى جانب تجارة البن، اشتغل بيير باردى فى تجارة الجلود واللبان والعاج والمسك. والجدير بالذكر أن فترة وجود رامبو فى الشرق شاهدت بدء الصراع بين الدول الأوربية من أجل السيطرة على الساحل الصومالى.

وبمجرد وصوله إلى عدن لم يخف رامبو مقته الشديد لها. ولا غرو فهى أرض بركانية قاحلة لازرع فيها ولا ضرع تكاد تحيط بها الصحراء من كل جانب. فضلا عن أن صخورها العالية وجبالها الشاهقة تحول دون دخول الهواء إليها. حتى الماء الحلو لم يكن يتوافر فيها مما اضطر سكانها إلى شرب ماء البحر بعد تقطيره. وبفضل أمانته واجتهاده استطاع رامبو أن يكسب ثقة صاحب العمل الذى قرر السفر إلى مدينة هرارى فى الحبشة ليدرس إمكان فتح فرع لشركته هناك خاص بتجارة البن. وفى هرارى انبهر باردى بالإمكانات المذهلة لتجارة البن الأمر الذى جعله يبنى مخازن كبيرة لجمع محاصيل البن فى تلك المدينة وأسند أمر

إدارتها بصفة مؤقتة إلى معاونه بنشار. وبعد عودته إلى عدن وقع اختيار بيير باردى على رامبو ليتولى إدارة فرع شركته فى هرارى لحين وصول أخيه ألفريد باردى، وأبرمت الشركة مع رامبو عقدا لمدة ثلاث سنوات يقضى بتعيينه ممثلا لها فى افريقيا نظير راتب شهرى قدره مائة وخمسون روبية فى الشهر أو ألف وثمانمائة روبية فى العام وبأن توفر له الشركة المسكن والمأكل على أن يتولى هو شراء حاجاته الخاصة. ويبدو من رابع خطاب بعث به رامبو إلى عائلته من عدن أن الشركة وافقت على إعطائه ٢٪ من صافى الأرباح عن المبيعات التى تتم عن طريقه بدلا من الـ ١٪ المشار إليه فى خطاب التعاقد الأصلى معه. وبذلك تحسنت أحواله المالية عما كانت عليه فى قبرص. وبمجرد أن وصل إلى عدن أصابه المرض غير أنه أبل منه بعض مضى بعض الوقت.

وفى مدينة هرارى امتدت إقامة رامبو على نحو متقطع نحو عشرة أعوام كان يشترى فيها البضائع وخاصة البن مقابل مقايضتها ببعض الأقمشة القطنية والمصنوعات الأوربية. ويجدر بنا أن نلم بطرف من تاريخ هرارى فى تلك الفترة. ففى عام ١٨٧٤ أرسل المصريون حملة بقيادة رءوف باشا لاحتلال هرارى وبسط نفوذهم عليها، واستطاعت الحامية المصرية هناك المكونة من عدة

آلاف من الجنود أن تقيم نوعا من الاستقرار وتنشر الأمان الأمر الذى شجع التجار الأجانب والأوربيين على وجه الخصوص على ممارسة نشاطهم التجارى وتحويل هذه المدينة إلى سوق لاستيراد البضائع الاستهلاكية من جميع بقاع العالم. وفى عام ١٨٨٤ اضطر المصريون إلى الانسحاب من هرارى والجلاء عنها. وساعد على هذا نجاح ثورة المهدى على الاحتلال المصرى للسودان.

وفى نوفمبر ١٨٨٠ ترك رامبو محمية عدن البريطانية كى يتسلم عمله الجديد فى هرارى يحدوه الأمل فى أن يصيب ثراء واسعا وسريعا. وعندما وصل هناك اتضح له أنه الفرنسى الوحيد الذى يعيش فيها. ولكن نفرا قليلا من الفرنسيين سرعان ما جاءوا إليها ومنهم ألفريد باردى ومبشر دينى وأسقف. وفى هرارى راودت رامبو أحلام اليقظة فى احتكار تجارة البن لحسابه فضلا عن احتكار بعض الصناعات الحرفية المختلفة. ولهذا أرسل إلى أهله فى فرنسا كى يمدوه بكتب تعالج بعض الموضوعات المتنافرة مثل صهر المعادن وصناعة الزجاج والطوب وأسقف المنازل. وهناك عاش رامبو بمعزل عن العالم الخارجى تماما وأحس بقسوة الليالى وشدة وطأتها عليه. ومما زاد من كربه أن حاكم هرارى لم يسمح له أو لأى من سكانها بالخروج من باب الدار بمجرد أن

تغيب الشمس، فقد جرت العادة أن يقوم الحراس بعد الغروب بإغلاق أبواب المدينة وتسليم المفاتيح إلى حاكمها. وإذا حدث أن وصلت قافلة للتجارة بعد الغروب تعين عليها الانتظار حتى الصباح خارج أبواب المدينة عندما يفتح الحراس البوابات ويسمحون لها بالدخول بعد تحصيل الرسوم منها. وقد كتب رامبو فى هذا الشأن خطابا إلى عائلته بتاريخ ١٣ ديسمبر ١٨٨٠ يقول فيه:

«هرارى مدينة استعمرها المصريون وهى تابعة لحكومتهم، وتتكون الحامية المصرية التى تسيطر عليها من عدة آلاف من الجنود. ويوجد فيها توكيل شركتنا ومخازنها. ومنتجات هذه البلاد التجارية هى البن والعاج والجلود إلخ .. والأرض هناك مرتفعة غير أنها على درجة من الخصوبة كما أن مناخها بارد وصحى. وهنا يتم استيراد جميع أنواع البضائع الأوربية عن طريق الجمال».

وتدل خطابات رامبو الأولى التى أرسلها من هرارى على تفاؤله فهو يحدث فيها أهله عن مشروعاته التجارية وغرامه بتصوير أهم معالم المدينة. والجدير بالذكر أن التصوير الفوتوغرافى كان آنذاك اختراعا حديثا للغاية. كما أنه وصف فى خطاباته الحياة الحيوانية فى هرارى ورغبته فى اكتشاف بعض مناطق الحبشة المجهولة. وطلب رامبو من عائلته إرسال بعض المواد الحافظة إليه حتى

يتمكن من تحنيط بعض الحيوانات والطيور النادرة غير المعروفة فى أوربا. وكذلك طلب رامبو من أهله أن يرسلوا إليه كتابا من تأليف المسيو كوروا بعنوان: «مرشد المسافرين أو المرجع النظرى والعملى للرحالة المكتشفين». ويبدو أن جو هرارى فى فصل الشتاء كان مشمسا وجافا وباردا الأمر الذى أثلج صدره وأنعش فؤاده بعد أن اصطلى بلظى الصيف فى عدن ونسبة الرطوبة العالية فيها. ولاشك فى أن جو هرارى البديع أسهم إلى حد كبير فى إشاعة التفاؤل فى نفسه. غير أن هذا التفاؤل لم يدم طويلا وخاصة بعد أن خاب أمله فى تحقيق الثروة العريضة السريعة، وفى أن يكون مكتشفا عظيما لمجاهل افريقيا. ومن المؤسف أن مرض الزهرى انتشر بصورة وبائية فى هرارى وأنه كان أحد ضحايا هذا المرض، وكان أحد أطباء الجيش المصرى فى هرارى أشرف على علاجه من هذا المرض الخبيث، وبسبب إصابته به آثر رامبو أن يحيا حياة منعزلة ويحرص كل الحرص على عدم مشاركة الآخرين فراشهم ومأكلهم ومشربهم. والجدير بالذكر أن رئيسه فى العمل ومعاصره ألفريد باردى هو الذى ذكر إصابة الشاعر بهذا المرض. وأخفى رامبو أمر مرضه عن عائلته فقد استحى أن يشير إليه فى خطاباته إلى والدته. وإذا كانت

خطابات رامبو الأولى لأمه التى بعث بها من هرارى تفيض بالأمل والتفاؤل فإن خطاباته اللاحقة لها تقطر بالألم الممض والإحباط . فقد كتب إلى أمه يقول لها إنه لا يتصور وجود عذاب فى الآخرة يفوق ما فى الحياة الدنيا من عذاب.

كان رامبو سيىء الحظ عندما اختار وقتا غير مناسب للسفر إلى الحبشة. فضلا عن أنه لم يكن مرعوسا سهل المراس فقد كان دائم التشاحن مع رؤسائه فى العمل. ففى هرارى تشاجر مع رئيسه فى الشركة فقرر الاستقالة من عمله. غير أن صاحب العمل نجح فى إقناعه بسحب استقالته والاستمرار فى العمل بفرع الشركة فى عدن. وأسند إليه صاحب العمل مهمة الإشراف على مخازن الشركة فى عدن حيث بدأ حياته فيها ككاتب حسابات يتقاضى عن عمله بضعة شلنات لا تغنى أو تسمن من جوع. ومما زاد من متاعبه فى هرارى أنه وصل إليه فى وقت كانت تسعى فيه إلى التخلص من الاحتلال البريطانى لها. وبمجرد جلاء القوات المصرية من هرارى بدأ الصراع الداخلى يحتدم من أجل الاستيلاء على السلطة فيها بين ملك إقليم طنجرة وملك إقليم شوا. وتابعت الدول الأوربية هذا الصراع الداخلى المحتدم على السلطة باهتمام بالغ. فأيد بعضها أحد الجانبين ضد الجانب الآخر. وقد

أدى هذا الصراع إلى شدة طلب الطرفين المتنازعين للسلاح، الأمر الذى كان فرصة ذهبية أمام الأوربيين من تجار السلاح الذين كانوا يشترون البنادق القديمة التى لم تعد الدول الأوربية تستعملها بأرخص الأسعار ليبيعوها بأضعاف ثمنها إلى الطرفين المتنازعين. وبوجه عام كان الفرنسيون والإيطاليون أكبر موردى السلاح لمينيليك ملك شوا الواقعة فى جنوب الحبشة.

كان للإستعمار المصرى لمدينة هرارى آثار إيجابية واضحة. ويؤكد الايطالى انتونيو ستيشى فيما كتبه عام ١٨٨١ أن احتلال المصريين لهرارى شجع الجاليات الأوربية على الاستقرار والتجارة فيها وفى مقدمتهم التجار الأرمن واليونانيون. وعندما وصل رامبو إلى مدينة هرارى استضافه رجل يونانى اسمه فرياس فى منزله، وكذلك يشهد طبيب نمساوى اسمه الدكتور فيليب بول الذى كان يرأس البعثة النمساوية فى هرارى عام ١٨٨٥ أن الاحتلال المصرى لهرارى كانت له نتائج حضارية مشرقة ملموسة فقد حاول المصريون القضاء على تجارة العبيد. ومهدوا السبيل إلى انتعاش التجارة وأصدروا الأوامر إلى الأهالى بتسجيل عقود زواجهم وتحرى الدقة فى ذلك حتى يمكن التثبت من ملكيتهم وملكية أسرهم للمنازل والأراضى والممتلكات وصيانة

حيازتهم لها من العبث والضياع، ولكن يبدو أن المصريين لم ينجحوا تماما فى القضاء على تجارة العبيد بدليل أن الرحالة الانجليزى المعروف ريتشارد بيرتون الذى جاب فى ربوع افريقيا أشار فى وقت لاحق إلى أن جانبا كبيرا من دخل مدينة هرارى اعتمد على النخاسة وتجارة العبيد. ويبدو أن المسكن الذى عاش فيه رامبو في هراري كان يحتل موقعا متميزا بعض الشيء بدليل أنه أصبح ملتقى للجاليات الأوربية. وكان من عادة رامبو أن يرسم بعض الرسوم على جدران البيوت التى يسكنها فى هرارى، والجدير بالذكر أن أحد شوارع هذه المدينة لايزال يحمل اسم الشاعر حتى يومنا الراهن كما أن أحد شواطىء عدن لايزال يعرف باسم شاطىء رامبو.

وأثناء وجوده فى هرارى سيطرت على عقل رامبو فكرة القيام بمغامرة ارتياد مناطق الحبشة المجهولة. ورغم أن باردى اضطر عقب انسحاب المصريين من هرارى إلى إغلاق فرع شركته فى هرارى والاكتفاء بإدارة مركزها الرئيسى فى عدن فإنه شجع رامبو على التوغل فى المناطق النائية والبعيدة داخل الحبشة والسفر إلى مملكة شوا فى جنوبها بهدف اكتشاف وجود موارد جديدة للبن واللبان والمسك والعاج. وسوف نروى بشىء من

التفصيل قصة البعثة الاستكشافية التى نظمها رامبو إلى الحبشة فى وقت لاحق، ولكن يكفينا فى الوقت الحاضر أن نشير إلى نوعية الكتب التى كان يلح على طلبها من أهله ومعارفه فى فرنسا. فقد طلبوا منهم أن يرسلوا إليه كتبا عن الهيدروليكا والميكانيكا والفلك وإنشاء خطوط السكك الحديدية وحفر الأنفاق تحت الأرض بحجة أن هذه الكتب تسرى عنه فى وحدته وعزلته الأفريقية، وكثيرا ما استسخفت أمه طلباته ورفضت الاستجابة إليها واعتبرتها مضيعة للمال القليل الذى كان يرسله إليها من وقت إلى آخر وفضلت أن تشترى به قطعا صغيرة من الأرض فى بلدتها، ولا غرو فهى تنحدر من عائلة فلاحين فقراء علمهم شظف العيش أن الأرض أغلى شىء فى الحياة، على أية حال لم يكن لدى رامبو أية فكرة واضحة عما يعتزم فعله بهذه الكتب ولهذا نراه يرسل برقية إلى أمه يطلب منها عدم شراء أى من الأشياء التى سبق أن طلبها، الأمر الذى يدل على طبيعة الشاعر الملولة المتعجلة.

وفى تلك الفترة من حياته أرسل إليه الشاعر فيرلين خطابا يخبره فيه أنه بصدد كتابة ونشر مقال عن أدبه ، ورجاه فيرلين أن يزوده ببعض المعلومات التى تعينه فى كتابة هذه الدراسة، غير أن رامبو لم يرد على هذا الخطاب ، وحتى بعد أن عرف أن فيرلين

نشر دراسته لم يكترث بها أو يظهر أدنى اهتمام بها. وكأنه يريد أن يقطع كل صلة أو ذكرى تربطه بالماضي البغيض، فضلا عن أنه طلق القريض بالثلاثة ولم يعد يفكر فيه. وحتى قبل أن يرحل إلى الشرق بات من الواضح أنه لم يعد يحتفل بالشعر أو يقيم له أي وزن. فقد اجتمع ثلاثة من أصدقاء الشاعر من بينهم ديلاهاي في مقهى في باريس لتوديعه ، واستفسر منه ديلاهاي عن مشروعاته الأدبية في المستقبل فأجابه بأنه توقف تماما عن التفكير في هذا الموضوع ، وبعد سفره كتب إليه ديلاهاي خطابا بإيعاز من فيرلين يسأله عن أخباره الأدبية ، فامتنع رامبو عن الرد على صديق طفولته لمدة عامين كاملين. وبدلا من الكلام عن القريض طلب رامبو من ديلاهاي أن يرسل إليه من فرنسا فرجارا وأوراقا لرسم الخرائط وبارومتر صغير للجيب لأنه يزمع تأليف كتاب عن هراري وعرضه على الجمعية الجغرافية الفرنسية وليس أدل على عدم استقرار فكر الشاعر على حال من أنه أرسل إلى عائلته بتاريخ ١٥ فبراير ١٨٨١ يقول إنه يفكر في مغادرة هراري لأن الحياة فيها مملة ولا تعود عليه بأي ربح يذكر. وشكا رامبو في هذا الخطاب من أن جو هراري لا يساعد على التئام الجروح بل يتسبب في تقيحها. وأضاف أن الإدارة المصرية ليست لديها الأدوية اللازمة أو العدد الكافي من الأطباء، ورغم أنه كان حينذاك

يفكر فى مغادرة هرارى فإنه طلب من أهله أن يرسلوا إليه كتبا عن المعادن والهندسة المدنية واللغة العربية، ومعنى هذا أنه طلب من أهله موافاته ببعض المتطلبات اللازمة لاستقرار بقائه فى هرارى فى الوقت نفسه الذى كان يفكر فى مغادرتها. ومن البلاد التى فكر فى النزوح إليها والعمل فيها زنزبار وبنما للعمل فى مشروع حفر القناة فيها. ولكن رامبو بقى فى مكانه فلا هو سافر إلى بنما ولا هو رحل إلى زنزبار.

فى تلك الفترة من حياته خطر لشاعرنا أن ينظم بعثة لاستكشاف مجاهل الحبشة ففى ٧ نوفمبر ١٨٨١ كتب إلى عائلته يخبرها بعزمه على التوجه على رأس بعثة كشفية كبيرة العدد إلى منطقة شوا فى جنوب الحبشة، وكعادته كان يحلم بأن تدر عليه هذه الرحلة مالا وفيرا لو أنه وفق فى انجازها ولم يعترض سبيل قافلته اللصوص وقطاع الطرق، ولا غرو فقد سبق أن تعرض كثير من الرحالة لهجوم رجال القبائل والفتك بهم. وكانت قبيلة تعرف باسم الدناقلة من أكثر القبائل وحشية وشراسة فقد اعترضت طريق بعض القوافل التى نظمها البيض وأبادتهم عن بكرة أبيهم. وفى ديسمبر من العام نفسه كتب رامبو إلى أهله يطلب منهم عدم إرسال أية مراسلات على عنوانه فى هرارى لأنه يعتزم مغادرتها

إلى الأبد . والغريب أنه بدلا من مغادرة هرارى والذهاب إلى مجاهل الحبشة نراه يعود أدراجه إلى عدن وهو مصمم على أن يقطع كل صلة تربطه بالشركة التى يعمل بها لاقتناعه بأنها تخدعه وتسلبه مستحقاته. ورغم ذلك فقد مكث فى عدن مرة أخرى ما يقرب من عام كامل يعمل فى الشركة نفسها التى اتهمها بالنصب والاحتيال عليه. وكانت الشركة بناء على تعليماته قد قامت بخصم بعض المبالغ المالية من راتبه وإرسالها إلى أمه فى فرنسا. وكلف رامبو أمه بالاحتفاظ بهذه المبالغ لحين عودته إلى بلاده. ولكن الأم - كما أسلفنا - رأت فى شراء الأرض خير وسيلة لاستثمار هذه المبالغ. وتدل الخطابات التى بعث بها رامبو إلى والدته فى تلك الفترة مقدار ضيقه من الشركة فنحن نتبين من الخطاب الذى أرسله إلى أمه من عدن فى ٢٢ يناير ١٨٨٢ أنه يتهم الشركة بالاحتيال عليه وعدم دفعه مستحقاته لديه بالكامل. فبدلا من أن ترسل إلى والدته مبلغ ألفين وأربعمائة وتسعة وستين فرنكا أعطتها ألفين ومائتين وخمسين فرنك. ورغم أن الفارق بين المبلغين زهيد. فقد هدد رامبو الشركة برفع الأمر إلى القنصل الفرنسى فى عدن واصفا إياها بأنها جماعة من اللصوص وقطاع الطرق الذين يتفننون فى استغلال العاملين معهم. وعلى آية حال

عندما عاد رامبو إلى عدن للمرة الثانية بدأ يتأقلم مع جوا الرهيب علما بأنه سبق أن وصف عدن بقوله: «تلك الصخرة لا نبت فيها ولا نصل من الحشائش، وليس فيها حتى قطرة ماء حلوة واحدة». كما يصف شهرى يونيه وسبتمبر فيها بأنهما أفظع شهرين فى درجة حرارتهما على مدار السنة. كان رامبو يحلم بأن يصبح رئيسا لفرع الشركة الرئيسي فى عدن وكان على استعداد فى هذه الحالة أن يستمر فى عدن لمدة خمسة أو ستة أعوام. ولكنه فشل فى الحصول على هذا المنصب ولم يتمكن إلا من الحصول على عقد جديد مع الشركة ليعمل فى فرعها فى هرارى مع زيادة طفيفة فى راتبه وزيادة كبيرة فى النسبة التى يتقاضاها من صافى الأرباح. وطلب رامبو من وكيل الشركة السابق فى عدن أن يرسل إليه معدات خاصة بالتصوير الفوتوغرافى إلى القرن الافريقى. وفى فترة بقائه للمرة الثانية فى عدن أرسلت إليه أمه خطابا غاضبا تعلن فيه برمها وضيقها بطلباته المتكررة فى شراء أشياء عديمة الجدوى وتبديد مدخراته المحدودة فيما لا يفيد. وهددته أمه أن تتركه وشأنه وتتخلى عن رعاية شئونه ومصالحه. وأنحى رامبو على أمه باللائمة لتهديدها له بالتخلى عنه . ولكنه استطاع أن يرأب الصدع بينهما. وفى مايو ١٨٨٤ كتب الشاعر إلى أمه

يخبرها أن الإنجليز يزمعون احتلال هرارى وأن هذا يغريه بالاستقرار وشراء الأراضى فيها، ولكن لا هو استقر فى هرارى ولا هو اشترى أرضا فيها بل ما برح يتنقل من مكان إلى آخر طوال الأعوام العشرة التى أمضاها فى الجبشة التى كثيرا ما كان يتنقل منها إلى محمية عدن دون أن يعيش فى هذه المحمية لأية فترات طويلة.

عندما عاد آرثر رامبو إلى هرارى للمرة الثانية فى ابريل عام ١٨٨٣ كانت لاتزال تحت الاحتلال المصرى ولكن بات من الواضح أن الضعف بدأ يعتور قوة الحامية المصرية المرابطة فيها بسبب نجاح ثورة المهدى فى السودان ضد الحكم المصرى له وصراع الخديو إسماعيل باشا مع الباب العالى من أجل الحصول على الاستقلال عنه، وعند العودة الثانية لرامبو إلى هرارى كانت انجلترا قد قامت باحتلال مصر فى العام السابق، ولكن الاحتلال المصرى لهرارى لم يكن قد انتهى بعد. ورأى رامبو أن هذه المدينة سوف تنعم بنشاط تجارى عظيم لو أن الانجليز قاموا باحتلالها وإجلاء الحامية المصرية عنها. وكما أسلفنا توصل رامبو إلى اتفاق مع شركته على استمراره فى العمل لمدة ثلاثة أعوام أخرى فى هرارى، وأثلج صدره أن عمله الجديد كان أقل مشقة من عمله السابق فى عدن .

ثم انقطعت كل أخباره عن أهله وبنى جلدته فى فرنسا كما انقطعت كل صلة تربطه بأوربا، ولم يعد يعبأ مطلقا بما يحدث فى بلاده. وفى هرارى أصبح يؤمن كما يؤمن الشرقيون بالقسمة والنصيب وبأن المكتوب على الجبين لابد أن تراه العين. ففى السادس من مايو عام ١٨٨٣ كتب إلى أسرته يقول إنه أصبح كالمسلمين يؤمن بأن المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين. وفى هذا الخطاب حث أخته إيزابيل على الزواج إذا تقدم إليها شاب جاد ينتظره مستقبل حسن حتى لا يصبح حالها مائلا كحاله. فهو يعيش بلا زوجة وكم كان يود لو أنه له ولد يقوم بتربيته على النحو الذى يريد ويسلحه بالتعليم النافع والمفيد قدر ما يستطيع حتى يصير مهندسا ناجحا يشار إليه بالبنان.

وأضاف رامبو أن غربته الدائمة وتجواله المستمر فى ربوع افريقيا وآسيا يصبحان شيئا لا معنى له إذا لم يكن له ولد يحمل اسمه ويقوم بتنشئته وفقا لما يريد. والجدير بالذكر أن فرع الشركة فى هرارى لم يصب ما توقعه له صاحبها من نجاح، على كل حال نجح رامبو نجاحا عظيما فى إتقان التصوير الفوتوغرافى. وتدل صوره الثلاث التى أرسلها إلى أهله فى فرنسا أن ملامحه تغيرت تماما فلم يعد ذلك الشاب البوهيمى العابث كما

عرفناه من قبل. وبلغ نجاحه فى التصوير الفوتوغرافى حدا جعل أهل هرارى يقبلون عليه ويطلبون أن يصورهم نظير مبالغ كبيرة من المال.

وفى هرارى كان أحد التجار اليونانيين المغامرين واسمه ساتيروس يساعده فى عمله بالشركة. واستطاع هذا المغامر اليونانى أن يقود بنجاح أول بعثة يضطلع بها الأوربيون إلى أوجادين فى قلب القارة السوداء. ورغم أن رامبو نفسه لم يشترك فى هذه البعثة فقد عرف كل شىء عنها من مساعده. وضمن رامبو تفاصيل هذه البعثة كما رواها له مساعده اليونانى فى تقرير رفعه إلى المركز الرئيسى للشركة فى فرنسا. وتناول هذا التقرير الدروب والمسالك التى اتبعها أعضاء البعثة للوصول إلى الصومال. وكذلك عادات الشعوب والقبائل المختلفة التى قابلوها فى الطريق. وقد تحايل هذا اليونانى المغامر بأن تخفى فى زى شيخ عربى مسلم. ويصف التقرير الأسلوب الذى تتبعه القبائل الافريقية فى اصطياد الفيلة. وتزامنت رحلة ساتيروس الناجحة مع رحلة فاشلة قام بها الرحالة الايطالى بيترساكونى الذى ذبحه رجال القبائل ذبح الشاه وذبحوا معه كل أفراد بعثته. ويشرح التقرير السبب فى فشل رحلة ساكونى بقوله إن ساكونى ارتكب خطأ فاحشا عندما اعتمد اعتمادا مطلقا على مرشده ورفض

التعامل مع غيره من المرشدين المحليين المنافسين له والذين كانوا على أتم استعداد لتقديم خدماتهم نظير البقشيش . فضلا عن أن ساكونى كان يلبس الملابس الأوربية ولا يخفى أنه مسيحى ويجاهر بأكل لحم الخنزير واحتساء الخمر فى حضرة المشايخ ورؤساء القبائل، على عكس اليونانى الماكر ساتيروس الذى تظاهر بالإسلام وسمى نفسه الحاج عبدالله. وعندما تسلم السيد باردى صاحب الشركة من رامبو هذا التقرير بادر بإرساله إلى مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية التى قامت بنشره عام ١٨٨٤ بعد أن استبعدت منه تلك الفقرات الخاصة بالإمكانات التجارية لمثل هذه البعثة باعتبارها فقرات ذات طابع غير أكاديمى ولا تدخل فى دائرة الاهتمامات العلمية للجمعية. ويبدو أن رامبو أعطى قارىء التقرير الانطباع بأنه اشترك مع ساتيروس فى القيام بهذه الرحلة. وهو الشيء الذى لم يحدث . ويبدو أن نشر هذا البحث عن طوبوغرافية وشعوب شرق افريقيا سبب لرامبو قدرا من الحرج، فعندما طلبت منه المجلة صورا فوتوغرافية له باعتباره منظما للرحلة ورئيسا لها منعه حياؤه من الاستجابة لطلبها. والذى يدل على أن ساتيروس نفسه لم يعلم بأمر نشر هذا المقال أن علاقته برامبو ظلت ودية حتى النهاية. وعندما اضطر الأطباء إلى بتر أحد

ساقى رامبو في أخريات حياته أرسل إليه ساتيروس خطابا وديا لمواساته والتخفيف عنه وتشجيعه على تجـاوز المحنـة التى ألمـت به.

وفى عام ١٨٨٤ أغلقت الشركة التى يعمل بها رامبو فرعيها من كل من عدن وهرارى بسبب حجم خسائرها الهائل الذى بلغ نحو مليون فرنك. فضلا عن الاضطرابات العنيفة التى مرت بها هرارى بسبب اضطرار القوات المصرية إلى الانسحاب منها. واستغرقت عملية انسحاب القوات المصرية من الحبشة مايقرب من عام كامل خلف فى أعقابه الفوضى وأضر ضررا كبيرا بالنشاط التجارى فى المدينة. وانتهزت الدول الأوربية الاستعمارية فرصة انسحاب القوات المصرية لتحل محلها وتستولى على المواقع التى تتخلى عنها. فقد زحفت القوات الفرنسية عام ١٨٨٤ لتحتل أبوبوك وتاجورا ثم جيبوتى. وفى العام نفسه احتلت انجلترا مدينة بربرة ثم زيلا من بعدها فى العام التالى (١٨٨٥) لتكون بهما نواة الصومال البريطانى. وأراد البريطانيون الحد من نفوذ الفرنسيين المتزايد فى المنطقة فشجعوا الايطاليين على الاستيلاء على ميناء مصوع. وفى الخامس من مايو ١٨٨٤ كتب رامبو إلى أسرته يقول إن الحياة أصبحت كابوسا مفزعا وجحيما لا يطاق فقد كتب عليه القدر أن يعيش فى البلاد الافريقية النائية لأنه

أصبح معروفا فيها ويسهل عليه إيجاد عمل يرتزق منه في حين أنه خشي أن يعامل كغريب لو أنه فكر في العودة إلى موطنه الأصلي فرنسا. ورغم أن باردى صاحب الشركة قام بتصفية كل أعمالها فقد احتفظ بمخازنها في عدن الأمر الذى وفر لشاعرنا فرصة عمل لأكثر من عام ونصف العام. ومن عدن راقب رامبو الشاطيء الافريقي وما يمور به من أحداث جسام فشاهد قوات الاحتلال البريطاني ترث المواقع التي جلت عنها القوات المصرية. ورغم أن رامبو سبق أن عبر عن ترحيبه بالاحتلال البريطاني لهرارى فإنه عدل عن رأيه فيما بعد. فقد أنحى على الاحتلال البريطاني في افريقيا وحمله مسئولية تدمير التجارة تدميرا كاملا واتهمه بالغباوة وسوء الفهم والفشل في إعادة تنظيم الحياة في المناطق الافريقية التي أخضعها لسيطرته. واقتنع رامبو أن المصريين أقدر من البريطانيين أنفسهم على حفظ النظام واستتباب الأمن. كما أنه يرى أن التدخل العسكرى الفرنسي والايطالي في المنطقة لا يقل في فشله عن الاحتلال البريطاني. ويبدو أن سخط رامبو على الانجليز يرجع إلى الحظر الذى فرضوه على تجارة السلاح في الحبشة (فقد كان يحلم في اجتناء ثروة عريضة منها) وإلى سعيهم الحثيث لوضع حد لتجارة الرقيق. فضلا عن القيود التي فرضوها

على تجارة المنتجات الطبيعية فى القرن الافريقى مثل العاج والجلود والبن وريش النعام. ولا يعرف أحد السبب الذي حدا بأخيه فردريك أن يتهمه باتباع الأساليب الملتوية وغير النظيفة فى كسب المال . الأمر الذى جعل الشاعر يدحض هذا الاتهام بقوله إنه لم يكن فى حاجة إلى اتباع هذه الأساليب الملتوية وغير النظيفة لأن شركته وفرت له فرصة عمل دامت أربعة أعوام ابتداء من عام ١٨٨٠ حتي تصفية أعمالها فى عام ١٨٨٤ بسبب ما تمتع به من سمعة طيبة لا تشوبها أدنى شائبة.

وبعد أن قامت الشركة بتصفية أعمالها فى هرارى عاد رامبو أدراجه إلى عدن كما أسلفنا ليعيش فيها تحت سقف واحد مع امرأة حبشية لفترة دامت ثمانية عشر شهرا . الأمر الذى يدل على أن ممارسته للشذوذ الجنسى مع فيرلين كانت عرضا فى حياته ونزوة شبابية طائشة. وتدل الشواهد أنه أحب هذه المرأة الحبشية وفكر فى الزواج منها وحاول قدر استطاعته أن يتعهدها بالتعليم والتهذيب. ولكن يبدو أنه أحجم عن الزواج منها لفرط بساطتها العقلية ولأنها لم تنجب له الابن الذى يحلم به. وهكذا نراه يعطيها حفنة من الدولارات ثم يتركها لمصيرها على شاطىء الحبشة.

وفى السنة الأخيرة التى أمضاها الشاعر في عدن انقطعت أخباره تماما عن أهله لدرجة أنهم لم يعرفوا أراضيه وظنوا أنه سافر إلى الهند الصينية أو إلى بنما كما أخبرهم فى رسائله التى تفيض بالشكوى من قسوة الحياة فى عدن. ولم يسافر رامبو إلى الهند الصينية مثلما ذكر فى خطاباته بل ترك عمله فى شركة بيير باردى الذى أشاد بخدماته للشركة وأثنى على أمانته وسعى إلى استثمار ثروته المتواضعة فى تجارة رائجة هى تجارة السلاح.

أتفق رامبو مع رجل مغامر من بنى جلدته اسمه لاباتيه على بيع شحنة من الأسلحة إلى مينيليك ملك إقليم شوا فى جنوب الحبشة. ولم يكن مينيليك رجلا سهلا يمكن الضحك عليه أو التغرير به بل كان رجلا ماكرا واسع الحيلة يعرف كيف يتعامل مع دهاء الأوربيين وحثهم. ولم تكن لرامبو أدنى خبرة بتجارة السلاح مما جعله يعتمد تماما فى هذا الشأن على خبرة زميله وشريكه لاباتيه الواسعة. وأغرى الشاعر بهذه التجارة أمله فى عقد صفقة العمر مع الملك مينيليك تعود عليه بثروة طائلة تصل إلى خمسة وعشرين أو ثلاثين ألف فرنك تمكنه من الحياة المستقرة والمريحة فى فرنسا. كان الملك مينيليك بسبب رغباته التوسعية يطمح فى غزو بعض المناطق فى شرق الحبشة والقضاء على نفوذ غريمه

الذى يحكم شمالها، ومن ثم إقباله فى نهم شديد على شراء السلاح من تجار السلاح الأوربيين، ومن ثم أيضا ترحيبه بعرض رامبو ولاباتيه بتزويده بأسلحة وبنادق فرنسية الصنع بدأت فرنسا فى استبدالها عام ١٨٧٤ ثم توقفت تماما عن انتاجها عام ١٨٩٣. والجدير بالذكر أن مشكلة التجنيد ظلت تؤرق رامبو فى أخريات أيامه، فقد كان فى الثلاثين من عمره عندما فكر فى العودة إلى بلاده والاستقرار فيها، ولأنه غادرها دون أن يؤدى الخدمة العسكرية فقد ظلت مشكلة تجنيده مؤجلة طوال فترة تغيبه خارج البلاد، ومن جانبها لم تسكت السلطات الفرنسية عليه بل ظلت تلاحقه عن طريق عائلته حتى بعد أن بتر الأطباء أحد ساقيه.

ولرامبو قصة طويلة مع تجارة السلاح . فقد قرر قبل أن يشد رحاله إلى منطقة شوا أن يتعلم اللغة الأمهرية ، ولهذا أرسل إلى فرنسا ليبعثوا إليه بقاموس فى هذه اللغة، وفى بداية شهر ديسمبر عام ١٨٨٥ وصل رامبو إلى بلدة تاجورا التى نجح المستعمرون الفرنسيون فى ضمها إلى مستعمرتهم فى أوبوك، وكانت تاجورا فى ذلك الوقت مشهورة بتجارة العبيد، وكانت القوافل الأوربية التى تعبر الأراضى الحبشية تتعرض للمخاطر الشديدة وهجوم الأهالى عليها، وقد سبق لشريكه لاباتيه أن تعرض لهجوم الأهالى على

قافلته الأمر الذى اضطره إلى قتل أحد مهاجميه دفاعا عن النفس. ولهذا استقر رأى لاباتيه على أن يتولى رامبو قيادة قافلة السلاح الذى يزمعان بيعه إلى مينيليك ملك شوا. ولم يكن هذا الهجوم على لاباتيه سوى نموذج لحوادث اعتداء متكررة ومماثلة على قوافل الأوربيين . (فقد سبق أن تعرضت قافلة تاجر فرنسى اسمه بارال للإبادة). وعندما وصل رامبو إلى تاجورا وجد صعوبة بالغة فى إقناع رؤساء القبائل بتدبير الجمال اللازمة لنقل الأسلحة إلى داخل الحبشة. ولكنه استطاع بعد لأى الحصول على وعد منهم بمساعدته فى مقابل الهدايا والمال.

ولسوء حظه العاثر خشيت الحكومة البريطانية من امتداد نفوذ مينيليك ملك شوا ومن أن يؤدى بسط نفوذه على كل الحبشة إلى توحيدها . ولهذا عملت على إضعافه والحيلولة دون وصول السلاح إليه ومناصرة أعدائه ضده. ورغم احتدام الصراع التقليدى بين فرنسا وبريطانيا على مناطق النفوذ فى افريقيا فإن الفرنسيين آنذاك لم يشاءوا إغضاب الانجليز نظرا لشدة حاجتهم إليهم. فقد كان الانجليز يحتلون أكبر وأهم الموانئ على الشاطىء الشرقى لافريقيا. ولهذا رأى الفرنسيون أن مصلحتهم تقتضى منهم الاتفاق مع منافسيهم البريطانيين كى يسمحوا لهم باستخدام

موانيهم العميقة المياه لرسو السفن الفرنسية نظرا لضحالة مياه كل الموانئ الافريقية التابعة لهم. واشترط الحاكم البريطانى فى عدن على القنصل الفرنسى هناك أن يمتنع الفرنسيون عن إرسال شحنات السلاح إلى افريقيا عن طريق ميناء عدن نظير انتفاعهم باستخدام الموانئ البريطانية. وبعد أن وصل رامبو بشحنة السلاح إلى أوبوك جاءه حاكمها المسيو لاجارد ليخبره باتفاق السلطات الانجليزية فى عدن مع القنصل العام الفرنسى على فرض القيود على إرسال شحنات السلاح إلى الحبشة. وفوجىء رامبو بهذه المشكلة فاضطر إلى العودة إلى عدن تاركا وراءه شريكه لاباتيه ليرعى شئون القافلة. ومرة أخرى يشاء حظ رامبو العاثر أن يصاب لاباتيه بمرض خطير مفاجىء اضطره إلى ترك القافلة والعودة إلى بلاده. فلم يجد رامبو مفرا من أن يسافر من عدن إلى الحبشة ليتولى أمر القافلة بمفرده. ومن حسن حظه أن لاجارد حاكم أوبوك لم يكن مقتنعا بالاتفاقية التى توصل إليها القنصل الفرنسى فى عدن مع السلطات البريطانية فيها حول ضرورة امتناع الجانب الفرنسى عن إعطاء التصاريح الخاصة بشحن الأسلحة إلى مملكة شوا بالحبشة. انتظر لاجارد حتى هدأت العاصفة فسمح لقافلة رامبو المحملة بالسلاح بالتحرك فى

اتجاهها . وتعلل لاجارد فى ذلك بسببين أولهما أن رامبو بدأ بالفعل فى شحن الأسلحة قبل توقيع الاتفاق وأن الحكومة الفرنسية رفضت الطلب الذى تقدمت به إليها الحكومة البريطانية بحظر تجارة السلاح فى افريقيا حظرا باتا. وتركت الحكومة الفرنسية مسألة البت فى هذا الأمر للسلطات الفرنسية المحلية فى كل اقليم وفقا لظروفه. وفى فرنسا توفى شريكه لاباتيه من مرض السرطان فعجل رامبو برحلة القافلة حتى يتجنب المشكلات القانونية والمالية الناجمة عن ذلك. والجدير بالذكر أن بريطانيا جندت مهندسا سويسريا يعيش فى افريقيا اسمه ألفريد إيلج كى يبلغها بتحركات الفرنسيين ومنها خط سير قافلة رامبو. وكان لإيلج حظوة كبيرة لدى الملك مينيليك الذى كان يستشيره فى كل كبيرة وصغيرة ابتداء من بناء الجسور حتى رسم سياسة البلاد الخارجية. كان إيلج يدير بعض المشروعات التجارية لحسابه الخاص. ويتضح لنا أن إيلج كان عينا من عيون الانجليز من تقرير رفعه فى ١٤ نوفمبر ١٨٨٧ المستر موس نائب القنصل البريطانى فى مدينة زايلا إلى الوكيل السياسى والقنصل البريطانى المسئول عن الساحل الصومالى المقيم فى عدن.

بعد رحلة شاقة وطويلة دامت أكثر من أربعة شهور وصل رامبو إلى بلدة أنكربر عاصمة شوا فى ٦ فبراير ١٨٨٧. ولسوء حظه كان مينيليك غائبا عن عاصمة مملكته لانشغاله بشن حملة تأديبية ضد حاكم هرارى وبالاستيلاء على هذه المدينة قبل أن تقع فى أيدى الايطاليين الذين شنوا هجوما عليها انتقاما من ذبح أعضاء البعثة الايطالية التى نظمها الكونت بورو. وبالفعل استطاع مينيليك الاستيلاء على هرارى التى دخلها فى موكب نصر عظيم. ونما إلى علم رامبو أن مينيليك موجود فى بلدة أنتوتو القريبة من هرارى فقرر السفر إليه. واستغرقت رحلته من أنكوبر إلى أنتوتو أكثر من ثلاثة أيام. غير أن سوء الحظ لم يفارقه فقد اكتشف عند وصوله إلى أنتوتو أن الملك قد غادرها ليؤدب بعض القبائل الخارجة عليه. وعيل صبر رامبو الذى تضايق من ملاحقته الملك من مكان إلى مكان دون طائل ، ولاشك فى أن نفاد صبره والإعياء الذى أصابه ساعدا على ضعف مركزه التفاوضى مع حاكم شوا بخصوص بيع شحنة الأسلحة إليه واستخدم الملك مينيليك مكره ودهاءه للإستيلاء على شحنة الأسلحة التى أحضرها رامبو لبيعها إليه. فزعم أن له فى عنق لاباتيه شريكه دينا يستحق الوفاء وأضاف أن رامبو أصبح بوفاة شريكه مسئولا عن سداد كل ما عليه من ديون. وطالب رامبو الملك بأن يقدم إليه مايثبت صحة

مستحقاته لدى لاباتيه. وبدوره طلب الملك الماكر منه أن يمهله بضعة أيام حتى يتمكن من إحضار الوثائق والأوراق الدالة على ذلك. ثم أظهر الملك لرامبو سجلات مكتوبة باللغة الأمهرية التى كان الشاعر لا يعرفها جيدا تفيد بأن له فى عنق لاباتيه مبلغا قدره ثلاثه آلاف وخمسمائة ثالتة وهى عملة حبشية. وأسقط فى يد رامبو الذى عجز عن إقناع الملك بعدم مسئوليته عن هذا الدين. ولكن الملك المخادع وضعه أمام الأمر الواقع بأن خصم قيمة الدين المزعوم من ثمن الشحنة. وبطبيعة الحال شجع هذا نفرا من الإدعياء والنصابين أن يحذوا حذوه ويدعوا أنهم أقرضوا المرحوم مبالغ من المال واجبة السداد . وأيد الملك مزاعم هؤلاء الأفاقين وقام بخصم ديونهم المزعومة من جملة مستحقاته عن شحنة السلاح. ويبدو أن الملك احتفظ بكل هذه المبالغ أو معظمها لنفسه. وعندما عرف الأهالى كرم رامبو وأريحيته تقدم منه عدد من الغلابة والمساكين يطالبونه بمبالغ كان لاباتيه قبل وفاته قد استدانها منهم فرق قلب الشاعر لهم واستجاب لمطالبهم رغم تأكده من كذبهم. ولكن كثرة الطلبات أثارت أعصابه فبدأ يعبس فى وجوه المطالبين ويعاملهم بغلظة وخشونة. وما زاد الطين بلة أن أرملة لاباتيه دخلت فى منازعات قضائية معه وكانت أسرع منه

فى الاستيلاء على البضائع الموجودة فى المخازن وأصدر القاضى الحبشى حكما لصالح أرملة لاباتيه مفاده أن جميع ممتلكات زوجها الراحل يجب أن تؤول إليها. وهكذا نجح الملك النصاب مينليك فى شراء صفقة السلاح بأبخس الأثمان. ولم يكن فى خزانة الملك أى مال سائل فاقترح على رامبو أن يأخذ العاج مقابل السلاح فاضطر أن يقبل هذه المقايضة. ولكن الملك بالغ فى سعر العاج وبخس فى سعر السلاح، فرفض رامبو أن يستجيب له. وعرض الملك عليه حلا وسطا يتلخص فى إعطائه صكا بالمبلغ المطلوب يقوم الرأس ماكونين حاكم هرارى الجديد بصرفه من خزانته. وهكذا تحطمت أحلام الشاعر فى الثراء السريع ولم يجن من رحلته الحبشية غير العذاب الذى عانى منه نحو واحد وعشرين شهرا هى الزمن الذى استغرقته رحلته المشئومة. وليس أدل من هذا على أنه كان رغم مظهره الخشن يخفى بين جنباته قلبا رقيقا وحانيا.

وبعد تجربته الحبشية الفاشلة والمريرة عاد رامبو إلى عدن ولكنه تركها بسبب حرارة الجو التى لاتطاق وتوجه إلى القاهرة عن طريق ميناء مصوع. ولكن القنصل الفرنسى فى مصوع لم يعجبه منظره الرث وساوره الشك فى أمره فكتب إلى جاسبارى قنصل

فرنسا فى عدن يستفسر منه عن هذا الرجل المريب ولم يسمح له القنصل الفرنسى فى مصوع باستكمال رحلته إلى القاهرة إلا بعد أن جاءه الرد من زميله فى عدن أن رامبو إنسان شريف ولا غبار على شخصيته.

ورغم أن رحلة الشاعر إلى شوا كانت فاشلة على الصعيد الشخصى فإنها كانت مفيدة لفرنسا نفسها. فقد اكتشف رامبو عند عودته من شوا طريقا اقصر وأكثر أمانا من الطريق الشائع والخطر بسبب وجود قبائل الدناقلة فيه. وفيما بعد أصبح هذا الطريق الآمن المختصر الذى أنشأ الفرنسيون عليه السكة الحديد خاضعا لنفوذ فرنسا.

وبعد انتهائه من رحلته الفاشلة لبيع السلاح سافر رامبو إلى عدن عن طريق القاهرة ثم أرسل إلى ألفريد باردى فى باريس وصفا تفصيليا لرحلته إلى مملكة شوا. وفعل ألفريد باردى نفس مافعله أخوه بالتقرير السابق الذى قامت الجمعية الجغرافية الفرنسية بنشره من قبل. وعندما وصل الشاعر إلى عدن قدم إلى القنصل الفرنسى كشفا بحساب القافلة والديون التى قام بتسديدها نيابة عن شريكه المتوفى. وبطبيعة الحال بالغ فى خسائره وقلل من أرباحه. وفى أخريات أيامه أصيب بالروماتيزم

أثناء وجوده بالقاهرة مما أثر في كليتيه ومفاصل ركبتيه وكتفه الأيسر فضلا عن إصابة فخذه الأيسر بالشلل من وقت لآخر. والجدير بالذكر أن رامبو أرسل إلى عائلته في فرنسا مائة خطاب في الفترة بين ١٧ أغسطس ١٨٨١ و٣٠ ابريل ١٨٩١. ويتضمن خطابه إلى أهله في ٢٠ فبراير ١٨٩١ أول إشارة إلى إصابة رجله اليمنى بالشلل. وآخر هذه الخطابات تلك التي تبادلها قبل وفاته مباشرة مع أخته ايزابيلا التي دأبت على حثه على العودة إلى حظيرة الإيمان والدين.

عندما وصل رامبو إلى القاهرة في ١٩ أغسطس ١٨٨٧ في طريقه إلى عدن كان يضع حول خصره حزاما من الذهب الخالص يزيد وزنه الثقيل على ثمانية كيلوجرامات. وهناك قام بإيداع حزام الذهب في بنك كريدى ليونيه. كما أنه نشر تقريرا عن رحلته الحبشية في البوسفور إجيسيان في عدديها الصادرين في ٢٥ و٢٧ أغسطس ١٨٨٧. ورغم أنه فكر في زيارة فرنسا أثناء وجوده بالقاهرة فقد عدل عن فكره وسافر إلى عدن كما أسلفنا بدلا من ذلك. ويبدو أنه ظل لآخر أيامه يتحاشى الرجوع إلى فرنسا حتى لا تكتشف والدته أو عائلته إصابته بمرض الزهرى. وفي القاهرة جالت بباله ثلاثة مشروعات لم يحقق إلا ثالثها . والمشروع الأول

عبارة عن اقتراح تقدم به إلى السكرتير العام للجمعية الجغرافية لتمويل رحلته الاستكشافية القادمة. وللأسف ضاع نص الخطاب الذى أرسله إلى هذه الجمعية غير أن رد السكرتير العام لهذه الجمعية لايزال موجودا وفي هذا الرد اعتذر الرجل بضآلة موارد الجمعية من ناحية وصعوبة قيام أى أوربى برحلة فى مجاهل افريقيا من ناحية أخرى، وطلب منه السكرتير العام أن يتقدم بطلبه إلى وزارة المعارف الفرنسية. ثم دعا رامبو إلى كتابة بحث يسجل فيه حياة القبائل التى صادفها أثناء رحلته إلى مملكة شوا وغيرها من البلاد الافريقية . ويتلخص المشروع الثانى فى أن يحقق لمينيليك ملك شوا رغبته فى تحسين سلالة الحمير فى بلاده، ولهذا كتب إلى القنصل الفرنسى فى بيروت يسأله عن أهم تاجر على شاطىء الشام يبيع له أقوى الخيول وأكبرها حجما. وسأل رامبو عن تكاليف شحنها من بيروت إلى عدن عن طريق شركة ماسنجريه الفرنسية للملاحة تمهيدا لإرسالها إلى الملك مينيليك. أما الاقتراح الثالث الذى رفضه المسئولون الفرنسيون فيتلخص فى أن يزود وزير المستعمرات الفرنسى الملك مينيليك بمصنع سلاح صغير متنقل لإنتاج البنادق وطلقات الرصاص بحجة أن هذا الملك المسيحى يعتبر صديقا للأوربيين بوجه عام

والفرنسيين بوجه خاص. وأنه لمن سخرية القدر أن ينجح زميله المهندس إيلج فيما فشل فيه. فقد استطاع هذا المهندس ببرود أعصابه الشديد أن يهرب إلى صديقه الملك مينيليك مصنعا صغيرا للذخيرة تحت سمع وبصر السلطات البريطانية في مدينة زيلا مدعيا أن هذا المصنع ليس سوى مسبك لصك العملة. وعندما فشل رامبو في إقناع السلطات الفرنسية بإرسال السلاح إلى مينيليك بطريقة مشروعة التجأ إلى تهريب السلاح بنفسه إليه بطرق غير مشروعة.

يقول الباحثون إن النصف الأول من عام ١٨٨٨ يمثل فترة أشد ما تكون حرجا في حياة رامبو في القارة الافريقية فهناك ما يشير إلى أنه كان في تلك الفترة يشتغل بالنخاسة وتجارة السلاح معا. غير أن هناك بعض الباحثين الذين ينفون عنه تهمة الاتجار بالعبيد ويذهبون إلى أن رجلا آخر بنفس الاسم تصادف وجوده في عدن في نفس الفترة ومن الجائز أنه تورط في هذه التجارة. ويستند الباحثون الذين يتهمون شاعرنا بالاتجار في العبيد إلى وجوده في إحدى قوافل العبيد وهو في نظرهم دليل على تورطه في أعمال النخاسة. ومما يؤكد هذا الاتهام أن المسئولين في وزارة الخارجية البريطانية كتبوا تقريرا بهذا المضمون بتاريخ ١٦ يونيه ١٨٨٨. ويعتقد البريطانيون أن رامبو كان يرسل العبيد إلى كل من

تركيا والجزيرة العربية. ويبدو أن السلطات الفرنسية أغمضت عينها أمام تجارة العبيد وخاصة لأن الكثيرين من المواطنين الفرنسيين نشطوا فى مزاولتها فى الحبشة والساحل الافريقى.

وظل رامبو يعيش فى هرارى حتى ابريل-١٨٩١ يتاجر ويتنقل بين عدن والساحل الشرقى لافريقيا. وتعبر معظم الخطابات التى أرسلها من هرارى إلى أسرته عن شعوره العميق بالملل والسخط على حظه وقدره . واستطاع رامبو أن يصبح صديقا حميما لرأس ماكونين محافظ هرارى. وتحولت علاقته بالمهندس إيلج القائمة على المنفعة المشتركة وتبادل المصالح إلى نوع من المودة والصداقة. ورغم حديثه المر اللاذع وطباعه الحادة كان بوجه عام قادرا على التحكم فى عواطفه عند الضرورة . غير أن منظر الكلاب أصابه بالرعب والفزع الأمر الذى جعله يقتل بالسم نحو ألفى كلب من الكلاب الضالة فى شوارع هرارى. وقد عرض هذا صحة الأهالى للخطر فألقت السلطات الحبشية القبض عليه. ويقول معارفه فى عدن وتاجورا أنه كان عزوفا عن الحديث عن حياته الماضية. ورغم إنكاره السابق للدين فإن البعض يقول إنه مـــات مؤمنا بالمذهب الكاثوليكى وأنه عـــند وفاته ظل يردد «الله كريم» حتى فاضت روحه. ولكن البعض الآخر يعتقد أنه اعتنق

الإسلام. ولا غرو فقد كان يقرأ القرآن فى يسر ويميل إلى النقاش فيه مع أفراد القوافل التى يقوم بتنظيمها. ولاشك فى أن شهادة أندريه جاروسيه أسقف الكنيسة الكاثوليكية فى هرارى والحبشة منذ عام ١٩٠٠ حتى عام ١٩٣٩ لها أهمية خاصة. فقد كتب هذا الأسقف عام ١٩٤١ يقول إنه عرف رامبو فى الفترة بين ١٨٨٢ ـ ١٨٨٨ وأنه يميل إلى الاعتقاد أنه لم يكن يبحث فيما يبدو عن المال عندما شد رحاله إلى الحبشة بل عن كفارة يطهر بها روحه من أدران الماضى ويعاقب بها نفسه لأنه سمح لها بالطيش والانغماس فى الإثم. وقد لاحظ الأسقف شدة عطفه على أهالى الحبشة الفقراء مما يدل على أن المال لم يكن مطمعه الحقيقى. ويكشف الخطاب الذى أرسله الشاعر إلى المسيو دى جاسبارى القنصل الفرنسى فى عدن بتاريخ ٢٨ يناير ١٨٨٣ عن طبيعته الانفعالية وسرعة غضبه. فقد تعمد رجل عدنى اسمه على الشماخ أن يهينه إهانة بالغة أمام الملأ فلطمه لطمة خفيفة براحة يده. فخف عمال الشركة وبعض شهود العيان من العرب إلى تقييد حركته حتى ينهال على الشماخ عليه بالضرب ومزق ثيابه وأمسك بعصا مهددا إياه بها. ولم يكتف بذلك بل ذهب إلى قسم البوليس ليدعى أن رامبو اعتدى عليه وهدد بقتله بخنجر. وأحضر معه شهود زور من اليمنيين ليشهدوا بصحة أقواله.

لم تكن مملكة شوا جزءا من الحبشة ولكنها كانت جزءا تابعا للحبشة يحكمه الملك مينيليك الذى كان يدفع الجزية ليوحنا امبراطور الحبشة. وانتهز مينيليك فرصة موت الامبراطور يوحنا ليعلن نفسه امبراطورا على البلاد فى نوفمبر عام ١٨٨٩ وهذا نفس العام الذى تعرضت فيه البلاد لمجاعة قضت على الأخضر واليابس وأدت إلى موت الأبقار والأغنام الماشية الأمر الذى اضطر الامبراطور الجديد وزوجته إلى تقديم وجبات الطعام يوميا إلى شعبهما الجائع. وتضرع الكهنة والمصلون إلى الله كى يلطف بالعباد ويرحمهم مما يعانون من شقاء. وفى تلك الفترة كتب رامبو فى يناير ١٨٨٩ إلى أمه وأخته يشكو لهما من مرضه الخطير ويحدثهما عن احتمالات موته وعن عزمه على التوجه إلى البعثة المسيحية فى هرارى ليكتب وصيته ويتركها لديها. وأيضا عن عزمه على الذهاب إلى عدن لأنها فى نظره «مكان متمدن يستطيع المرء فيه أن ينظم أموره دون تأخير».

وفى السنوات الثلاث الأخيرة فى حياته فى هرارى التى غادرها فى ابريل ١٨٩١ بدا من الواضح أن روح رامبو الهائمة بدأت تهدأ وزالت عنه رغبته الدائمة فى الرحيل والتنقل من بلد إلى أخرى. فلم يعد يذكر فى خطاباته إلى أهله فكرة السفر إلى زنزبار

أو الهند الصينية. ولم ينس الشاعر هرارى حتى بعد أن عاد إلى مارسيليا ليحتضر فيها وأصبحت أمنيته الوحيدة أن يشفى ويتمكن من العودة إليها حتى رغبته الملحة والمسعورة فى جمع المال زالت عنه ولم تعد تحتل جانبا من تفكيره رغم أنه ظل يشكو أيامه ويندب سوء حظه وضآلة أرباحه. وفى ٢٥ فبراير ١٨٩٠ كتب يقول إن المذابح وأعمال النهب والسلب منتشرة فى تلك المناطق وأنه لحسن الحظ لم يتعرض لأى منها. ثم يستطرد قائلا أنه يتمتع بشىء من الاحترام بين الأهالى ورجال القبائل لأنه يعاملهم برفق ولم يسىء إلى أى أحد منهم فى حياته. فهو يقدم إليهم الخير كلما استطاع إلى ذلك سبيلا. ورأى رامبو فى نفسه يتفق مع رأى الصحفى الايطالى إدوارد وسكار فوجليو فيه. جاء هذا الرجل الايطالى كمراسل صحفى حربى ليغطى أخبار الحملة العسكرية التى أرسلتها إيطاليا لاحتلال اريتريا وتحويلها إلى إحدى المستعمرات الايطالية. ويستعرض هذا الصحفى الفرنسيين الذين يعملون بالتجارة فى إقليم شوا فيقول عن رامبو أنه رجل مسالم تماما لا يتدخل مطلقا فى السياسة وينصرف إلى الاهتمام بتجارته ورجله المصابة . وهو على علاقة طيبة بجميع الايطاليين

الذين يعملون فى منطقة البحر الأحمر. وعندما واجهته ضائقة مالية بسبب عدم إتمام بعض الصفقات مع الرأس ماكونين خفت إلى نجدته شركة إيطالية وقبلت أن تضمنه وتمده بالخدم والسلاح اللازمين للقيام بآخر رحلة قيض له أن يقوم بها. ولكن المخابرات البريطانية كانت تستريب فيه ولا تخفى تشككها فى تصرفات الفرنسيين الذين يعملون ويتاجرون فى منطقة البحر الأحمر. فقد كتب أوغسطوس ب وايلد نائب القنصل البريطانى فى منطقة البحر الأحمر يقول إن الفرنسيين فى جيبوتى وشرق افريقيا كانوا يتاجرون فى السلاح والعبيد بعلم السلطات الفرنسية وعدم ممانعتها. وساعدهم على انتعاش مثل هذه التجارة التى درت عليهم أرباحا طائلة أن السفن الفرنسية التى تحمل العلم الفرنسى كانت لاتخضع لتفتيش السلطات الانجليزية أو الايطالية أو التركية لها. والثابت أن رامبو ظل حتى أواخر حياته يتاجر فى السلاح لحسابه الخاص أو بالاشتراك مع شريكه قيصر تيان كما يتضح لنا من الرسالة التى بعث بها الشاعر إلى أهله بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٨٩٠ والتى طلبت فيها منهم البحث عن زوجة وإخبارها بنشاطه التجارى وحالته المالية وكما يتضح أيضا من الرسائل التى تبادلها مع شريكه الآخر سافوريه. وإذا كان الدليل على اشتراكه

فى تجارة السلاح قاطعا فإن الدليل على تورطه فى تجارة العبيد يبدو واهنا وضعيفا، وفى آخر عام له فى هرارى كان رامبو يفكر تفكيرا جادا فى الزواج لدرجة أنه اقترح أن يعود إلى فرنسا فى ربيع ١٨٩١ ليتزوج من عروسة تختارها له أمه وتقبل العودة معه إلى هرارى . وفى ذلك الوقت بدأت حياة الأوربيين الذين يعيشون هناك فى الاستقرار ولم تعد الحياة فى القرن الافريقى مغامرة تحفها المخاطر والمهالك. وقبلت كثيرات من الأوربيات العيش فى هرارى وغيرها من الأماكن. غير أن مشروع زواجه من امرأة فرنسية لم يتحقق. ومن سخرية الأقدار أن يموت رامبو فى نفس العام الذى كان يزمع الزواج فيه. والجدير بالذكر أنه تأقلم تأقلما تاما مع الحياة الافريقية ولم يعد قادرا أو صالحا للحياة فى أوربا . وعرفه الأهالى فى افريقيا كرجل مسلم وكان يوقع كل خطاباته التجارية باسم عبدالله. وقبل وفاته مباشرة يوم ١٠ نوفمبر ١٨٩١ نما إلى علمه أن الدوائر الأدبية فى فرنسا أصبحت تعترف به كواحد من شعراء فرنسا الطليعيين وأن فيرلين قام بنشر قصيدتيه «الحروف المتحركة» و«السفينة الثملة» فى إحدى المجلات عام ١٨٨٣ . وعندما نقل ألفريد باردى إليه أخبار انتصاراته الأدبية هز كتفيه قائلا: «هذا أمر مضحك ومثير للإشمئزاز». وعندما حاول

باردى أن يفتح معه موضوع حياته السابقة مع الفنانين والكتاب فى الحي اللاتينى بباريس أسكته بقوله فى اقتضاب شديد: «لقد عرفت عددا كافيا من هذه الطيور» وعندما أشار إلى المدة القصيرة التى قضاها فى لندن وصفها بأنها «فترة السكر» . وكان رد فعله مماثلا عندما ذكر موريس رايس قصائده القديمة فقد وصفها بأنها «بكل بساطة عبارة عن قمامة». ولم ير رامبو أن لشعره أية أهمية تذكر. وعلى أية حال ظل الاعتراف بقيمة أشعاره محدودا حتى أخريات حياته. فبعد أن نجح فيرلين فى نشر أعمال صديقه الكاملة فى نهاية عام ١٨٩١ بدأت دائرة الاهتمام به تتسع. وعندما تنبه الناقد البارز لويس بيير كان إلى أهمية شعره واصفا إياه بأنه «من أحلى القصائد» التى قرأها كان الشاعر قد رحل عن هذه الدنيا.

وفى افريقيا التى نسى فيها أنه شاعر تماما استطاع رامبو أن يكسب احترام ماكونين الذى عينه الامبراطور محافظا لهرارى. وتوثقت وشائج الود والصداقة بين الرجلين وبعد مرور ثلاثة شهور على رحيل رامبو من هرارى إلى فرنسا كتب إليه ماكونين يسأل عن صحته ويطمئن على أحواله وعبر عن أسفه الشديد لبتر إحدى ساقيه ورحب بعودته إلى بلده هرارى لمواصلة تجارته. وختم ماكونين خطابه بقوله إنه سوف يظل صديقا له على الدوام .

يبقى لنا أن نعرف أن ماكونين أنجب ابنا اسمه تيفيرى أصبح فيما بعد الامبراطور هيلاسلاسى امبراطور اثيوبيا.

وكان ١٨٩١ عام شؤم على أثيوبيا التى شهدت مجاعة مروعة أكل فيها الآباء أبناءهم والأهل ذويهم. كما كان عام شؤم على رامبو نفسه. فقد بدأت صحته تتدهور واشتد عليه مرض الروماتيزم الذى أصابه فى فترة زيارته للقاهرة . فضلا عن إصابته بمرض الدوالى فى رجله اليمنى الأمر الذى جعله يكتب إلى أمه يطلب منها أن ترسل إليه فى عدن بعض الجوارب الضاغطة حتى تخفف عنه الآلام الفظيعة والمبرحة التى عانى منها. ولكن حالته ساءت بصورة مفزعة فقد ظهرت الأورام فى ركبته اليمنى لدرجة منعته من الحركة الأمر الذى اضطره إلى الرقاد ممددا فى فراشه. ولم تمنعه الآلام من الحركة فحسب بل منعته من النوم أيضا. ولهذا تعين عليه أن يذهب إلى المستشفى للعلاج . واتفق مع ستة عشر زنجيا لنقله إلى مدينة زيلا على نقالة مقابل خمسة عشر دولارا لكل منهم واستغرقت الرحلة إلى زيلا نحو عشرين يوما تخلى عنه بعض الحمالة فى الطريق. وبلغ عجزه عن الحركة حدا جعله يقضى حاجته فى كيس من صنعه أثناء حمله. ومن زيلا واصل رحلة العذاب إلى عدن التى وصلها بعد

فوات الأوان وهناك تسلم الرباط الضاغط الذى أرسلته أمه إليه. ولكن هيهات فقد سبق السيف العزل، وبمجرد وصوله إلى عدن دخل المستشفى البريطانى حيث اكتشف الأطباء أن حالته ميئوس منها. وكتب رامبو إلى عائلته يخبرها أنه أصبح جلدا على عظم ويعانى من تقرحات الفراش. وتطلع الشاعر أن يعود إلى فرنسا ليتوافر على علاجه أطباء أكثر خبرة وتخصصا من الأطباء الانجليز فى عدن. ولكنه اضطر إلى الانتظار بعض الوقت فى عدن لحين إنهاء أعماله فى هرارى وتصفيتها. وأرسل إليه شريكه تيان مستحقاته التى بلغت ٤٧ ألف وأربعمائة وخمسين فرنكاً. ولم يكن ذلك بالمبلغ البسيط. وبعد تصفية أعماله سافر إلى مارسيليا حيث دخل المستشفى لإتمام العلاج. لقد جانب ألفريد باردى الصواب عندما أشار فى خطاب له بتاريخ ١٦ يوليه ١٨٩٧ أن رامبو مات فى مارسيليا بمرض الزهرى، ولكن الحقيقة أن الأطباء فى مارسيليا اكتشفوا إصابته بسرطان العظام ولكن هؤلاء الأطباء أخفوا عن رامبو هذه الحقيقة المروعة حتى يحتفظ بروح معنوية عالية واكتفوا بإخباره بضرورة بتر احدى ساقيه. غير أنهم أبلغوا أخته إيزابيلا بحقيقة مرضه ولم ينجح بتر ساقه فى شفائه فقد أخذ مرض السرطان الخبيث يزحف حتى انتشر فى النخاع

الموجود داخل عظامه وبات من الواضح أن العمر لن يمتد به طويلا. ومن سخرية القدر أن تلك الفترة من حياته شاهدت اعترافا بموهبته الأدبية لم يسبق لها نظير. وعندما أشار طبيب العائلة إلى إنتاجه الشعرى علق على ذلك بقوله : «الشعر إنه مثل البراز».

ورغم أن رامبو كان يحتضر فقد اجتاحه حنين هائل للعودة إلى المشرق. ونسى كل كراهيته السابقة لهرارى وعدن وبالفعل توجه إلى مارسيليا تمهيدا لعودته إلى هرارى رغم علمه بسوء حالته الصحية ورغم أنه أصبح الآن يمشى على عكازين. والعجيب أنه ظل مشغولا باستثمار ماله فى التجارة رغم عجزه عن الحركة. وبناء على تعليمات الأطباء قامت أخته بإعطائه صدمات كهربائية حتى يقف زحف الشلل على أطرافه. وحزن أصدقاؤه فى الحبشة عندما سمعوا بما حدث له. وكان محافظ هرارى الرأس ماكونين من أشد الناس حزنا عليه. تقول أخته إيزابيلا أنه كان فى أيامه الأخيرة لا يفكر فى شىء إلا فى العودة إلى عدن وهرارى وأن ذهنه كان يصفو أحيانا فيعرف كل المحيطين به وأحيانا يصيبه الهذيان فيرى نفسه وهو ينظم القوافل ويجمع الجمال اللازمة لها ويتوهم أن القافلة قد تحركت ويظهر انزعاجا شديدا لأنها سوف تتأخر فى الوصول فى الموعد المحدد لها. وفى

العاشر من نوفمبر ١٨٩١ صعدت روح الشاعر إلى بارئها وهو فى السابعة والثلاثين من عمره. وكان اسم خادمه الحبشى آخر كلمة ترددت على لسانه. وقبل وفاته أوصى بجانب من ثروته إلى هذا الخادم المخلص الأمين، وأرادت أمه أن تتجاهل هذه الوصية غير أن أخته ايزابيلا أصرت على تنفيذها، وسعت ما وسعها السعى إلى الاستدلال على مكان هذا الخادم وعنوانه . ولكنها فشلت فى ذلك. وكالعادة لم يرحمه الباحثون فى قبره فقد استدل البعض من هذه الوصية على وجود علاقة شاذة بين الشاعر وخادمه.

٢ - بـول فيرلـين

(١٨٤٤ - ١٨٩٦)

سـيرة حياتـه :

كان والد بول فيرلين ـ واسمه بالكامل نيكولاس أوجست فيرلين ـ ضابطا فى الجيش الفرنسى فى مدينة ميتز فى شرقى فرنسا. وفى التاسعة والأربعين من عمره أنجب ابنه الوحيد فى ٣٠ مارس ١٨٤٤ وظل الأب يتنقل من بلد إلى بلد ومن ثكنة إلى أخرى حتى قرر عام ١٨٥٠ أن يستقيل من الخدمة العسكرية ويستقر فى باريس وليس هناك فيما يبدو أى سبب يدعوه لاتخاذ هذا القرار سوى رغبته فى أن يقضى بقية حياته فى العاصمة. وكان لشاعرنا منذ ولادته اسمان اسم ذكر هو بول واسم انثوى هو مارى.

نشأ الطفل بول مدللا منذ البداية الأمر الذى ألحق بالغ الضرر بصحته النفسية وخلق فيه نوعا من التشبث والعناد الطفولى ظل يلازمه طول حياته. فقد أنجبته أمه بعد لهفة وطول انتظار وبعد مضى ثلاثة عشر عاما من زواجهما المجدب، وأصابها القنوط من الانجاب بسبب تكرار تعرضها للاجهاض ثلاث مرات قبل أن يرى بول طريقه إلى النور . وإذا صدقنا الشاعر فإن أمه احتفظت بالأجنة المجهضة فى ثلاث أوان منفصلة. فلما أنجبته شغفت به

إلى حد الجنون. وحذت ابنة اختها التى عاشت معها تحت سقف واحد حذوها.

ويبدو أن الطفل وجد تدليلا مماثلا لدى الأهل والأقارب سواء كانوا ينتمون إلى عائلة الأم أو عائلة الأب.

وتنحدر عائلة فيرلين من أصل بلجيكى يرجع إلى القرن السادس عشر كما أنها تزخر بالقساوسة ورجال الكنيسة فضلا عن أنها كانت من ناحيتى الأب والأم عائلة ميسورة الحال. ويقال إن الأم اتصفت بالحب والطيش والرغبة فى العراك والافعال الصبيانية والإيمان بالخزعبلات . تقول ماتيلدا زوجة الشاعر عن حماتها إن مظهرها الخادع ينم عن وقار بنات الطبقة الوسطى في حين أنه أخفى فى طياته خصال امرأة فلاحة تتسم بالطمع والحقد. وعلى أية حال اتصفت هذه المرأة بقدر لا حد له من الإصرار جعلها قادرة في أخريات الحياة على مواجهة مكاره الحياة.

ظل بول حتى نحو العاشرة يرفض أن ينام إلا إذا كانت أمه على مقربة منه. كما كان يؤثر اللعب فى حضرة والديه ويقضى

الساعات المتصلة منكبا على الرسم. وبفضل مشاعره الودية الفياضة أحبه ذووه فنسوا قبح شكله ونزواته. ووجد الأب أن ابنه أصبح مدللا بشكل لا يطاق و«مستحيل» فألحقه بمدرسة داخلية حيث أظهر بوجه عزوفا عن بذل الجهد الدراسى ازداد عاما بعد عام لدرجة أنه فقد اهتمامه بعلمين أثيرين إلى قلبه هما اللغتان اللاتينية والفرنسية عندما وصل إلى السنة الثانية فى الجامعة. واللافت للنظر أن سجله الدراسى لم يكن على وتيرة واحدة. ففي البداية أنكب على الدراسة ثم ما لبث أن أعرض عنها. وليس أدل على هذا التفاوت من أنه كان يحتل المركز السادس فى فصل يتكون من واحد وسبعين تلميذا ثم أصبح بعد ذلك يحتل المركز الخمسين فى فصل يتكون من تسعة وخمسين تلميذا. غير أنه استطاع فى نهاية الأمر أن يجتاز امتحان البكالوريا فى ١٦ أغسطس ١٨٦٢ . ويقول الباحثون إن صوره الفوتوغرافية الباكرة تدل على أنه لم يكن طفلا قبيحا أو منفرا فى حين صوره المأخوذة له فى وقت يفاعته تدل على أن تغيرا ملموسا طرأ عليه على نحو يبرر قول بيرنز مدرس التاريخ فى مدرسة ليسيه بونابرت عنه إن له «وجها قبيحا يذكر المرء بعتاة المجرمن وأكثر التلاميذ إهمالا

لشخصه وملبسه في مدرسة بونابرت.» يقول فيرلين عن نفسه إنه ظل يحتفظ بإيمانه بالدين بعد إقامة الكوميون الأول بعام. غير أن الباحثين يرون أنه فقد إيمانه قبل ذلك عندما كان تلميذا فى مدرسة الليسيه فى الرابعة عشرة من عمره. فحتى ذلك الحين ظل الصبى يواظب على الذهاب إلى الكنيسة والاعتراف وآداء الشعائر الكنسية. ولكنه بدأ فى تلك المرحلة من حياته يتجه إلى السخرية وانصرف إلى قراءة الكتب وتأليف الأشعار البذيئة . وبالرغم من هذا ظل يستمسك فى قرارة قلبه بجو البراءة والمثالية الذى أحاطه به أبواه. ويبدو أن واحدا من زملائه تنبه فى مدرسة الليسيه إلى اكتشاف الصراع المحتدم فى نفسه بين النزعة نحو السمو والمثالية والنزعة نحو القذارة والبذاءة فقد رسم لشاعرنا صورة كاريكاتورية كعالم فلكى يسقط فى بالوعة مجارى.

اتجه بول فيرلين إلى المثلية منذ أيام الدراسة فقد أقام علاقة حميمة مع لوسيان فيوتى ثم عرف رامبو فى الفترة ١٨٧٢ - ١٨٧٣ ثم لوسيان ليتينواه بعد ذلك بعدة أعوام ، وفى العشر سنوات الأخيرة توثقت علاقته بفردريك أوجست سازال وإذا كان رامبو اتجه إلى الشذوذ الجنسى بسبب نضوب عاطفة أمه وقسوتها عليه فإن فيرلين على العكس من ذلك اتجه إليه بسبب شدة وله أمه به وإظهار التدليل له.

وبعد حصوله على شهادة البكالوريا اتجه إلى دراسة القانون وبدأ يحضر محاضرات فى القانون الرومانى ولكنه مالبث أن انصرف عنها الأمر الذى جعل أباه ينزعج انزعاجا شديداً فأبقاه فى البيت لمدة ستة أشهر واستطاع أحد أصدقاء والده أن يلحقه بوظيفة مؤقتة فى إحدى شركات التأمين. ثم التحق بعمل إدارى خفيف وممل فى بلدية باريس يتلخص فى إرسال رواتب القساوسة فى باريس. وتدهورت صحة والده الذى توفى فى ٣٠ ديسمبر عام ١٨٦٥ فساءت أحوال العائلة المالية، الأمر الذى اضطره وأمه إلى البحث عن شقة متواضعة.

ويبدو من انطباع معارفه عنه أن شخصيته اتسمت بالرقة والعذوبة الشديدة وهو الأمر الذى شهد به فى سبتمبر ١٨٦٣ الأب دولونى كما شهد به زميله فى الدراسة ديلاهاى الذى حدثنا عن سهولة انقياده لإرادة الآخرين . وبعد أن تجاذب الأب دولونى أطراف الحديث معه لمدة طويلة تأكد من طيبته فقد اعترف له بالعيوب التى تشوبه وتخوفه من الحياة الباريسية. وظل فيرلين يحتفظ بطبيعته الطيبة حتى بعد أن انحرف عن الطريق القويم يقول بعض الذين عرفوه عن كثب فى تلك الفترة إنه بدا مسلوب الإرادة. وفيما بعد جارت زوجته ماتيلدا من الأثر السيىء الذى تركته أمه فى تنشئته فقد ظلت تعامله حتى بعد أن كبر وكأنه طفل

في السادسة من عمره. فقد غرست فيه الخوف والتفكير في الذات وعلمته منذ نعومة أظفاره أن يلبس عند النوم طاقية من الصوف الناعم ولفته بملفحة كما لو كان مريضا أو طاعناً في السن وعند خروجه من المنزل شددت عليه أن يحذر المرور ويتجنب السير في الشوارع غير المطروقة والمشى أسفل المبانى تحت الإنشاء.

ويلفت ديلاهاى الذى عرف فيرلين عام ١٨٧١ نظرنا إلى الجانب الثائر والمتمرد فى شخصيته فيقول إن سورة الغضب الملتاث كانت تجتاحه من وقت إلى آخر. بشكل مفاجيء ودون آية مقدمات. فبعد أن يمل من كثرة استسلامه لإرادة الآخرين تراه يفاجيء المحيطين به بثورة عاصفة وعارمة. وفي مثل هذه الحالة يلجأ إلى الشراب يلتمس فيه الراحة والهدوء والسكينة. يقول أحد معارفه إنه بدأ يشرب الخمر في ١٨٦٣ فى فترة عمله فى بلدية باريس وساعده على ذلك أن المال لم يكن يعوزه. فإلى جانب راتبه كان والده يعطيه نصف معاشه لينفقه على متعه وتسليته . يقول فيرلين فى هذا الصدد ان فاجعتين تركتا فيه أعمق الأثر ودفعتاه إلى معاقرة الخمر هما موت والده عام ١٨٦٥ وموت ابنة خالته إليزا عام ١٨٦٧ التى أحبها على نحو رومانسى حالم متجاهلا فارق السن بينهما وأنها امرأة متزوجة. ونحن نجد أصداء هذا

الحب فى ديوانه «قصائد من زحل» ورغم انشغاله بمعاقرة الخمر فإنه أظهر احتفالا كبيرا بالشعر والثقافة والمتاحف والمعارض الفنية والحفلات الموسيقية. وساءت أحواله بسبب إفراطه فى الشراب. وكانت الخمر تستثير فيه نزعته نحو العدوان ورغبته الجامحة فى سفك الدماء. وبحلول عام ١٨٦٩ بدا من الواضح أن حالته تزداد تدهورا. ففى أحد الأيام عاد إلى البيت فى الساعة الخامسة صباحا ليهجم على أمه ويصرخ فى وجهها كالملتاث مهددا بقتلها وقتل نفسه. وأرسلت أمه برقية إلى أختها مارى ـ روز (وهى امرأة مهيبة ولها شخصية قوية) تستنجد بها. فجاءت لترى ما يمكن عمله مع هذا الابن الدموى الشرس. ولكن يبدو أن تدخلها لم يأت بأية نتيجة. فبعد رحيلها بيومين تكررت نفس الحكاية فقد حضر إلى البيت فى حالة هياج شديد فى الساعة الواحدة من صبيحة واخذ الأيام مع صديق له وأخذ يهدد أمه بسيف يلوح به فوق رأسها. ولم ينقذ الأم من اعتداء ابنها عليها سوى وجود ضيفه فى المنزل ، فقد تعاونت مع صديق فيرلين فى انتزاع السيف من يده. وظل شاعرنا فى حالة هياج متصل لمدة ثمان ساعات عاد بعدها الهدوء. وكتب أحد المعارف فيكتوار برتراند يقول فى هذا الشأن : «إذا استمر فيرلين على هذا الحال

فلسوف يرتكب جريمة في يوم من الأيام». وبعد وفاة عمته جراند جين فى ٢٢ مارس ١٨٦٩ أصبحت حالته لا تطاق وتنذر بالشر المستطير فاجتمعت العائلة مع الأصدقاء والقسيس وكاتب السجل المدنى واتفقوا فيما بينهم على إعطائه درسا لا ينسى ، وحثه الجميع على ضرورة ارتباطه بزواج يصلح ما أعوجّ من شأنه. واقترحوا عليه الزواج من بنت عم له تميزت بقوة الشخصية. ولكنه خوفا من مواجهة هذه الفتاة قرر الزواج من فتاة يكاد لا يعرفها اسمها ماتيلدا (هى الأخت غير الشقيقة لواحد من أعز أصدقائه هو تشارلس دى سيفرى).

كان والد ماتيلدا ـ واسمه تيودور موتيه ـ رجلا ميسور الحال من الطبقة البورجوازية واعترض موتيه على زواج ابنته من فيرلين الذى شعر نحو حماه منذ البداية بالمقت ووصفه بأنه «بورجوازى مدع وضيق الأفق» . ولكنه فى المقابل أحب حماته وسكن إليها واصفا إياها بأنها «من أكثر النساء ذكاء واتساعا فى الأفق». وماتيلدا ـ وهى من مواليد ١٧ ابريل ١٨٥٣ ـ كانت فى السادسة عشرة عندما قابلها الشاعر لأول مرة عام ١٨٦٩. ولفت نظره أنها تعزف على البيانو وتهتم بالرسم وتؤلف بعض الأزجال والأشعار الخفيفة. وفى أكتوبر ١٨٦٩ تقدم رسميا لخطبتها ورحبت به الفتاة

وأمها فرضخ الأب لإرادتهما. ورغم أن ماتيلدا كانت على قسط وافر من الجمال والدلال فإنها لم تهتم بقبح شكل عريسها. ويبدو أن الذى أغرى الفتاة وأمها بقبوله هو ما سمعاه عنه من أنه شاعر مطبوع سوف يشار إليه بالبنان فى قابل الأيام. وفى فترة خطبته بذل شاعرنا قصارى جهده كى يكون عند حسن ظنها به وامتنع عن الشراب وأقلع عن الشتائم وبدا لها «عذبا رقيقا ومرحا ودودا». وتعكس قصيدته «أغنية الناس الطيبين» تطلعه إلى تحقيق الحياة الزوجية الهانئة. وكان عقد زواجهما (الذى تحدد موعده فى ٢٩ يونية ١٨٧٠ وتأجل بسبب مرض العروس ثم مرض والدتها) موفقا من الناحية المالية فقد كان كلا الزوجين ينعم بدخل كاف لحياة ميسورة.

كاد زواج فيرلين ألا يتم بسبب اندلاع الحرب الفرنسية ـ البروسية ، ففى يوم ١٠ أغسطس ١٨٧٠ تم استدعاء الرجال العزاب فى مثل سن فيرلين للالتحاق بالخدمة العسكرية. وفى اليوم التالى ـ أى قبل وصول قرار الاستدعاء ـ تم زواج فيرلين من ماتيلدا. ومع ذلك فقد تطوع شاعرنا للدفاع عن باريس عندما رأى الجيش البروسى يحاصرها. ولم يتحمل شاعرنا الحياة العسكرية الصارمة وجو الخنادق والثكنات فسقط مريضا، الأمر

الذى اضطره إلى نبذها في تلك الفترة من حياته . بدأ فيرلين يخالط أدباء باريس وفنانيها الذين كانوا يمقتون حكومة فرنسا وامبراطورها بقدر ما يمقتون القوى الرجعية المساندة لهما بسبب تخاذلهما فى الذود عن حمى الأوطان واستسلامهما للقوات البروسية الغازية. وفى تلك الفترة من حياته تحمس فيرلين وصحبه من الأدباء والفنانين لإقامة كوميون باريس. عندئذ دعا شاعرنا إلى استئصال رءوس بنى جلدته من الخونة الأمر الذى أصاب الكاتب المعروف أناتول فرانس بالفزع. وبعد فشل تجربة إقامة كوميون باريس خشى فيرلين على نفسه من مغبة انتقام السلطة منه ففر ليعيش عيشة الكسل والدعة فى بيت أهل زوجته. وعاد إلى معاقرة الشراب الذى جلب على رأسه كل المصائب اللاحقة.

فى تلك المرحلة من حياته تلقى فيرلين الخطاب الذى أرسله إليه آرثر رامبو طالبا إليه أن يساعده فى مغادرة الأرياف والعيش فى باريس حتى تتفتح قريحته الشعرية. وهو ماسبق أن تناولناه بالتفصيل فى الفصل السابق الذى أشرنا فيه أيضا إلى تكرار اعتداء فيرلين على زوجته والقطيعة التى حدثت بينهما وانتهت بانفصالها عنه.

عندما عقد شاعرنا العزم على الرحيل مع رامبو إلى بروكسل كان واحدا من أهم دوافعه الخوف من بطش الحكومة الفرنسية وخاصة بعد أن نشرت إحدى الصحف الرجعية اسمه كأحد الأدباء الذين اشتركوا فى أحداث الكوميون. غير أن الحياة فى بلجيكا خيبت ظنه ففيها قاسى شظف العيش، ودعاه هذا إلى أن يجرب حظه مع رامبو فى لندن، وهناك لم يتركه البوليس البريطانى على حاله فقد راقبه بسبب ميوله الثورية المعروفة واشتراكه فى إقامة كوميون باريس. لقد سبق أن ذكرنا بشىء من التفصيل قصة زج السلطات البلجيكية به في غياهب السجن بسبب محاولته - وهو مخمور - قتل صديقه رامبو وكيف حكم القضاء عليه بأقصى عقوبة ينص عليها القانون البلجيكى وهى الحبس لمدة عامين. ولم يحاول القاضى أن يظهر أية رأفة به بسبب ميوله الثورية التى عرفت عنه فضلا عن شكه في ممارسته للجنس الشاذ. وعندما استجوبه القاضى البلجيكى أصر على أنه كان مخمورا عندما أطلق الرصاص على صديقه وأن الدنيا اسودت فى نظره عندما رفضت زوجته أن تعود إليه وأن يأسه تضاعف عندما قرر رامبو الرحيل، وأثار هذا الاعتراف الأخير شكوك القاضى فى شذوذه، وهى شكوك أكدتها الرسائل المتبادلة بين الرجلين والتى وقعت فى

يد البوليس، وأنكر كل من فيرلين ورامبو إنكارا باتا تهمة ممارسة الشذوذ الجنسي، ومن جانبه حاول رامبو أن يستبعد القصد الجنائى من وراء اعتداء صديقه عليه فأشار إلى ندمه الشديد على ما فعل وإلى حالته المخمورة التى تجعله غير مسئول عن أفعاله. وأضاف أنه لم يطلق الرصاصة الثانية عليه بل صوب فوهة مسدسه نحو أرضية الحجرة. وهو الأمر الذى سبق لإليزا أم فيرلين أن شهدت به فى المحكمة. وكانت شهادة رامبو المعتدلة وإنكاره التام لوجود أية علاقة جنسية شاذة بينهما سببا فى تخفيف الحكم على فيرلين، نظرا لصرامة القانون البلجيكى الشديدة فى معاقبة الشذوذ الجنسى . وكما أسلفنا اكتفت المحكمة ـ رغم قسوة حكمها ـ بحبس المتهم لمدة عامين وتغريمه مائتى فرانك. فضلا عن أنها أشارت فى حكمها إلى اشتراكه فى أحداث كوميون باريس الشيوعى، واستأنف فيرلين ضد هذا الحكم ولكن المحكمة رفضت تخفيفه. ولكن ١٧٥ يوما أسقطت من فترة حبسه لحسن سيره وسلوكه،

وتعتبر فترة الثمانية عشر شهرا التى أمضاها شاعرنا فى السجن من أخصب فترات حياته الشعرية على الإطلاق. وبعد هذه الفضيحة انفض عنه أصدقاؤه ومعارفه (كما انفضوا عن أوسكار

وايلد) باستثناء ثلاثة ظلوا أوفياء له هم ليليتييه وبليمونت وديلاهاى ولم تتخل الأم عن ابنها فى محنته بل وقفت بجانبه حتى النهاية وواظبت على زيارته فى سجن مون كل أيام الزيارة. ورفضت الأم أن ترى عيوب ابنها أو أن تظن به السوء، وصور حبها المأفون له أنه مظلوم وأنه لم يرتكب أية جريمة.

وهناك بعض وجوه الشبه بين قصتي أوسكار وايلد وبول فيرلين فكلاهما صدر ضدهما حكم بالحبس لمدة سنتين وجلبا العار والشنار على اسميهما. وكلاهما هجره الأصدقاء والمعارف بسبب الفضائح التى تورطا فيها. وكلاهما التجأ فى عذابه ومحنته إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية التى ضمتهما إلى صدرها ولكن الشبه بين حالتيهما ينتهى عند هذا الحد. ففى حين نضبت موهبة وايلد الأدبية تماما من جراء مرارة تجربته فى السجن (فهو لم يؤلف فيه غير كتابه «من الأعماق» وقصيدته «بالاد من سجن ريدنج» فقد نشطت موهبة فيرلين الشعرية فى السجن وتوفر فيه على الخلق والإبداع. الذى أضفى عليه الرمزية الخالدة بعد مرور أربع وعشرين ساعة فقط على إلقاء القبض عليه. ففى الأيام الثلاثة الأولى من دخوله سجن (بيتى كـارم) ألف قصيدة كل يـوم ثم تلتها ست عشرة قصيدة أخرى وهــو فى انتظـار نقله إلى سجن

مون حيث أصبح انتاجه أوفر وأكثر غزارة وأشد تألقا ففيه نظم القصائد التالية : «فن الشعر» و«إنه حقا لأمر حزين» وعشرة سوناتات من أروع شعره الروحانى وأكثره شفافية وصوفية ليس فى الأدب الفرنسى فحسب بل فى الأدب العالمى كله تحمل عنوان «إلهى قال لى» التى تصور حوار الشاعر مع السيد المسيح. ويبلغ مجموع القصائد التى ألفها فى السجن واحدة وأربعين قصيدة، وبعد خروجه من السجن فى يناير ١٨٧٥ خطر له أن ينشر كل القصائد التى ألفها فى السجن فى ديوان واحد بعنوان: «الزنزانات». ولكنه عدل عن هذه الفكرة وضم قصائد السجن الواحدة والأربعين إلى عدد من دواوينه اللاحقة التى نشرها على مدى عشرين عاما. فظهرت سبع قصائد بينها فى ديوان «الحكمة» (١٨٨٠) واثنتا عشرة منها فى «أيام زمان» ومؤخراً (١٨٨٥) وثمان فى «التوازى» (١٨٨٩) وثلاث فى «السباب» (١٨٩٦) وقصيدتان فى «العجائز المقطوعة» (وهو الديوان الذى نشر بعد وفاته). وقد انتهى فيرلين من تأليف «إلهى قال لى» عقب هدايته إلى الدين فى أبريل ١٨٧٤. ويرى الدارسون أن قصائد ديوانه «الزنزانات» ليست على نفس المستوى من الجودة فهو يحتوى على أروع قصائده بقدر ما يحتوى على أسوأها.

كتب فيرلين «الزنزانات» أثناء وجوده في السجن بعد أن انتهى من تأليف ديوان «رومانسيات بلا كلام» وتنم قصائده التي كتبها في السجن عن مدى تمزقه الروحي. ولهفته على الخروج من أزمته النفسية والتخلص من الفوضى الأخلاقية التي تعبث بداخله. ومن أجمل أشعاره التي ألفها على غرار «رومانسيات بلا كلام» التي تميزت بالعذوبة قصائد «أنثى الفأر تقفز» و«لا أعرف لماذا؟» و«نعاس أسود رائع» و «الذي لا سبيل إلى نسيانه» و«السماء فوق السقف» وتتضمن قصيدته «رومانسيات بلا كلام» نظريته في الشعر. ورغم أنه تخلى عن موقفه المدافع عن الرمزية فقد احتفلت المدرسة الرمزية بديوانه «فن الشعر» (١٨٨٢) احتفالا شديدا واعتبرته نبراسا لها تترسم خطاه وتحذو حذوه. وتعكس بعض أشعار فيرلين في تلك الفترة انشغاله العاطفي برامبو وتأرجحه بين الرضا عنه والسخط عليه. ويحتوي ديوان «مقطوعات شيطانية» خمس قصائد طوال تتضمن تحليلا لطبيعة علاقته برامبو هي: «النعمة» و«الامتناع النهائي عن التوبة» و«كريمين أموريس» و«دون جوان الصغير» و«حبيبة الشيطان» . ويرى الدارسون أن معظم هذه القصائد من أردأ أعماله. ورغم رداءتها فإن لها أهمية وثقافية وتسجيلية إذ إنها تلقي الضوء على تمرده على دعوة رفيقه رامبو إلى إباحة الحب بين الذكور والتجرؤ على

الله ومعاملته معاملة الند للند. وهذا مانجده في قصيدة «دون جوان الصغير» . ويمكن القول بأن فيض الصوفية هبط عليه في الشهر السابع أو الثامن من الزج به في السجن . ولكن رامبو يرى أن بذور هدايته وتحوله إلى الدين ترجع إلى الأسابيع الأولى من حبسه في سجن (بيتي كارم) وفي السجن جاءه نبأ حصول ماتيلدا زوجته في ٢٤ أبريل ١٨٧٤ على حكم قضائي بالانفصال عنه وأحقيتها في حضانة ابنها جورج ونفقة قدرها ١٢٠٠ فرنك سنويا. فأجهش بالبكاء وسرعان ما استدعى قسيس السجن واسمه الأب أيوجين دي كامب وطلب منه إمداده بتعاليم الكنيسة ودروسها. وأعطاه دي كامب مؤلفا ضخما يقع في ثمانية مجلدات من تأليف المونسنيور جوم. وخشي قسيس السجن أن تكون ضخامة هذا الكتاب الديني سببا في تشتيت انتباه السجين فأوصاه بالتركيز على تلك الأجزاء الخاصة بالمناولة. ولم يكن قسيس السجن متعجلا فانتظر مدة شهر بأكمله حتى يستيقن من صدق مشاعر السجين الذي لم يسمح له بالحصول على سر الاعتراف وسر المناولة إلا في أغسطس ١٨٧٤ . ويؤكد الدارسون أن اتجاه بول فيرلين إلى الدين وتخليه عن الكفر والإلحاد مسألة طبيعية للغاية. فقد كان الدين متأصلا في طبيعته الأمر الذي جعله في غضون سنوات قلائل يتحول من رائد من رواد مدرسة

البارناسيين فى الشعر الداعية إلى التأنق فى اللفظ وإلى الوثنية الجديدة فى عام ١٨٧١ إلى شاعر دينى وصوفى عظيم عام ١٨٧٤ . وكان لتأثير رامبو الشيطانى فيه وامتعاضه من تطاول هذا الشاعر على الله دور بارز فى هدايته إلى الدين. وكان من عادته أن يلتجأ إلى الكنيسة فى كل أزمة تعصف به. وبتحوله عن مدرسة البارناسيين لم يعد فيرلين ينظر إلى الشعر على أنه مجرد تمثال جميل من المرمر أو زهرية جميلة من السيفر ولكنه سعى حثيث لأن يكتشف الإنسان جوهره الروحى. وقبل أن يلتقى فيرلين بالغلام رامبو خلا شعره تماما من أية أخيلة وعبارات دينية. ولكن هذه الأخيلة والصور الدينية شاعت فى شعره بعد أن عرف رامبو وظلت تشيع فيه حتى نهاية العمر. كما لو كان رامبو قد فجر فيه طاقاته الدينية والروحية الكاملة. ولا يقتصر هذا على شعره الصوفى مثل قصيدته «الحكمة» بل امتد حتى إلى شعره البذىء الذى ينطوى على إشارات دينية وصوفية. وعندما اهتدى فيرلين إلى الدين وحاول بدوره هداية صديقه رامبو إليه سخر منه رامبو واستهزأ به على نحو ما فصلنا فى الفصل السابق صحيح أن هدايته إلى الدين لم تمنعه من العودة إلى ممارسة الرذيلة

والاستغراق فى الجنس المحرم والشراب. ولكن من المؤكد أنه نبذ الإلحاد نهائيا. والجدير بالذكر أن شاعرنا اعترف فى يناير ١٨٧٣ أمام كل من صديقيه رامبو وديلاهاى برغبة عارمة تجتاحه وتدفعه دون وعى منه إلى كرسى الاعتراف وبأنه استمر يمارس شعائر الكنيسة الكاثوليكية لمدة أسبوع أو أسبوعين. وفى هذا العام ألف فيرلين «بعض الترانيم إلى العذراء مريم» و«بعض صلوات الكنيسة الباكرة» . وكما أوضحنا فإن عودته إلى حظيرة الإيمان ترجع إلى أسباب من أبرزها رسوخ الإيمان الدينى فى ضميره منذ صباه وابتعاده عن الشعراء البارنسيين الذين يناصبون الكنيسة أشد العداء وتمرده على أثر رامبو المدمر فيه.

ولكن تحوله من الكفر إلى الإيمان لا يعنى بحال من الأحوال أن طباعه قد تغيرت. فقد ظل يحتفظ بطبيعته الحادة العنيفة المتطرفة حتى النهاية. وسرعان ما تحول إيمانه بالكنيسة الكاثوليكية إلى تعصب لها وإلى عقيدة جامدة مثل حجر الصوان غير قابلة للنقاش. ومعنى ذلك أن شاعرنا فى تدينه لا يختلف كثيرا فى طبيعته عنه فى فسقه وعربدته وإدمانه المدمر للخمر. وانعكس هذا التطرف فى موقفه من عدة قضايا اجتماعية. فقد شن أيام هدايته هجوما ضاريا على المجتمع الحديث ووصفه بأنه «كريه وعفن وشرير وسخيف ومتكبر وملعون» . كما أنه حمل حملة

شعواء على الديمقراطية والنظام الجمهورى وحق الانتخاب للجميع فضلا عن أنه هاجم الآراء التقدمية التى عبر عنها كل من فلوبيرت وفكتور هيجو. يقول بعض النقاد فى هذا الشأن أن فيرلين أظهر فى إلحاده التعصب نفسه الذى أظهره فى تدينه . ففى إلحاده لم يجد أية غضاضة فى المناداة بقطع رقاب أعداء التقدم والثورة والتجديد فى حين أنه فى إيمانه لم يجد غضاضة فى الدعوة إلى حرق المارقين إلى الكنيسة مثلما كانت الكنيسة فى القرون الوسطى تفعل». وكما أسلفنا تنبه قسيس السجن إلى هذا فوضعه تحت المراقبة الشديدة ولم ينخدع باندفاعه وتطرفه الدينى واعتبر عودته إلى حظيرة الدين شيئا محتملا وليس أمرا أكيدا رغم أنه كان لايكف عن الانكفاء على وجهه ساجدا أمام الصليب.

وفى يوم الإفراج عنه انتظرت أمه خروجه على باب السجن وآثر أن يغادر باريس بذكرياته الأليمة والموجعة ويسافر إلى لندن التى وصل إليها حوالى ٢٠ مارس ١٨٧٥. وفى انجلترا استطاع فيرلين أن يجد وظيفة مدرس لغة فرنسية فى مدرسة ستكنى فى قرية هادئة وديعة بالقرب من بوسطن فى منطقة لنكولن شير وهى صغيرة لم يزد تعداد سكانها آنذاك على ثمانمائة نسمة. وظل أهل القرية يذكرون هذا الرجل الغريب بكل خير فقد ترك

فيهم الانطباع بأنه إنسان رقيق وصبور ويغلب عليه الحزن دائب التفكير وانشغال البال. وقد واظب فيرلين على حضور الكنيسة الإنجيلية فى القرية فى أيام الآحاد أما أيام السبت فكان يستيقظ مبكرا كى يتمكن من حضور القداس فى كنيسة بوسطون الكاثوليكية . وبوجه عام امتنع آنذاك عن معاقرة الخمر. ولكن واحدا فقط من أهل القرية وقعت أنظاره عليه وهو ثمل. استطاع شاعرنا أن يحظى باحترام جميع أهل القرية ومن بينهم قسيس القرية ومدير المدرسة كما أن طلبته أحبوه. وفى وظيفته عرف فيرلين قدرا من السعادة فقد جرب الهدوء والسكينة بعد حياته العاصفة المخمورة مع رامبو. واكتفى بالأخبار التى تصله إلى باريس من وقت إلى آخر. ولم يشعر آنذاك بأدنى رغبة فى العودة إلى باريس بسبب ذكرياته المريرة فيها.

وفى أبريل ١٨٧٥ عقد فيرلين صداقة مع شاب اسمه جيرمان نوفو الذى كان واحدا من أصدقاء رامبو السابقين والذى وجد شاعرنا سعادة بالغة فى هدايته إلى الدين المسيحى. وفى أول يونيه ١٨٧٦ غادر بوسطون وسافر إلى لندن حيث أمضى بضعة أسابيع يحدوه الأمل فى العثور على وظيفة مدرس هناك. كما أنه سافر إلى فرنسا حيث شاهده صديقه ديلاهاى فى مدينة

تشارلفيل مسقط رأس آرثر رامبو. وفي تلك الفترة من حياته كانت صحته على مايرام ومفعما بالنشاط ويتمتع بروح معنوية عالية. وفي سبتمبر من عام ١٨٧٦ التحق بالعمل كمدرس في معهد القديس ألوسيوس في بوريموث، وهو معهد ضم إليه أبناء الطبقات الموسرة الذين اتسموا بالكسل وعدم مراعاة النظام. ولم يظهر مدير هذا المعهد أي اهتمام بحسن تعليمهم، أو سلوكهم الأمر الذي جعل فيرلين يلقى الأمرين في تدريسهم وقد درج شاعرنا في السنتين الأخيرتين على قضاء الأجازة الصيفية في فرنسا حيث أمضى جانبا من إجازته مع والدته في أراس. وهناك زاره صديقاه ديلاهاي وإيرني، وكانت أمه تعد له ولضيوفه أشهى المأكولات. غير أنه أحس بالحنين إلى باريس فقرر في يناير ١٨٧٧ العودة إلى فرنسا دون أن تكون له أي مشروعات أو خطط محددة.

وفي فرنسا نما إلى علمه أن صديقه ديلاهاي ترك وظيفته كمدرس في معهد نوتردام التعليمي في ريثيل. فتقدم بطلب لشغل هذه الوظيفة الشاغرة. وبالفعل تم تعيينه في تلك الوظيفة حيث بلغ نصابه ثلاثين ساعة في الأسبوع وقام بتدريس الفرنسية والإنجليزية والتاريخ لتلاميذه، واستمر في هذه الوظيفة لمدة عامين ابتداء من أكتوبر ١٨٧٧ حتى يونيه ١٨٧٩. وقد أثلج صدره العمل

فى تلك المدرسة بسبب اتفاقه مع اتجاهاتهما الدينية والسياسية. وأعطى فيرلين المحيطين به الانطباع بأنه مدرس كفؤ يمكن الاعتماد عليه ولكنه متحفظ كما أنه وقور بعض الشىء أكثر مما ينبغى. ويذكر تلاميذه هذه المدرسة عنه أنه كان يسير جامدا، ويتحرك كأنه إنسان آلى ويرتدى جاكتة هرئة منسولة الخيوط ويستغرق فى تفكير مستمر. وكان التلاميذ يشاهدونه واضعا ذراعيه على صدره ومادا يديه. ويحرص على المناولة كل يوم أحد. ورغم التزامه الشديد بواجبات وظيفته فقد رآه المسئولون عن المدرسة مرة أو مرتين يعود إلى بيته وهو سكران، ولما أنحوا عليه باللائمة وعدهم بالاستقامة وعدم العودة إلى معاقرة الخمر مرة أخرى، وأوفى بوعده لعدة شهور. غير أنه حنث بوعده ذات مرة فقد رأوه فى حالة سكر بين، ولكنه غضب هذه المرة من لومهم له فقررت إدارة المدرسة الاستغناء عن خدماته.

كان فيرلين فى الأشهر القليلة السابقة قد عقد صداقة وثيقة مع تلميذ له يدعى لوسيان ليتنواه فى التاسعة عشرة من عمره وكان هذا التلميذ الأثير إلى قلبه - وهو من أصل ريفى - طويل القامة مليح التقاطيع. وبعد أن ترك فيرلين عمله فى مدرسة نوتردام اقترح على تلميذه أن يسافرا معا إلى انجلترا حيث وصلا

فى نهاية شهر أغسطس ١٨٧٩ . وتمكن شاعرنا من إلحاق صديقه الشاب بنفس الوظيفة التى كان يشغلها فى مدرسة ستكنى التى عمل بها منذ أربعة أعوام عندما وطأت قدماه الأراضى الإنجليزية لأول مرة. ثم وجد فيرلين لنفسه وظيفة مدرس لغة فرنسية فى ميناء ليمنجتون المواجه لجزيرة وايت وفشل لوسيان ليتنواه فى أن يشق طريقه بنجاح فى مجال التدريس. وكان حلم فيرلين بعد خروجه من السجن أن يضطلع بفلاحة مزرعة صغيرة يلتمس فيها الهدوء والسكينة. ولهذا اقترح على صديقه لوسيان العودة إلى فرنسا لشراء قطعة أرض صغيرة يقومان بزراعتها. وبالفعل عاد الأستاذ وتلميذه إلى بلادهما فى ديسمبر ١٨٧٩ واشترى فيرلين قطعة أرض صغيرة وبدأ الاثنان فى فلاحتها. ولكن مشروع زراعة الأرض مالبث أن فشل وتراكمت عليه الديون. وبدا واضحا فى بداية عام ١٨٨٢ أن المشروع فى سبيله إلى الزوال. ومن ثم قرر شاعرنا بيع المزرعة . وفكر شاعرنا فى شغل وظيفة مدرس بجامعة باريس ولكنه لم يكن متأكدا من قدرته على المنافسة الأكاديمية والفوز بهذه الوظيفة. ولهذا اكتفى بمحاولة العودة إلى نفس وظيفته فى بلدية باريس. ولكن مجموعة اعتبارات حالت دون ذلك منها اشتراكه فى أحداث الكوميون ومحاكمته فى بروكسل

والحكم بحبسه لمدة عامين. وهكذا فقد شاعرنا كل أمل فى حياة بورجوازية مستقرة ومحترمة، الأمر الذى أصابه باليأس والقنوط وشجعه على الانزلاق فى المغامرات. وفى ٣٠ ابريل ١٨٨٣ حلت به كارثة. فقد أصيب صديقه لوسيان بمرض التيفود الذى أودى بحياته فى غضون أيام وذلك فى ٧ ابريل من العام نفسه فحزن فيرلين على وفاته حزنا شديدا.

كان والدا لوسيان ليتنوا يملكان قطعة صغيرة من الأرض فى مزرعة كولوم اشترتها والدة فيرلين فى ٣٠ يولية ١٨٨٣ نظير مبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة فرنك. فقد عز عليها كثيرا أن يفشل ابنها فى الحصول على وظيفة فى باريس رغم مضى ستة أشهر من البحث الدءوب عنها. ولهذا رأت أن يحاول ابنها فلاحة الأرض من جديد. وكان هذا قرارا طائشا من جانبها. وشدت الأم والابن رحالهما إلى قرية كولوم حيث مكثا أكثر من عشرين شهرا (حتى شهر يونيه ١٨٨٥). يقول فيرلين عن نفسه إنه فى تلك الفترة من حياته نبذ كل محاولة للاستمساك بالفضيلة وبالعيشة الكريمة. وسرعان ما أخذ ينزلق نحو السكر والعربدة والانطلاق فى حياة جنسية شاذة. غير أنه استطاع هذه المرة أن يخفى ممارساته الشاذة. ولكن تخلى عن حذره بعد وصوله إلى مزرعة كولوم حيث

استقبل نفرا من الشباب الباريسى الذى يدعو منظره إلى الشك والارتياب. بل نحن نراه يتخلى عن الحياء تماما. ففى قصيدة له بعنوان «مرح الحب الصاخب الأخير» يتحدى فيرلين الأعراف ويرمى بالتقاليد عرض الحائط فيتحدث دون خجل أو مواربة عن «الرحيل إلى أرض سدوْمة وعامورة».

ويعترف الشاعر أنه في عربدته الملتاثة أنفق سبعة آلاف فرنك فى أسبوع واحد. ويبدأ ـ شأنه فى ذلك شأن أوسكار وايلد ـ يخالط حثالة المجتمع بحثا عن المغامرة واللذة الحرام. الأمر الذى عرضه أحيانا إلى المخاطر. ففى أحد الأيام هاجمه وغدان واعتديا عليه بالضرب وسرقا كل ما يحمل معه من مال. وبطبيعة الأمر تكاثرت عليه الديون. ورأت الأم نذر الخراب فى الأفق تتربص للفتك بولدها فقامت يوم ١٧ أبريل ١٨٨٤ بإهدائه قطعة الأرض التى اشترتها فى مزرعة كولوم. وفى نهاية هذا العام رفع الدائنون عليه نحو أربع قضايا فلم يجد أمامه مخرجا سوى تصفية هذه الأرض فباعها يوم ٨ مارس ١٨٨٥ بخسارة نظير مبلغ ألفين ومائتى فرنك. وفى تلك الفترة من حياته عاد فى أحد الأيام إلى المزرعة فى حالة سكر شديد وهجم على أمه وهددها بالقتل. وشاهده الجيران فرفعوا أمره إلى الجهات المختصة التى

قدمته يوم ٢٤ مارس ١٨٨٥ أمام القضاء المستعجل في مدينة فوزييه الذي حكم عليه بالسجن لمدة شهر. وعندما خرج من السجن في ١٣ مايو ١٨٨٥ وجد أن أمه قد اختفت وأنه أصبح وحيدا بلا مورد وبلا سند أو معين. ولأول مرة في حياته وجد نفسه وجها لوجه أمام التشرد والجوع. ويعجز الدارسون عن تتبع حياته في تلك الفترة. وأغلب الظن أنه عاشا شريداً وبلا مأوى وأنه ظل على هذا الحال لعدد من الشهور. وعاد شاعرنا التعس في شهر يونيه ١٨٨٥ إلى باريس فلم يجد ما يقتات به الأمر الذي اضطره إلى بيع أثاث المزرعة . وسرعان ما نسيت الأم إساءة ابنها البالغة لها ورق قلبها له وسامحته وعادت لتعيش معه. وتركت له كل ما تبقى لديها في الحياة وهو أسهم وسندات تبلغ قيمتها عشرين ألف فرنك أخفتها تحت مرتبة السرير تحسبا لغدر الزمان.

وفي سبتمبر ١٨٨٥ أصبح الشاعر طريح الفراش فقد أصابه مرض في ساقه اليسرى الأمر الذي جعلها تتورم وتتخشب وتفقد القدرة على الإحساس. وأمر الطبيب الذي استدعي للكشف عليه بوضع رجله في جبيرة. ومن فرط لهفتها على ولدها تجاهلت الأم سوء حالتها الصحية وسهرت على خدمته والعناية به فأصيبت بنزلة برد شديد قضى على حياتها في ٢١ يناير ١٨٨٦. ولم

يستطع الحانوتية حمل نعشها وإنزاله على السلالم بسبب شدة ضيقها فاضطروا إلى إنزاله عن طريق النافذة فلم يتمكن ابنها العاق (الذى أحبها حبا لا مزيد عليه والذى ضحت بحياتها ومالها من أجله) أن يلقى نظرة وداع على جثتها. ومما زاد الطين بلة أن عائلة ماتيلدا التى انفصلت عن زوجها فيرلين بدأت تطارده وتطالبه بمؤخر النفقة المستحقة عليه والخاصة بابنه جورج. ورفعت هذه العائلة قضية للحجز على محتويات غرفته. وجاء المأمور لتنفيذ الحجز فقام شاعرنا بعمل فيه من الطيش والنزق بقدر ما فيه من الاعتزاز بالنفس والإحساس بالكرامة. فسلم للمأمور رزمة الأوراق المالية التى تركتها له تحت مرتبة السرير. وقيمتها عشرون ألف فرنك. وبعد أن دفع فيرلين مصاريف الجنازة وسدد ديونه لم يتبق معه سوى مبلغ زهيد لا يسمن ولا يغنى من جوع ولا يعينه على مواجهة العجز الجسدى الذى أقعده عن الحركة لفترة من الزمن.

وبعد أن جردته عائلة زوجته السابقة من كل فلس يملكه وجد فيرلين نفسه بلا مورد يقتات منه. فبدأ يفكر فى استرداد بعض الديون المستحقة له لدى الآخرين ولكنهم ماطلوه. وأحد المماطلين قسيس اسمه الأب بالارد كان فى عنقه منذ أيام مزرعة كولوم دين لفيرلين يصل إلى ألف وخمسمائة فرانك. وفى سبتمبر عام ١٨٨٤

كتب شاعرنا إلى أسقفية باريس يطالبها بمساعدته في استرداد هذا الدين غير أن الأسقفية لم تبال بطلبه. وفعل رئيس السجل المدني معه نفس الشيء فقد رفض أن يرد إليه دينا مستحقا عليه قدره ألف فرانك.

وفي يوليو ١٨٨٦ بدأت البثور تنتشر في رجله فنقل إلى المستشفى للعلاج دون جدوى فظل ينتقل من مستشفى إلى آخر. وفي نوفمبر من هذا العام نفسه تيبست رجله اليسرى وأصبحت عاجزة تماما عن الحركة. كما أنه لم يشف من البثور التي غطت ساقيه. وصرح الطبيب المعالج واسمه الدكتور نيلاتون أن حالة المريض ميئوس منها. وفسر انتشار البثور بإصابته فيما مضى بمرض الزهري ويعتبر عام ١٨٨٧ أسوأ عام مر عليه في حياته فقد جفت موارده تماما وأشرف بالفعل على الهلاك جوعا لدرجة أنه فكر في الانتحار. وكان ذلك على التحديد نحو منتصف شهر سبتمبر. ورق بعض أصدقائه لحاله فخفوا لنجدته وتصدقوا عليه بالقليل من مالهم. وعلى سبيل المثال قدم صديقه كوبيه إليه خمسين فرنكا أمدت في عمره لبضعة أيام نقل بعدها للعلاج إلى المستشفى حيث أمضى شهور الشتاء هناك. وفي عام ١٨٨٨ بدأ سكان الحي اللاتيني في باريس يرونه يعرج في مشيته ويمسك

بعصا ترتطم بالرصيف. ومن سخرية القدر أن شهرته آنذاك بدأت تذيع وأصبح محط إعجاب الأدباء الشبان. وكان الناس يشاهدونه كل يوم وهو يسير في شارع سانت ميشيل يرافقه رهط من الأدباء الشبان يجلسون إليه ويتجاذبون أطراف الحديث معه فى عدد من المقاهى المنتشرة هناك. وبقدر ما سطع نجمه وتفجرت عبقريته في تلك الفترة بقدر ما اجتاحته إمارات الاشتهاء الجنسى وأصبح وقته موزعا بين المستشفيات والغرف المفروشة يمارس فيها الجنس الحرام. وتحولت عنابر المستشفيات التى تعالجه إلى صالونات أدبية يرتادها الأدباء الشبان والمعجبون.

وفى المستشفى كان الأرق كثيرا ما يقض مضجعه فينكب على تأليف الشعر على ضوء مصباح جانبى مضىء. فألف آنذاك قصيدتى «الفأل الحسن» و«التبتل الداخلى». ولكن الألم أحيانا اشتد عليه ومنعه من النهوض من الفراش بل حتى من القراءة والكتابة. ولم يطرأ على ساقه أى تحسن وأصبح عاجزا تقريبا عن المشى. وفى ٢٥ مارس ١٨٨٨ تحسنت أحواله المالية فانتقل إلى فندق أكثر مدعاة للراحة حيث أقام صالونا أدبيا كل يوم أربعاء . وفى عام ١٨٨٩ عثر صديق على حجرة له فى فندق أفضل حالا هو فندق لشبونة الذى كان ينزل فيه مع زوجته واحد من أعز

وأخلص أصدقائه هو الرسام الشاب كازال الذى ترك لنا مجموعة من البورتريهات له. وكان هذا الفنان وزوجته يستضيفانه لتناول الطعام معهما كما أن هذه الزوجة توافرت على العناية بساقه المصابة بإخلاص قل أن نجد له نظيرا. وكانت مديرة هذا الفندق مغرمة بالشعر وصحبة الشعراء فلم تمانع فى دخول أعداد ضخمة منهم لزيارة فيرلين والاجتماع به كل يوم أربعاء رغم الفوضى والإزعاج الشديد اللذين سببه لها وجودهم. ولكن فى الوقت نفسه منعت هذه السيدة دخول الشبان الذين يأتون إليه لممارسة الرذيلة بسبب حرصها على الحفاظ على سمعة فندقها ، الامر الذى اضطر شاعرنا إلى مغادرته. وفى فبراير ١٨٩٠ انتقل فيرلين إلى فندق ناء وبعيد فكف كثير من المريدين عن زيارته، ولكن هذا لم يضايقه بل انصرف انصرافا كاملا إلى العمل.

وفى أخريات أيامه بدأت الدنيا تضحك بعض الشىء لفيرلين فتحسنت أحواله المعيشية تحسنا مطردا. وفى نزقه المألوف أنفق معظم ماله على العاهرات وشراب الأصدقاء. فشذوذه الجنسى لم يمنعه من معاشرة الساقطات والعيش معهن تحت سقف واحد مثل العاهرة مارى جامبيه التى لازمته لعدة شهور والتى أشار إليها فى قصيدته «التوازى» . ويدل ديوانه «الرجال» الذى كتبه عام

١٨٩١ على أن انشغاله بالعاهرات لم يصرفه عن المثلية، ومن المومسات اللاتى ارتبط بهن امرأة فى الثلاثين من عمرها اسمها كارولين تايسن وأندرى مارى. وبمجرد أن استقرت أحواله المعيشية بعض الشيء اندفع بكليته إلى معاشرة أكبر عدد ممكن من المومسات فعاشر عشرين عاهرة على مدار عشرين يوما. وورد اسمه في سجلات المخافر وأقسام البوليس. فقد ذكر تقرير الشرطة عنه في ٩ فبراير ١٨٩٢ أنه «يمارس اتصاله الجنسى المعتاد مع المومسات».

ولكن امرأتين تنافستا عليه استأثرتا بوقته فى تلك الفترة من حياته هما العاهرة فيلومين بودين والعاهرة أوجين كرانتز. كانت فيلومين بودين فى الأربعين من عمرها تتسم بالرقة ولطف المعشر وعلى جانب من الجمال. ولم يكن بها إلا عيب واحد يتلخص فى أنها لم تتورع عن التواطؤ مع عشيقها القواد لسرقة الشاعر. وبعد هذه المومس قابل فيرلين فى مايو ١٨٩١ المومس الآخر أوجين كرانتز. وقصة التنافس والصراع بين هاتين العاهرتين أشد ما تكون غرابة. فهى بمثابة حلبة مصارعة تكسب الواحدة منهما إحدى الجولات لتخسر الجولة التي تليها. ولكن أوجين فى نهاية المطاف استطاعت أن تنتصر على غريمتها. رغم دمامتها وتقدمها

فى العمر. كانت أوجين مديرة بيت جيدة ولها دخل من عملها على ماكينة الخياطة. ويرجع سبب إعجاب فيرلين بها أنها كانت تتصرف كما تتصرف سيدات الطبقة المتوسطة السفلى. ومن ثم تجاهل شدة غيرتها عليه ونزعتها إلى الشجار وحرصها البالغ على المال. وجن جنون عشيقته السابقة عندما رأته مستغرقا فى عشقه الجديد الذى أنفق عليه كل ماله فلم يتبق معه ما يسدد به إيجار حجرته بالفندق. وكان مدير الفندق يناصر فلومين على غريمتها أوجين فرفض فى ٢١ سبتمبر ١٨٩١ السماح للشاعر المفلس بدخوله. ولم يقبل فيرلين الثمل طرده من الفندق فاشتبك بمساعدة واحد من أصدقائه مع المدير على قارعة الطريق وبعد طرده اضطر إلى الانتقال إلى فندق آخر يسكنه القوادون وعاهراتهم. ثم قرر بعد ذلك اقتسام الوقت بين العاهرتين المتنافستين. ويقول الدارسون إن أوجين استأثرت بحبه حتى منتصف عام ١٨٩٢، ولعلها هجرته بعد أن تأكدت من إفلاسه. وانتهزت فلومين غياب غريمتها لتحل محلها وظلت تزوره فى شتاء عام ١٨٩٢ ـ ١٨٩٣ لتعوده فى مرضه. وكان هذا كافيا لإثارة سخط أوجين عليها. فعملت جاهدة لاستعادة عشيقها منها وأخذته بعد خروجه من المستشفى فى فبراير ١٨٩٣ ليعيش معها فى بيتها فوصفها بأنها

أحسن أصدقائه. وساءت صحته أكثر وأكثر وبدأ يعاني من الروماتيزم ولغط القلب وزيادة نسبة السكر واشتداد وطأة مرض الزهرى عليه. وأخذ يهذى واعتقد الأطباء أنه هالك لا محالة. ورغم أنه اجتاز هذه الأزمة بسلام فقد غطت الدمامل والخراريج كل ساقه فاضطر الأطباء إلى فتحها، ومنعه لغط القلب من النوم. وفى تلك الفترة اختفت أوجين تقريبا من حياته. فبدأت منافستها فى الاهتمام بالشاعر فى مرضه تظهر له الود والحنان لدرجة أنه فكر فى الزواج منها بعد عودته من إلقاء سلسلة من المحاضرات فى انجلترا بدعوة منها. وأوعز هذا صدر أوجين عليها فأوغرت بالتالى صدر فيرلين على غريمتها بأن أطلعته على بعض الجوانب المشينة فى شخصية فلومين . وهكذا أزاحت أوجين غريمتها من طريقها لتعيش مع الشاعر فى حجرة مظلمة لا يخترقها الضوء أقرب ما تكون إلى الجحر.

وبالرغم من أن أحوال فيرلين المالية تحسنت بالقطع فى الفترة ما بين ١٨٨٦ و١٨٩٠ فإن أثر هذا التحسن لم يظهر عليه ، فقد كانت فلومين تسلبه نقوده كما كانت أوجين تستغله. وزادت مبيعات كتبه وتنافس المعجبون بشعره على الحصول على توقيعه. وفى نوفمبر ١٨٩٢، دعته هولندا إلى إلقاء المحاضرات كما دعته

لنفس السبب بلجيكا فى مارس ١٨٩٣ واللورين وانجلترا فى نوفمبر ١٨٩٣ وحصل على عائد مادى كبير نظير إلقائه هذه المحاضرات فقد كسب من محاضراته فى إنجلترا وحدها ألف وخمسمائة فرنك ومن محاضراته فى بلجيكا ألف فرنك. ولكنه بدد كل هذه العائدات بسفه. ففى عام كتب أحد معارفه واسمه ليون دى شامب يقول أنه أنفق ستمائة فرنك وهو مبلغ طائل فى غضون بضعة أيام ، وفى إنجلترا اختفى عن الأنظار لمدة يومين ليعود بعدها خاوى الوفاض. وفى طريق عودته من بلجيكا إلى باريس سرق منه اللصوص الألف فرنك التى حصل عليها نظير محاضراته. وهناك خطاب أرسله إلى عشيقته فلومين ينحى فيه عليها باللائمة لأنها أنفقت أو احتفظت لنفسها بثلاثة آلاف فرنك دون أن تعيد منها شيئا.

وفى عام ١٨٩٤ ساءت حال ساقه فنقله الأطباء إلى المستشفى للعلاج حيث عرف شيئا من الراحة والدعة فأقبل على العمل من جديد، ولكن أوجين هجرته آنذاك. وبعد خروجه من المستشفى كتب إليها كى تعود ليعيشا معا وأقسم لها أنه ليس بإمكانه الاستغناء عنها رغم طباعها الفظيعة. غير أنها رفضت وبات واضحا أنها لا تريد أن تعيش معه أكثر من ذلك. وفى فترة وجوده فى المستشفى تلقى مبالغ مالية مكنته بعد خروجه منها من

استئجار غرفة مطلة على حديقة اللوكسمبرج فى فندق لشبونة. ولكن أوجين نكدت عليه إذ قامت بتمزيق أوراقه ورفضت أن تعيد إليه بعض الأشياء الخاصة به، والتى كانت يحتفظ بها فى مسكنها.

وفى ديسمبر ١٨٩٤ دخل فيرلين المستشفى لآخر مرة ليخرج منها مستندا على ذراع فلومين التى سماها أرملته الحبيبة والتى سرعان ما هجرته إثر مشادة عنيفة دبت بينهما. الأمر الذى جعله يكتب قائلا: «سوف تخرج جميع النساء من حياتى إلى الأبد». ولكن أوجين أخذته ليعيش معها فى حجرتها المتواضعة فوق السطح. وبسبب انتكاسة ألمت به أصبح شاعرنا طريح الفراش. وانفتح خراج موجود فى ساقه اليسرى. فسهرت أوجين على خدمته بإخلاص وتفان» . فتحسنت صحته وأخذت أحواله المالية فى الانتظام. كما أن دخله أخذ يتزايد، الأمر الذى مكنه من استئجار شقة بأكملها تولت أوجين تأثيثها. وارتسمت على شاعرنا فرحة الأطفال وهو يذوق لأول مرة طعم الراحة والدعة وينام على فراش نظيف. ويذكر صديقه الرسام كازال أن السكينة والسلام بدءا يحلان عليه فامتنع عن شرب الخمر وهدأت عواطفه الجامحة. وفى ديسمبر ١٨٩٥ ظهرت الأورام على ساقه. وأصيب فى ليلة عيد

الميلاد بمغص شديد وألمت به نزلة برد جعلته يهذى من الحمى. وفى ٥ يناير ١٨٩٦ ألمح إليه صديقه ديلاهاى أن يتناول ولكنه غير مجرى الحديث. واشتدت عليه الحمى فى المساء فأصاب الذعر أوجين. ولا أحد يعرف على وجه اليقين ما الذى حدث بينها وبين الشاعر فى تلك الليلة فقد وجد ملقى على بلاط الغرفة القارس البرودة دون أن تكون أوجين معه إذ إنها ذهبت لتقضى ليلتها فى بيت الجيران. وفى الفجر أعيد المريض إلى سريره ولكن بعد أن أصيب بنزلة شعبية حادة كانت السبب فى غيابه عن الوعى. ثم فاضت روحه يوم ٨ يناير ١٨٩٦ . وعلى النقيض من حياته كانت ميتته مهيبة فقد حمل نعشه ستة من خلصائه وأرسلت وزارة الفنون الجميلة مندوبا لحضور الجنازة. وسار وراء النعش عدة آلاف من المشيعين. وقبل الدفن قام عدد من المتحدثين بتأبين الفقيد.

الفهرس

القسم الأول :

القسم الثانى :

رقم الايداع : ٧٢٦٩ / ١٩٩٤
I - S - B - N
977-07-0346-X

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٣٠ جنيها فى ج.م.ع تسدد مقدماً نقداً او بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولاراً - امريكا واوربا وآسيا وافريقيا ٣٠ دولاراً - باقى دول العالم ٤٠ دولاراً .

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

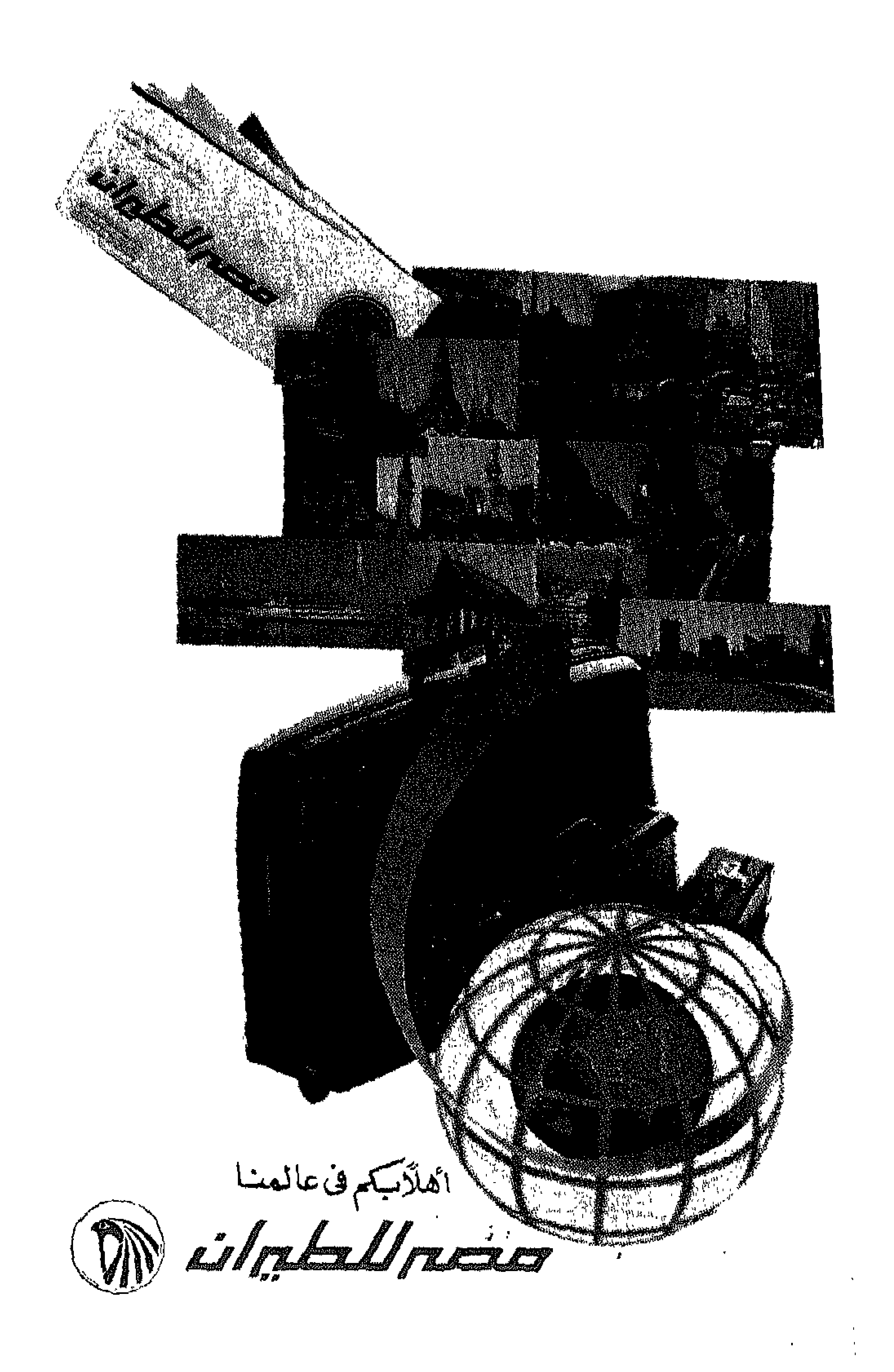
الكويت : السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

هـذا الكتـاب

يتناول هذا الكتاب حياة وأعمال ثلاثة من كبار الأدباء العالميين، الذين دار حولهم كثير من الجدل والنقاش ومن اجلهم احتدمت المعارك الأدبية بين منصف ومؤيد . وهؤلاء الأدباء هم الكاتب الايرلندى المعـروف أوسكار وايلد الذى صدر الحكم بحبسه لمدة عامين، والشاعران الفرنسيان الكبيران آرثر رامبو وزميله بول فيرلين الذى صدر حكم بحبسه لمدة عامين أيضا .

واتسمت حياة الأدباء الثلاثة بالتوتر والقلق مما كان له أكبر الأثر على انتاجهم الأدبى.. والجدير بالذكر أن رامبو عاش فى عدن وهرارى وزار مصر.

ويذهب هذا الكتاب إلى أنه لا يمكن الحكم على أعمال هؤلاء الأدباء حكما دقيقا إلا فى ضوء حياتهم الخاصة، والكتاب يتضمن وثائق مهمة تضمنت مادار من شبهات واتهامات للأدباء الثلاثة المصابين بالشذوذ الجنسى، كما يتناول العلاقة بين أدبهم وحياتهم المريضة الخاصة .


أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران



كونيكا
Konica
كاميرات
أفلام
معامل طبع وتحميض
شرائط ڤيديو
Konica
Konica
XG 100
24
Konica
الوكيل
شركة إساى
٩٦ شارع أحمد عرابي - المهـ
تليفون: ٣٤٤٠٥٨٣ فاكس: